حول أزمة المجتمع العربي المعاصر

ظاهرة الردة وسقوط القيم

— ١ —

جلال فاروق الشريف

يواجه المجتمع العربي في المرحلة الراهنة ازمة لم يعرف مثلها في تاريخه المعاصر . فعلى الرغم من ضخامة الهزيمة التي لحقت به في مطلع يقظته في نهاية الحرب العالمية الاولى والتي ادت الى تكريس تجزئته واحتلاله ، وعلى الرغم من جميع اشكال التحديات التي واجهها المجتمع العربي في جميع اقطاره في نضاله ضد الاستعمار القديم في مرحلة ما بين الحربين العالميتين الا ان الازمة الراهنة تبدو اشد واعنف لانها في هذه المرة لا تتناول ازمة معينة أو ازمة قطر بعينه بقدر ما تضع موضع التساؤل الوجود العربي كله ، اي قدرته على البقاء والاستمرار كوجود له هويته المحددة وجدارته في متابعة الكفاح للانتصار على التحديات التي تواجهه .

فبعد تفاؤل عميق اثر الحرب العالمية الثانية ساد المجتمع العربي بانه قادر بنضاله على تحقيق ما أخفق في تحقيقه بعد الحرب العالمية الاولى ، وبعد انتصارات حقيقية حققتها معظم الاقطار العربية على طريق التحرر والتقدم وتوحيد نضالها ضد أعدائها التاريخيين في الداخل والخارج ، يسود في المرحلة الراهنة شعور عميق بأن جميع اشكال التحرر السياسي

والتقدم الاجتماعي والاقتصادي والتطور الثقافي التي حققتها الاقطار العربية ، عاجزة عن مواجهة التحديات التاريخيـة التي يتعرض لهـا الوجود العربي وان هذا الوجود لم يكن في أي وقتا مضى مـن تاريخـه الحديث أعجز عن الامساك بزمام مصيره كما هو الآن وان التحديات التي يواجهها لم تستطيع في اية فترة مضت ان تكون اقدر على قهر ارادتـه في التحرر والتقدم منها في المرحلة الراهنة .

من هذا المنطلق فان خطورة الازمة الراهنة التي يواجهها المجتمع العربي انما تنبثق في المقام الاول من ذلك الشعور العميق بعدم الثقة بنفسـه وبقدرته على المحافظة على كيانه وعلى المضي في طريق الاهداف التاريخية التي طرحها لنفسه منذ بداية يقظته في مطلع هذا القرن على العالم المعاصر .

ان الازمة الراهنة هي بالاساس ازمة داخلية ، مهما كانت التحـديات الخارجية التي ادت اليها ، وبالتالي فان مواجهتها مسالة داخلية تتعلق بالمجتمع العربي بالذات وبقواه الخاصة قبل اي شيء آخر وكذلك ايضا مسالة الانتصار عليها.

■ ■ ■ ■

ظاهرة الردة وسـقوط القيم

تعرب الازمة الراهنة التي يمر بها المجتمع العربي عن نفسها في جملـة من الظواهر التي غدت معروفة ومكشوفة ، ويجيء في مقدمتها ظاهرة الردة وسقوط القيم .

« يبدو الواقع العربي الراهن وكأنه يعيش مرحلة الردة كل ما فيها يمثل انتقاضا على قيم مثل صعودها منذ مطلع هـذا القرن ارهاصا بتحول

ثوري في هذا الواقع، ويعني سقوطها سقوطا لتجربة الحياة العربية الحديثة كلها . بل ان التسارع الذي يتحقق فيه هذا السقوط او الانهيار والتحدي المعلن الذي بدأ يسود لهذه القيم يبدوان مذهلين الى حد يخيل معه ـ كما يقول احمد حيدر (١) ـ كأن قوة سحرية تفعل فعلها . كأن قدرا عاتيا لا سبيل الى دفعه قد تحكم بالمصير يشده الى الخلف ، لا يريد ان يرجعه الى الواقع الذي تمرد عليه وحسب ، وانما يبدو مصمما على ان يمرغه بحمأة اسوأ اشكال التردي وان ينال من كرامته ومن ثقته بنفسه وقدرته على الخلاص . ان هذا الذي يبدو وكأنه القدر المتحكم ، يلوح وكأنه على موعد مع الثأر من كل ما استطاعت الحياة العربية الحديثة ان تحققه من تقدم ومن كل ماطرحته من قيم مثلت أملا في مصير افضل. هكذا فانه من خلال هذا الاحساس الفاجع الذي تثيره ظاهرة سقوط القيم يبدو الواقع العربي وكأنه في ضياع . فكل ما خيل انه الصورة المشرقة للمستقبل يبدو مهتزا ، وكل ما خيل انه اليقين يبدو موضع شك »(٢) .

والحق ان هذا الاحساس الفاجع بأزمة المجتمع العربي اذا كان اليوم يبدو حادا شاملا الا انه ليس بجديد .

كتب صدقي اسماعيل مستهلا كتابه « العرب وتجربة المأساة » الذي نشر في الشهر الاول من عام ١٩٦٣ اي قبل اكثر من ١٦ عاما ما يلي :

« لو اتيح لمؤرخ تقليدي تعنية مصائر الشعوب ان يتأمل الحياة المترديـة التي وجد فيها العرب انفسهم منذ بداية هذا القرن لخطر له على الفور

---

(١) نحو حضارة جديدة . احمد حيدر . (١٩٦٩) .

(٢) حول ظاهرة القلق وسقوط القيم . جلال فاروق الشريف . مجلة الشبيبة . دمشق العدد (٧٥) ـ حزيران ١٩٧٧ .

ان خطيئة كبرى اقترفت في ماضي هذا الشعب كان من نتائجها هـذا الواقع الحزين ولاسيما ان هذا الواقع يمتد الى عدة قرون من البؤس والفوضى والانحطاط لايعبر عنها انهيار الدولة وتجزئة الوطن واضطراب المجتمع فحسب ، بل انها تنطوي على اقسى صورة لتردي العقول وفساد الضمائر »(٣) .

وقبل عشر سنوات ذهب احمد حيدر في كتابه « نحو حضارة جديدة » نشره عام ١٩٦٩ الى حـد انكار ان يكون العرب يعيشون عصر نهضة حديثه : « ان العرب يسمون عصرهم الحاضر بعصر النهضة الحديثة وهذه التسمية تترك في نفوسهم ارتياحا فيشعرون بانهم تجاوزوا عصر الانحطاط وظلامه وهم يعيشون اليوم في عصر (الانوار) . والآن لنسائل انفسنا : الى اي حد تجاوزنا عصر الانحطاط حقا .. » (ص ٢٩٤) .

ويجيب احمد حيدر عن هذا التساؤل قائلا :

« ان عصرنا هو عصر انحطاط مموه ، ولذلك فهو اسوا عصور الانحطاط جميعا . انه مموه بالابعاد الكاذبة ومموه بالآلة .. ولو رفعنا هذه الآلة لانكرنا عصر الانحطاط ذاته .. فالمواطن العربي يشعر اليوم بأنه من اقل مواطني العالم استقلالا في مصيره الاقتصادي والسياسي ، وبأن هنـاك مايشبه القدر الخارجي الذي يحول بينه وبين السيطرة علـى حياتـه وتوجيهها الوجهة التي يريد .. »(٤)

ـ فهل نحن حقا نعيش في عصر انحطاط مموه ؟

---

(٣) العرب وتجربة المأساة . منشورات دار الطليعة . بيروت . ١٩٦٣ . (ص ٧) .
(٤) نحو حضارة جديدة . محمد حيدر . (ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩) .

ـ هل حقا لم يستطع المجتمع العربي في تاريخه الحديث ان يحقق أي تقدم على عصور الانحطاط القديمة التي انحدر اليها قبل قرون طويلة؟

واذا كان الامر على هذا النحو فان كل ما يبدو كانه ردة ليس في الواقع سوى سقوط الزيف والتمويه . وكل ما يبدو وكأنه سقوط للقيم ليس سوى سقوط لقيم لم يشمل صعودها اي تقدم حقيقي فيالحياةالعربية.
ـ فهل واقع المجتمع العربي مفجع حقا الى هذا الحد ؟

ـ واذا كان الامر كذلك فما طريق البداية للخروج من الانحطاط ؟

ولعل ابلغ دلالة على عمق الازمة الراهنة التي يعانيها المجتمع العربي ان ما بدا قبل / ١٠ / سنوات عند احمد حيدر تشاؤما مفرطا ، وان مابدا قبل اكثر من /١٦/ عاما عند صدقي اسماعيل ادانة للوجود العربي في حد ذاته (خطيئة كبرى في الماضي العربي) ، كل هذا قد تحول فيالمرحلة الراهنة عند اوسع قطاعات المجتمع العربي الى شعور عميق بالمرارة وبان المجتمع العربي في مواجهة التحديات الراهنة التي يطرحها عليه العصر ، كله غدا عاجزا عن الامساك بزمام مصيره . فهل ثمة ازمة اعمق منهذه ؟

تحت عنوان « حول ظاهرة القلق وسقوط القيم » كتبت قبل اكثر من سنتين ما يلي : « تكشف المرحلة الراهنة من حركة تطور المجتمع العربي عن ظاهرة قلق عميق تعرب عنها الحياة اليومية بمختلف اشكالها ولاتتناول المسائل الايديولوجية والسياسية وحسب وانما المسائل الاقتصادية والاجتماعية حتى يمكن القول ان المجتمع العربي قل ان مر بمرحلة ساوره فيها قلق مصيري شمل حياته كلها كما هو في المرحلة الراهنة .

ولئن صح ان المفاهيم التي يطرحها مجتمع ما كاساس لوجوده ولحركة تطوره والقيم التي ترتبط بهذه المفاهيم هي انعكاس لظروف الواقع

الاجتماعي الاقتصادي وان هذه القيم والمفاهيم تمثل المنطلقات التي يتحرك على اساسها مجتمع ما لمواجهة ظروف المرحلة التاريخية التي يمر بها ، فان وجه الازمة في ظاهرة القلق التي تساور المجتمع العربي هي ذلك الاحساس الفاجع بما يمكن ان نسميه اذا استخدمنا مصطلحات صدقي اسماعيل في كتابه « العرب وتجربة المأساة » هو سقوط القيم . فاذا كان سقوط القيم ـ كما يقول صدقي اسماعيل ـ ظاهرة قديمة رافقت المجتمع العربي منذ بدء انحطاطه قبل قرون طويلة ، فان هذه الظاهرة تعود لتتجلى في المرحلة الراهنة على نحو مأساوي . ووجه المأساة في هذا السقوط هو انه يتناول القيم الجديدة . فكل ما بدا انه قيم استخلصتها تجربة الحياة العربية الحديثة منذ بدء ما يسمى « عصر اليقظة » في القرن الماضي من اجل بناء مجتمع عربي جديد ، وناضلت كي ترسي عليها أسس هذا المجتمع ، كل هذا يلوح وكأنه قد سقط وان المجتمع العربي يعيش مرحلة انهيار القيم الجديدة »(٥) .

بعض اشكال ظاهرة سقوط القيم الجديدة

تتمثل ظاهرة سقوط القيم بصورة رئيسية في المرحلة الراهنة بانتصار الثورة المضادة في المجتمع العربي ومحاصرتها لحركة التحرر العربية وشروعها في تمزيقها وتفتيت معظم فصائلها وافراغ النضال العربي من محتواه الوطني القومي التقدمي وبالتالي اسقاط جميع القيم التي استخلصها هذا النضال عبر تاريخه الطويل واقام على اساسها مسيرته وحركة تطوره باتجاه ان يتحول الى ثورة عربية قومية تقدمية شاملة . وتؤلف الهجمة الراهنة التي يشنها الفكر الرجعي على القيم الاساسية

(٥) مجلة الشبيبة ـ دمشق ـ العدد (٧٥) حزيران ١٩٧٧ .

التي طرحتها حركة التحرر العربية اعلى اشكال ظاهرة سقوط القيم الجديدة .

« يتضح اليوم على نحو لم يسبق أن اتضح من قبل خلال المسيرة الطويلة للفكر العربي التقدمي المعاصر باتجاه ان يجذر نفسه في الحياة العربية الحديثة ان التحديات التي لم يتوقف هذا الفكر عن مواجهتها منذ نشأته في مطلع هذا القرن ، تدخل في المرحلة الراهنة منعطفا خطيرا وتبلغ ذروة لم يسبق ان بلغتها في اية مرحلة من مراحل تطور الفكر العربي المعاصر . ويتجلى هذا في الهجمة الشرسة التي يشنها الفكر الرجعي ضد كل ما هو وطني وقومي وتقدمي في الحياة العربية ، محاولا اعادة فرض قيمه البالية على نحو لم يعرف الا في اشد مراحل تاريخ المجتمع العربي ظلاما وتخلفا وخضوعا للسيطرة الاجنبية .

فالوطنية كقيمة اخلاقية وكمقولة سياسية واجتماعية والتي استخلصها الفكر العربي المعاصر من التجربة النضالية الطويلة للجماهير العربية ضد السيطرة الاجنبية وطرحها كمنطلق لنضال هذه الجماهير من اجل التحرر من السيطرة الاجنبية والتي تعبر عن وحدة انتماء جميع المواطنين الى الوطن دون تمييز فيما بينهم على أساس انتماءاتهم الثقافية او السياسية او الاجتماعية ، هذه الوطنية يعيد الفكر الرجعي وضعها موضع التساؤل والشك ويوجه اليها الاتهام .

والقومية كهوية مشتركة لجميع الاقطار العربية تجسد الانتماء التاريخي والحضاري والمصيري الموحد لجميع المواطنين العرب الى الامة العربية والتي انطلقت منها حركة التحرر العربية في القرن العشرين كأساس لبناء مجتمع جديد قادر على مواجهة تحديات العصر الحديث ، هذه القومية

يحاول الفكر الرجعي اعادتها الى المواقع الخلفية من الحياة العربية ونفيها واسقاطها كمنطلق لتحرر الجماهير العربية وتطورها وتقدمها .

والتقدمية كرؤية علمية لحركة تطور المجتمعات البشرية على انها حركة صاعدة تأخذ اشكالا متجددة ومتقدمة للحياة الانسانية عبر تطور التاريخ، هذه التقدمية لا ينفيها الفكر الرجعي وحسب وانما يطرح اعادة عجلة تطور الحياة العربية الى الوراء باتجاه فرض أشكال زائلة من العلاقات الاجتماعية تتناقض مع تطور العصر ومعطياته كلها .

ولئن كان تطور الحياة العربية الحديثة تحت تأثير مختلف اشكال العلاقات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المتخلفة الموروثة التي ظلت سائدة وتحت تأثير مفاعيل قوى الرجعية العالمية التي تجسدها الامبريالية لم يتوصل في وطننا العربي الى تصفية الفكر الرجعي الذي ظل الفكر العربي التقدمي في صراع دائم معه ، الا ان الظاهرة الخطيرة الجديدة في هذا الصراع الذي يجسد المرحلة الراهنة اقصى اشكاله واشدها عنفا ، هي انتقال الفكر الرجعي الى مرحلة الهجوم ولجوؤه الى العنف ضد جميع اشكال الحياة العربية الحديثة حتى ليمكن القول والوقائع تشهد على ذلك في اكثر من قطر عربي ، ان الفكر العربي التقدمي المعاصر يواجه فكرا رجعيا مسلحا ، ينتقل في المرحلة الراهنة الى محاولة فرض قيمه المتخلفة على الحياة العربية بجميع اشكالها الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية بالعنف .

فالفكر الرجعي يطالب اليوم براس الفكر العربي التقدمي وكل ما طرحه من قيم ومقولات جديدة في محاولة مصممة دامية لفرض نفسه كفكر سائد واحلال نفسه كأساس للعلاقات في المجتمع العربي ، لا يوقف تطور

هذا المجتمع وتقدمه وحسب وانما يفككه ويعيده الى اشد اشكاله المتخلفة بدائية وتناقضا »(٦) .

ان الفكر الرجعي في هجومه الراهن على الفكر العربي التقدمي والقيم التي استخلصها بممارساته النظرية وبممارساته النضالية خلال تاريخ طويل يشكل الغطاء الايديولوجي لقوى الثورة المضادة داخل المجتمع العربي ولقوى الامبريالية العالمية في محاولتها تصفية حركة التحرر العربية بجميع منجزاتها الايديولوجية والنضالية .

وفي الوقت نفسه يقف الفكر العربي التقدمي موقف الدفاع ويتراجع عن مواقعه المتقدمة في الحياة العربية ويبدو امام ضراوة هجمة الثورة المضادة والفكر الرجعي عاجزا عن اثبات شرعيته كمعبر عن محركات تاريخية عميقة في الواقع العربي وعن جدارته في دفع حركة تطور المجتمع العربي الى الامام في مواجهة اعدائه التاريخيين .

ان الفكر العربي التقدمي يبدو اليوم وكأنه قد فقد مساندة القوى التاريخية التي افرزته . وهو في غياب هذه القوى يبدو اعزل مجردا من السلاح معرضا لبطش قوى الثورة المضادة وللتصفية كفكر دخيل وابن غير شرعي للمجتمع العربي . وفي هذا تأخذ ظاهرة سقوط القيم اقسى اشكالها واشدها عنفا ويبدو كل ما حققته الحياة العربية الحديثة من تقدم وكأنه زائف . انه يبدو كما يقول احمد حيدر وكأنه انحطاط مموه قد سقطت عنه الاصبغة فاذا هو « اسوأ عصور الانحطاط جميعا » .

---

(٦) الفكر العربي التقدمي في مواجهة الفكر الرجعي المسلح . مجلة « الموقف الادبي » العدد (١٠٠) . آب ١٩٧٩ .

وبمقدار ما توسع قوى الثورة المضادة هجومها على الساحة السياسية يوسع الفكر الرجعي بدوره هجومه على الفكر العربي التقدمي في جميع الميادين التي حققت الحياة العربية فيها تقدما ذا شان . « ولاتشمل هذه التحديات الفكر السياسي العربي وحسب وانما تحاول ان تتجاوزه الى سائر اشكال الفعاليات الثقافية الاخرى التي تحمل طابع التقدم والتجديد في مختلف المجالات حتى ليصبح القول ان ثمة هجمة ايديولوجية رجعية على جبهة الفكر والثقافة كلها، تحاول استعادة مواقعها المفقودة امام الانتصارات التي حققها الفكر العربي التقدمي ولاسيما منذ الخمسينات وثبتها كمنجزات له في مطلع الستينات . ويمكن أن نلمس جانبا من هذه الهجمة على الصعيد الثقافي مجال الشعر العربي . فقد بدأت الاصوات ترتفع بالهجوم على الشعر العربي الحديث وتطالب بتصفيته بل وبتصفية شعرائه انفسهم بدعاوي مختلفة . تارة باسم التراث الشعري واخرى باسم التراث اللغوي واحيانا اخرى باسم القيم الموروثة » (٧) .

وتزداد صورة سقوط القيم سوادا عندما يأخذ تراجع الفكر العربي التقدمي أمام الثورة المضادة والفكر الرجعي لا شكل هزيمة وحسب وانما طابع ردة وانتقاض على الفكر التقدمي من داخل قوى جبهته بالذات ان قوى سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية عديدة مختلفة بدت في مراحل فاصلة من نضال المجتمع العربي من اجل التحرر والتقدم وكأنها ركائز ثابتة في جبهة المواجهة مع الامبريالية العالمية قد ارتدت وتحولت الى صفوف قوى الثورة المضادة مباشرة او الى احتياطي لهـا أو الى مهادنتها ومساومتها .

---

(٧) الفكر العربي التقدمي والتحديات الجديدة . جلال فاروق الشريف . مجلة الشبيبة. العدد (٦٢) شباط ١٩٧٦ .

وأمام هذا كله تقف الجماهير العربية مادة النضال الوطني القومي التقدمي بالامس وغايته ، مكتوفة الايدي ، عاجزة عن تقرير مصيرها ، ترى بأم عينيها سقوط القيم التي يتوقف عليها حاضرها ومستقبلها ، وتجد نفسها فريسة لتحولات سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية معادية لصالحها ، تحررت فيه من كل شروط التخلف والاستغلال وتمزق كيانها القومي .

ان هذه الجماهير تجسد نفسها وحيدة في ساحة نضالها التاريخي تفتك بها قوى الامبريالية والصهيونية والرجعية المحلية دون أن تملك من القوة ما تدفع به عن نفسها غائلة ما يهدد حاضرها ومستقبلها من عدوان يريد ان يعيدها الى اشد اشكال وجودها بدائية وتخلفا ورزوحا تحت وطأة التبعية والسيطرة الخارجية .

عدد خاص عن ثقافة الطفل

بمناسبة العام الدولي للطفل ستكرس مجلة « المعرفة » عددها الصادر في كانون أول ١٩٧٩ لثقافة الطفل ؛ وتدعو المعنيين بثقافة الطفل المساهمة في ذلك العدد تعبيراً عن مسؤوليتهم ازاء خلق جيل جديد قادر على توحيد أمته وبناء مجتمع يسوده العدل والحريــة .

وعي التاريخ

حافظ الجمالي

سألت نفسي يوما عن أفراحي القومية ، فوجدت ذلك في ايام قلائل جدا ، ووجدت بعد ذلك أني دفعت لقاء كل فرحة ، ثمنا باهظا ، . فما من فرحة اكتملت ، على ما كنت أتوقع ، بل لقد جاء بعدها ما ينسينيها ، ويذهلني عنها ، ويرمضني فيها الى ابعد الحدود . ولم يكن جواب من أعرف من الناس عن سؤالي هذا ، بمختلف عن جوابي لنفسي . وما من عربي مرت به الحياة ، أو مر بالحياة من المعاصرين الا فرح قليلا وحزن كثيرا .

ثم عدت الى الماضي فسألته ، ووجدت الاجابة واحدة . الماضي ، هو ايضا ، قليل الافراح ، كثير الاتراح . الا ان «النسبية» تدخل في كل الاحكام، بحيث لا يجوز معها القول : ان الحياة العربية كانت كلها واحدة ، منذ فجر تاريخها حتى الآن . أو لنقل انها لم تكن واحدة في كل شيء ، بل كانت كذلك في أشياء ، ومختلفة في أشياء أخرى . ترى هل كان الاختلاف في الثانوي ، والعرضي ، والعابر، وهل كانت الوحدة ، في الاساسي ، والجوهري ، والثابت ، أو أن العكس هو الصحيح ؟

والحقيقة انه مهما يقل في عهد الامويين ، والاستياء الذي كان يثيره، واللاشرعية التي انحدر منها ، فان ذلك العهد يظل من بين سائر العهود

هو الاكثر تألقا ، والاكبر اشراقا ، لا لشيء الا لانه وسّع حدود الوطن العربي ، وجعله دولة ضخمة ، كان يمكن ان يقال فيها انها دولة عظمى « لو كانت مصطلحات هذه الايام سائدة في الماضي ، فضلا عن نقائه العربي، وابقائه السلطة ، كل السلطة تقريبا ، بين الايدي العربية . الا أن لكـل مزية عيبا يقابلها ، اوطفيليات كثيرة تنمو ، في البدء ، على هوامشها ، لتقضي اخيرا عليها . ولقد دفع الامويون ثمن مزاياهم هذه ، بالشعوبية العنيفة التي ظهرت هنا وهناك ، ولاسيما في الارض الفارسية ، والتي كان من شأنها اخيرا ان تقضي عليهم .

ولكن هل كان لهذه الشعوبية ان تنمو كل ذلك النمو ، وان تقضي على الدول العربية ، لولا ما كان في هذه من خلل داخلي ؟ اظن أن الجواب واضح جدا . فلولاان أن العرب اختلفوا فيما بينهم ، وكان بينهم الظالم والمظلوم ، لما انتهى المظلوم الى الاستعانة بمن يقوى به ساعده ، ويشتد به ازره ، ولهذا نفهم وصية ابراهيم بن محمد علي الهاشمي ، لابي مسـلم الخراساني ، تلك الوصية التي يقول فيها . « يا عبد الرحمن (وهذا هو اسم أبي مسلم) ، انك رجل منا اهل البيت ، فاحفظ وصيتي . وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم ، وحل بين اظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعة ، فاتهمهم في أمرهم ، وانظر هـذا الحي من مضر ، فانهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فيـه ، ومن كان في امره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء . وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل . فأيما غلام بلغ خمسة اشبارتتهمه فاقتله . . . ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير) ولا تعصه ، وان اشكل عليك امر فاكتف به عني »(1) .

ومن الواضح ان ابراهيم يأمر ابا مسلم بتقريب اهل اليمن ، لانهم اعداء الدول القائمة ، بسبب العصبية التي كانت نارها مشتدة آنذاك ، لا بين

---

(1) الخضري : الدولة العباسية ص : ٢١ .

العرب من جهة ــ والفرس من جهة اخرى ، بل كذلك بين العرب انفسهم ، اي بين النزارية واليمانية ، اي بين نصر بن سيار ، كبير الاولين ، وبين جديع بن شبيب ، المعروف بالكرماني ، زعيم اليمانية . وحتى النزارية فانها كانت منشقة ، فربيعة في جانب ، ومضر في جانب آخر . وكان اكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحروري الخارج على الدولة ، والمطالب بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله .

وعندما يقال : ان العصبية فرّقت القبائل العربية ، وجعلت بعضها عدوا لبعض ، فلا يجب ان نفهم من ذلك ، ان القضية كلها « محض عصبية جاهلية » ، بل يجب ان نفطن الى ان وراء هذه الجاهلية المستيقظة منافع دنيوية كثيرة ، يختص بها قوم من المقربين من السلطة ، ويستبعد قوم اخر ، ليسوا من المقربين (٢) .

ترى هل كانت الحياة والمنافع ضيقة فلا تتسع الا لقوم دون قوم ، وفئة دون فئة ؟ او ان الخير كثير ، والاموال موفورة ، والبلاد كبيرة ، وهي تتسع لكل الناس ، فلا يشعر معها احد بحرمان ؟

ان الانسان ليعجب حقا ، كيف انتقل العرب من حال الى حال ، وصار فقرهم غنى ، وخشونة عيشهم نعيما ، وكيف تنهال عليهم الغنائم من كل مكان ، ثم لا يجدون مجالا لاصلاح مابينهم ، وكيف تعود رواسب الجاهلية ، فتستيقظ فيهم وتعصف بهم ، وتجعل كل فريق يريد كل شيء لنفسه ، ويحرم الاخرين ، ذلك الحرمان الذي يلهب الغيرة ، ويؤجج المطامع ، ويحدث الفرقة ، ويثير النزاع .

واذكر هنا على سبيل المثال ان الوفود العربية كانت تصل الى عاصمة النبي بعد عام ٦٣١ ، كثيرة ، متصلة . وكان بين الوافدين وائل بن حجر الحضرمي ، امير حضرموت واليمن الذي تلقاه النبي بالكثير من التجلة

---

(٢) محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية . الدولة العباسية ص : ٢٠ ــ ٢١ .

والاكرام . واختار النبي معاوية بن ابي سفيان ، الذي عينه أميرا لسره ، اكراما لابيه ، ليقوم بدور المضيف لوائل ، وان ينزل في دار له في واحة قريبة ، ليتولى اكرام مثواه . وكانت الهاجرة في كبد السماء ، ترسل أشعتها المحرقة ، عندما قصد الرجلان الى الواحة . وقد انتطى وائل بعيره ، مخلفا مضيفه يسير على قدميه . وطلب معاوية من ضيفه ان يردفه على ظهر بعيره ، فأبى ذلك عليه ، وقال : معاوية اخيرا . . . اذن فاعرني نعلك اقي به قدمي حر التراب ، فرد وائل بشيء من الكبرياء قائلا ، وماذا يقول الناس عني ، اذا سمحت لمثلك من عامة الناس ، باحتذاء نعلي ؟ » وقد وصف النبي هذا الحادث ، بانه من مخلفات الجاهلية . ولم يكن وائل ليتصور آنذاك « ان هذا الشاب الذي يركض الى جانب بعيره سيصبح في يوم قريب أعظم حاكم في العالم المعروف » .

وعندما افكر في هذا الحادث ، لا اكاد اجد فرقا كبيرا بين سلوك وائل هذا في حرصه على أن يكون كل شيء له ، وفي حرص بني امية على الاستئثار بفيء الناس ، على ماقال السفاح وعمه داوود ، في خطبة الخلافة ، على الرغم من أن العهد بين معاوية الحافي القدمين ، مع وائل ، وبين معاوية الذي لا يقبل اية هدنة او مهادنة مع علي رضي الله عنه ، وحرصه على الانفراد وحده بالحكم ، هو وأسرته ، دون الاخرين ليس ببعيد . ولئن كان وائل معذورا في انه لا يملك الا بعيرا واحدا ، وخفا واحدا ، فان بني امية كانوا يملكون بالتأكيد اكثر من ذلك بكثير . واين من لايملك حتى الخف الذي يقي قدميه حرَّ الشمس ، وبين من يملك الجزيرة العربية والشام ، والعراق ، وفارس ، ومصر ؟ وهل كانت مكة وحدها تتسع لبني هاشم وبني امية معا ، ثم لا تتسع كل هذه البلاد لهاتين الاسرتين ؟ وبقفزة صغيرة ، لا كبيرة قطعا ، الاحظ ان وصيـة ابراهيم لابي مسلم ليست بشيء اخر غير هذا السلوك نفسه ، في صورة جديدة : اذ يجب ان تتهم ربيعة ومضر ، وأن تقتل كل من نشك فيه ، والا تدع بخراسان لسانا عربيا ، وأن تقتل كل غلام تتهمه ، حتى ولو كان لا يزيد في الطول على خمسة اشبار .

وهنا يخطر بالبال مباشرة ان دروس النبي (ص) العملية ، الناجحةالى ابعد حد ، كانت كأنها ذهبت ادراج الرياح حتى لدى أولئك الذين هم اولى الناس به ، واقربهم اليه ، وافراد أسرته . وهل كان غريبا على هؤلاء خبر حنين ، ورد النبي النساء والاطفال من أسرى هوازن اليها ، عندما توسلت اليه في ذلك ، وكيف ان كل غنائم حنين ، وزعت علىالمكيين الحديثي الاسلام ، وعلى شيوخ قبائل البدو ، لكسب قلوبهم ، وعلى ابي سفيان العدو الاول في مكة ، وولديه يزيد ومعاوية ؟ بل ان مالك بن عوف شيخ هوازن ، والرجل الذي قاد قبيلته لحرب المسلمين ، قد ردت اليه ماشيته وابله كلها ، مقابل اعتناق الاسلام وحرم الاخرون نصيبهم من هذه الغنائم كلها ، مما أثار بينهم التذمر الى أبعد مدى . وهنا يبرز القائد الكبير ليقول : الا ترضون يامعشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم . فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار . ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار .. اللهم ارحم الانصار وابناء ابناء الانصار (١) » .

وبطبيعة الحال فاني ادع الجانب الديني الصرف من شخصية النبي ، وانظر الى شخصية القائد الذي يريد أن يوحد بين الناس ، ويؤلف بين القلوب ، ويركز الزعامة على اساس من حرمان النفس ، وخص الاخرين بالعطاء ، حتى ولو كانوا من المؤلفة قلوبهم . وما ادري ان كان يمكن للزعامة الرضية ، الجادة ، ان تقوم على غير هذا الاساس .

ولقد ظلم بنو هاشم ولاريب ، وحرموا حقهم في الخلافة واوذوا اذى كبيرا وهذا صحيح جدا . بل لعل المآسي التي ظل أفراد هذه الاسرة يتعرضون لها ، من اكبر مآسي التاريخ واوجعها للقلوب . فكان طبيعيا في مرحلة ما ، ان يتخذ سلوكهم صورة رد الفعل . ولكن ما أن سنحت الفرصة للاستيلاء على الخلافة ، وحتى استأثر بها بنو العباس دون بني هاشم ، وحتى

---

(١) الفتوحات الاسلامية . غلوب باشا ص : ١٦٠ وما بعدها .

كان يجب ان يحرم هؤلاء كل شيء ويؤذوا في كل شيء ، ولعل الاذى الذي نالهم من الامويين لم يكن ادنى من الاذى الذي نالهم على يد العباسيين ، مما جعل الائمة يثورون واحدا بعد واحد ، ويقتلون واحدا بعد واحد . وهكذا يثور محمد النفس الزكية الذي كان قد اختير للخلافة قبل ان يسقط عرش بني امية ، وبويع وحده من بين كل افراد الاسرة ، وحتى من السفاح ، وابي جعفر المنصور ، فيقتل هو واخوه ابراهيم على يد قوات المنصور . ومرة اخرى نلاحظ بوضوح ان مبدأ كل شيء لي ، ولا شيء للاخر هو الذي يسود تماما كما فعل وائل الحضرمي ، وخلافا لما فعل النبي .

وكان من المعقول ولاريب ان تهدأ الفتنة ، ويستقر النظام ، لو ان نواظم الحكم كانت مرعية ، ولاسيما تلك التي اعلن عنها في خطبة الخلافة ، على لسان داوود عم السفاح : « لكم ذمة الله تعالى ، وذمة رسول الله ، وذمة العباس ان نحكم فيكم بما انزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله » الا ان الذي حدث فعلا لم ينسجم قط مع هذا الوعد ، مما حمل محمدا النفس الزكية ، على القول في خطبته الانقلابية ، في المدينة عام ١٤٥ هـ : مشيرا بطبيعة الحال الى العباسيين ! « اللهم انهم قد احلوا حرامك ، وحرموا حلالك ، وآمنوا من اخفت ، واخافوا من آمنت . اللهم فاحصهم عددا ، واقتلهم بددا . (١) »

فاذا عرفنا الان ان محمدا هذا ، انما لقب بالنفس الزكية ، لفرط ورعه وشدة تقواه ، وان كبار ائمة الدين ، كمالك وابي حنيفة ، كانوا معه ، يؤيدونه وينصرونه ، ويصدرون فتوى بشرعية خروجه ، وان الكثيرين قد ثاروا على العباسيين منذ البداية قائلين مع شاعرهم :

يا ليت ظلم بني مروان دام لنا ... وليمض عدل بني العباس للنار

لم نشك في ان نواظم الحكم « كتاب الله ، وسنة رسول الله » لم يعمل بها ، وان التجاوز عليها كان كبيرا في صور شتى ، مما يعني بالضرورة ان

(١) الدولة العباسية ، للدكتور شاكر مصطفى ، ص : ١٠٦ .

حكم الرغبة ، فاض عن حكم القانون ، وان العابر ، والجزئي ، والاني من الصالح ، هو الذي كانت له الصدارة دون الثابت ، والكلي والدائم .
ولاريب ان الحكم الذي يرعى النواظم رعاية كلية ، ويطبق مبادىءالعدالة والمساواة ، تطبيقا سليما ، لم يوجد بعد ، ولكن القضية نسبومقادير. ولئن كان بعض الفساد شيئا لا يخلو منه اي حكم في الدنيا ، مهما تسامت مطامحه ، فان القضية كلها هي أن نعرف اي نسبة من الفساد ، يمكن أن يحتملها الناس ، وأي نسبة تتجاوز طاقتهم الطبيعية على الاحتمال ، وتلجئهم الى الثورة . ولئن لم يعرف الحكم العباسي من الثورات ، اقل مما عرفه الامويون ، فلا ريب أن ذلك يعود الى الاسباب نفسها : فهنالك كان المبدأ : « كل شيء لي ، ولا شيء لك » هو الحاكم . وهنا نجد انفسنا أمام هذا المبدأ . هناك كان الآني من المصالح ، والعابر ، والموقت ، والذاتي هو السائد ، وهنا نجد انفسنا مرة أخرى ، مع هذه النواظم نفسها ، التي يمكن أن تسميها ايضا باسم النواظم . ولو ان ناظم الرغبة متقلب ، وناظم العقل ثابت ، والفرق بين هذين الناظمين كبير ، وآثاره بالضرورة ضخمة .

ويشير ابن المقفع الى طريقة العباسيين في الحكم ، عندما يقدم للمنصور تقريره عن احوال الدولة ، باسم « رسالة الصحابة » التي سبق ان تحدثنا عنها في كتابنا « حول المستقبل العربي » . وكل مانريده الآن ، هو اثبات النص الذي يتحدث به ابن المقفع ، عن الصورة المثلى للتعامل مع اهل الشام ، كمقابل للطريقة الشائعة .

يقول ابن المقفع :

« ومما يذكر به امير المؤمنين ، أهل الشام ، فانهم أشد الناس مؤونة ، واخوفهم عداوة وبائقة ، وليس يؤاخذهم امير المؤمنين بالعداوة ،ولايطمع منهم في الاستجماع على المودة ، فمن الراي في امرهم ان يختص امير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحا ، او يعرف منهنصيحة او وفاء فان أولئك لا يلبثون ان ينفصلوا عن اصحابهم في الراي والهوى ،ويدخلوا

فيما حملوا عليه من امرهم ، فقد راينا اشباه اولئك من اهل العراق ، الذين استدخلهم اهل الشام . ولكن اخذ في امر اهل الشام ، علـى القصاص : فحرموا كما كانوا يحرمون الناس ، وجعل فيئهم الى غيرهم ، كما كان في غيرهم اليهم ، ونحوا عن المنابر والمجالس كما كانوا ينحـون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ، ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم اكلة من الطعام الذي يصنعـه امراؤهم للعامة .

فان رغب امير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما اشبهها فلم يعـارض ماعاب ، ولم يمثل ماسخط (١) ، كان العدل ان يقتصر بهم على فيئهم ، فيجعل ماخرج من كور الشام فضلا من النفقات ... بأن يجعل امـير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم ، أو يزيد او ينقص ، غير انه يأخذ اهل القوة والغناء بخفة المؤنة ، والخفة في الطاعة ، ولا يفضل أحدا منهم على احد الا على خاصة معلومة ... ، ويسوي بينهم فيما لم يكونوا أسـوة فيه من عيالهم ، فلا يتضيع احد من المسلمين (٢) .

ومن الواضح فيما نظن ان السلوك الذي يدعو اليه ابن المقفع هو السلوك العقلاني كمقابل للسلوك المتبع ، أي سلوك رد الفعـل ، او اللاعقلاني . فاذا اضفنا الى ذلك أن نصائح ابن المقفـع كانت تتنـاول اشياء كثيرة اخر ى، كتعيين موعد ثابت لارزاق الجنـد ، حتى لا يشغبوا ، ويؤذوا الناس، والفصل بين الولاية والخراج ،حتى لاتستخدم السلطة السياسية لحساب المصالح ، وسن قانون للقضاء ، حتى لاتكـون هنالك فوضى في أحكام القضاة في الامر الواحد، وضرورة وضع قانون عام يخضع له الولاة والرعية ، وحسن اختيار الحاشية ، عرفنا بالضرورة أن نواظم الحكـم كانت مضطربة ، غامضة ، يسهل فيهـا العبث . ولو لا ذلك لما كان لهذه النصائح معنى .

---

(١) اي لم يقم بمثل العمل الذي كان يعيبه على غيره .

(٢) ابن المقفع – المجموعة الكاملة . الادب الصغير ، الادب الكبير ، رسالة الصحابة... ص ٢١٢ – منشورات مكتبة البيان – بيروت .

لكن المنصور لا يقيم وزنا لهذه النصائح ، ويضرب بها عرض الحائط ، ويبقى الحكم ، كما كان من قبل ، بلا نواظم . فهل من الغريب بعد ذلك ان يتعلق الحكم بأشخاص الحكام ، يقوى بقوتهم ، ويضعف بضعفهم ، ويصلح او يفسد بما يوازي صلاحهم أو فسادهم ؟ وهل من الغريب أن يكون الضعفاء اكثر من الاقوياء وأصحاب الاهواء ، اكثر من أصحاب العقول ، واللاموفقون أكثر من الموفقين ، وان يكون تتابع الانهيار ، درجة بعد درجة ، أمرا محتوما ؟ وهل مثل التاريخ العربي صورة غير هذه الصورة التي تم التنبؤ بها سلفا ، عندما جاء في الاثر ، حديث النبي في قوله : خير القرون قرني ، ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه . . . ولئن كان المنصور قوي الشخصية ، وكان الحظ حليفه أيضا ، فمن يطمع بأن يكون الخلفاء كلهم على شاكلته ، شخصية ، وأن يحالفهم الحظ ايضا ؟

وحقا فلئن نجح المنصور في استبقاء الحكم بين يديه ، وقضى على الثورات الكثيرة التي ثارت في عهده (كما هي كثيرة في عهد غيره ايضا ، بدرجات تزيد او تنقص) فمن الممكن التساؤل عن مضمون هذا النجاح وقيمته . اذ ليس كل شيء في النجاح هو بقاء الحاكم على رأس منصبه . فهذا نجاح شخصي ، قد تدفع الامة ثمنه ، باهظا . وأفضل منه بكثير بقاء قليل ، اذا رافقته اصلاحات جذرية وتمتين لعرى الدولة ، واصلاح حقيقي في مجال او آخر . وعندما يتحدث الناس عن نجاح المنصور كخليفة فانهم قلما ينتبهون الى هذه الناحية على اهميتها . ولو ان المنصور لم يعش كخليفة أكثر من سنة واحدة ، ملأها بالاصلاحات التي اقترحها ابن المقفع ، اذن لكان نجاحه اكبر بكثير ، واجدى على الامة ، من البقاء الطويل ، ومجرد القضاء على الثورات ، دون القيام بالاصلاح الحقيقي .

وبطبيعة الحال فان إقامة النواظم ، وتنظيم التشريع ، واتباع السلوك العقلاني ، لا تعوض عن شخصية الحاكم ، وقوته الذاتية الا ان الامة ، بقوانين سليمة ، وحاكم ضعيف ، افضل منها من غير قوانين ، وحاكم قوي . وقد يعطيها هذا مظهر القوة ، وذيوع السمعة ، لكنه لا يعطيها

الاستقرار . والقدرة الجدية على التصدي للتحديات الداخلية والخارجية . وقد يحتمل المجتمع ضعف الحاكم ، اذا استمرت له النواظم . اما اذا ضعف الحاكم ، وضاعت النواظم ، فهناك الطامة الكبرى . ومن المؤسف ان هذا هو الذي شهده تاريخنا ، اكثر ايامه ، بل تاريخ الشرق كله . أو لم يجد الكثيرون من الغربيين ان الفرق بين امم الشرق ، وامم الغرب ، ان هذه تحكمها شرائعها ، والاولى يحكمها ملوكها ؟ أو ليس الفرق بين هذه وتلك هو الفرق نفسه بين حكم الرغبة ، وحكم العقل ؟

■ ■ ■

ومرة اخرى نعود الى مفهومي الدستور والقانون وانعدامهما في مجتمعاتنا (ومن حقنا التعميم على بلاد الشرق كلها) . ونشير الى ان صور الاخلاص للامة مختلفة ، فيها من يرى انه ما من فضيلة ، ولا مكرمة ، ولا خير ، الا ضربت فيه امتنا بسهم وافر ، لاسهم مثله (ترى من يسؤوه ان يكون هذا صحيحا ؟) وفيها من يرى ان مصائب امة ما ، كامتنا ، ليست دوما من فعل الظروف الخارجية ، بل هي أحيانا ن فعل جدلية قامت بين ظروف داخلية وخارجية . والداخلية هي من صنع الامة ، ومن عمل كل انسان على حدة ، او من عمل المجموع ، بغض النظر عما قد يصيب فيه هذا او يخطىء فيه ذاك . اما اذا برأنا الامة من كل تبعة ، وجعلنا مصائبها تنهال عليها تباعا ، بفعل خارجي ، لابد لها فيه ، فكأنما نوحّد بين كمال الامة ، وكمال الآلهة ، أو كأنما نقول : انه لا علاقة للامة بمصيرها ، تماما كالطالب الذي يتقدم عشرين مرة لامتحان ، يرسب فيه، ثم لا يحمل في ذلك ادنى تبعة ، ولا يتهم بشيء من الكسل ، أو قلة الوعي ، او بضعف ما ، اصيل بدرجة أو بأخرى في نفسه . وهكذا نجد من يقول: ان امتنا عرفت الدستور والقانون ، كما عرفها اليونان والرومان ، وتجلى ذلك في القرآن والسنة اللذين نابا منابهما .

وعندنا ان هذا القول غير دقيق . ولا بد فيه من ملاحظتين اساسيتين : اولاهما كلمة علي بن أبي طالب ردا على الخوارج الذين وثبوا من أطراف

المسجد ، يقولون : لا حكم الا لله . . . فيجيب علي بقوله : كلمة حق اريد بها باطل . والثانية كلمة علي نفسه ، المشهورة أيضا ، والتي يقول فيها : القرآن حمال اوجه ، عندما رفع جماعة معاوية المصاحف ، في حرب صفين ، وكان علي لا يقبل منهم ذلك . ومن الغريب ــ ولا شك ــ أن يكون علي هو الذي يأبى حكم القرآن ، وأن يكون معاوية هو الذي يطالب به ، اذا صح ما نعرفه عن هاتين الشخصيتين التاريخيتين . لكن هذا السر ينكشف تماما عندما نعرف أن « القرآن حمال اوجه » في أمور كثيرة . وهل كان معاوية ليجرؤ على جعل الخلافة ملكا عضوضا ، لو أن في ذلك مخالفة صريحة لاحكام القرآن ؟ او ليست التأويلات الكثيرة التي اعطيت للآيات المختلفة ، هي التي فرقت بين المذاهب ، او كانت في اساس هــذا التفريق .

وعلى سبيل الايضاح وحده ، نقول : ان وصية عمر لابي موسى الاشعري، فيما يتصل بالقضاء ، وصية مشهورة يحسن الرجوع اليها دوما . وقد جاء فيها قوله : لا يمنعنك قضاء قضية فراجعت نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، ان ترجع الى الحق ، فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم ، فيما تلجلج في صدرك . مما ليس في كتاب ولا سنة . وهذا يعني انه ليس من السهل أن يحكم الانسان ببينة واضحة من الكتاب او السنة .

ولقد عانى عمر نفسه مــن ذلك ، عندما عرضت قضية اقتسام اراضي السواد (أي العراق) بعد فتحها . ورأى عامة الناس ان تقسم ، وفيهم عبد الرحمن بن عوف . ورأى عمر ومعه علي وطلحة وابن عمر ، الا تقسم ، حتى تبقى لبيت المال، ينفق منها على اليتامى والارامل ، والمقاتلة والذرية. واختلف المسلمون في الامر ، فحكم عمر خمسة من الأوس معهم خمسة من الخزرج ، فحكموا بما رأى .

ومن هنا نفهم بوضوح انه لا القرآن ولا السنة كانا واضحين في مثل هذا الموضوع ، وان المسلمين على علمهم بهما ، اختلفوا اكبر الاختلاف ، فمن

قائل بالقسمة ، ومن قائل بعدمها . ولهذا نرى أن القرآن « روح سامية » عامة ، تستمد منه الاحكام تبعا للاحوال ، ولا يصدر عنه حكم واحد في كل الاحوال . وبهذا يختلف القرآن عن الدستور ، من حيث ان الاول روح عامة ، باقية دوما ، والثاني أحكام خاصة ، متقلبة بحسب الظروف . وعلى سبيل المثال نقول : ان في وسع الحاكم ان يسجن انسانا بلا محاكمة ، زمنا يطول او يقصر ، بحكم اعتبارات يقدّرها . وقد يصدر في ذلك عن حسن نية ، ومراعاة للمصلحة العامة . وعلى كل حال فانه لا يجد في نصوص القرآن ما يحمله إثمـا صريحا على ذلك . اما اذا كان الدستور يقرر أنه لا يجوز سجن شخص اكثر من اربع وعشرين ساعة ، بلا محاكمة ، فان الحاكم يجد أمامه نصا يخالفه اذا امضى أمرا بعكسه .

وكذلك السنة ، فاننا لا نجد حيالها الا ما وجده الفقهاء أنفسهم ، الذين استطاعوا أن يقيموا مذاهب شتى في تأويلها ، مما يشير الى أن فيها درجة من الغموض ، أو الالتباس ، لدى القياس عليها ، أو التحليل العقلي لها ، تسمح بقيام مذاهب فقهية ، ذات منازع متباينة .

ولقد اشار الى هذا الالتباس ابن المقفع في رسالته الى المنصور عندما قال :

« اما من يدعي لزوم السنة منهم ، فيجعل ما ليس سنة سنة ، حتى يبلغ ذلك به الى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة ، على الامر الذي يزعم انه سنة . واذا سئل عن ذلك لم يستطع ان يقول اريق فيه دم على عهد رسول الله (ص) وائمة الهدى من بعده ، واذا قيل له : اي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قال : فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض اولئك الامراء ، وانما يأخذ بالرأي به الاعتزام على رأيه ان يقول في الامر الجسيم من أمر المسلمين قولا لا يوافقه عليه احد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك ، وامضائه الحكم عليه ... » .

ومن هنا يصل ابن المقفع الى ضرورة وضع قانون عام للقضاء فيه من الدقة ما يجعله خليقا بالتطبيق من غير الوقوع في الشبهات ، فيقول : « فلو راى امير المؤمنين ان يأمر بهذه الاقضية ، والسير المختلفة ، فترفع اليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة وقياس ، ثم نظر في ذلك ، وامضى في كل قضية رايه الذي يلهمه الله ويعزم عليه عزما ، وينهى من القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا ، لرجونا أن يجعل الله هذه الاحكام المختلطة الصواب بالخطأ ، حكما واحدا صوابا ، لرجونا ان يكون اجتماع السير قرينة لاجماع الامر ، براي امير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من امام آخر آخر الدهر ، ان شاء الله[1] .

وخلاصة القول : ان الحياة العربية قلما عرفت النواظم الجمعية الدقيقة، وكثر ما عرفت — حتى في القضاء — ما نسميه « بالحكم الفردي » . او حكم الرغبة ، او حكم الهوى ، وليس من القريب بعدئذ أن تمضي الدولة من انهيار الى آخر أكبر منه ، بالتتابع ، حتى يأتي عصرنا هذا ، ليجد أبناؤه ، انه ما من دولة عربية ، أو اسلامية ، الا كانت محتلة الارض ، خاضعة للاستعمار ، مغلوبة على امرها . وليس من المعقول أن يجريَ الناس أمورهم بدرجة من المعقولية ، تزيد حصة الصواب فيها على الخطأ ، ولو بمقدار يسير ، ثم تؤول حالهم الى مثل ما آلت اليه حالنا . وبالمقابل ، فان الغربيين اذا هم تقدموا ، فلا يمكن ان يكونوا قد تقدموا ، على الرغم من غلبة خطئهم على صوابهم ، ورغباتهم على عقولهم .

ولئن كنا قد اخذنا اليوم بنواظم الدستور والقانون وانتقلنا من نظام الرغبة الى نظام العقل ، فيجب الا ننسى انه ما من دولة عربية أو اسلامية تعيش الآن ، لا تدخل أهواءها في القانون والدستور ، وتعبث بهما عبثا كبيرا ، وتفرغهما من مضمونهما ، وتجعلنا من جديد كأننا في عهد المنصور. ونذكر على سبيل المثال وحده ان تطور سورية منذ عام ١٩٢٠ حتى الآن لا يمكن أن يعادل تطور أمريكا منذ عام ١٧٧٧ عام الاستقلال حتى الآن

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٠٨ .

ومع ذلك فقد عرفت سورية الدستور الذي وضعته الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٨ ، والذي عدّله المفوض السامي ، في عدة مواد أساسية تتعلق بالسيادة ، وعدّل هذا مرة اخرى ، عام ١٩٤٣ ، ليعدل عام ١٩٤٨ ، ثم عام ١٩٤٩ مع حسني الزعيم ، ليوضع بديل عنه عام ١٩٥٠ ويستبدل بهذا دستور آخر مع الشيشكلي ، ثم يلغي هذا ، ليعاد دستور عام ١٩٥٠ ويلغى هذا عام ١٩٥٨ أيام الوحدة ، ويوضع بديل مؤقت عنه حتى أيام الانفصال ، اذ نعود عندئذ الى دستور عام ١٩٥٠ بصورة ما ، لتلغيه بعد سنة ونصف السنة ، مع ثورة ٨ آذار ، التي عرفت هي نفسها اكثر من دستور واحد . وهكذا نجد انفسنا خلال اقل من خمسين سنة مع ثمانية دساتير متتابعة ، لم يعش بعضها أكثر من عام أو نصف عام ، وبحياة متوسطة لكل دستور ، لا تزيد عن سبع سنوات ، بغض النظر عن التعديلات الجانبية . أما امريكا فانها لم تعرف بعد الا دستورا واحدا قلما عدّل . والانكى من ذلك انه ما من دستور عربي وضع في دولة ما الا ليعيش حياة مصطنعة اكثر منها طبيعة، وليعاني من القسر، والضغط، والتعليق ، والتوقيف ، والتلفيق مثل الذي عانته دساتيرنا ، بحيث يمكن القول : اننا مازلنا نجهل الحياة ذات النواظم الدستورية .

فهل يقال الآن : اننا نعي ذاتنا على ضوء وعي الآخر ــ الغرب ــ عندما يكون هذا الآخر قد تجاوز الرؤية التي كان يرى فيها نفسه ، على نحو ما راى محمد عبده الغرب ، في صورته الكنسية ، دون حساب لاصلاحات لوثر ، أو كما وعى لطفي السيد ليبرالية الغرب ، في الصورة التي رسمها روسو لها ، عندما كان الغرب قد تجاوز هذه الصورة ، أو كما وعى سلامة موسى هذا الغرب في « تقنويته وصناعته » بالصورة التي رسمها سبنسر ، أو ويلز مثلا ، كما لو اننا لا نكاد نعي الغرب في صورة الا ويكون هذا الغرب قد تجاوزها من زمن قصير أو طويل ؟ ليكن ماقاله عبد الله العروي في هذا الصدد صحيحا (١) . ولكن في وسعنا الاستغناء عن ذلك

(١) الايديولوجية العربية المعاصرة ــ وعي الذات ووعي الآخر .

كله . ذلك أن ابن المقفع لم يكن قد عرف هذا الغرب لا بصورة معاصرة له ، ولا غير معاصرة . ومع ذلك فقد آمن بضرورة النواظم . ترى ايكون من الصعب جدا أن نفهم الانسان ان الحياة الاجتماعية لاتستقر الا على أساس من المعقولية ، تزيد على حصة الهوى ، او ان هذا ايضا امر لا نعيه الا بعد ان نعي « الغرب » في صورة فات او لم يفت اوانها .

وكذلك ليس من الصعب ان نعرف ان ولاية العهد ، على الاقل ، يجب ان تتم تبعا لقانون واضح ، يتنادى فيها الخلفاء معه ، واحدا بعد واحد ، ضمانا للاستقرار منعا للفتنة ، وكبتا للاهواء ، وكبحا لجماح الطامعين . لكن بني امية لم يكتفوا بالذهول عن وضع هذا القانون ، بل انهم زادوا الطين بلة ، وجعلوا ولاية عهدهم لاثنين ، يتبع احدهما الآخر . ولكن متى جاء الآخر ، غلبه الهوى ، وصرف الخلافة عن صاحبها ، الى من يؤثره بحبه . ويقول التاريخ : ان الصراعات الداخلية التي نشأت عن هذا السلوك العابث ، اللامسؤول ، كانت من اكبر العوامل التي أضعفت الامويين واغرت بهم اعداءهم . ترى هل يكون للعباسيين ان يفطنوا لهذا الماضي ، ليستفيدوا منه في رؤية اوضح لمخاطر المستقبل ، فيما اذا عادوا لسيرة بني امية ؟ لكن الجواب واضح . فالعباسيون لم يفارقوا سنة بني امية منذ البداية ، وهكذا يولي ابو العباس السفاح ، ابا جعفر من بعده ، ثم عيسى بن موسى . لكن أبا جعفر يأبى على عيسى الخلافة ، ويرى ابنه المهدي اولى بها . واخيرا يعزل هذا العيسى من ولاية العهد ، لولا ان الموت عاجل اخاه ، فحل محله بضربة حظ . فما كان منه الا ان ولى اولاده الثلاثة : الامين والمأمون والقاسم ، ولاية العهد تباعا . وتنازع هؤلاء ما شاؤا ان يتنازعوا ، حتى قتل الامين . وجاء المتوكل بعد الواثق ، بغير عهد ، ففعل مثل الرشيد ، فتآمر عليه ابنه الاول ، المنتصر، مع الاتراك ، وقتله . فكان الخطأ الفادح الذي يرتكب لا يدفع احدا لاجتنابه ، ولكن يحفز اكثر فأكثر على الوقوع فيه . فليس عجيباً الا تعيش

الدولة العباسية الا أكثـر بقليل مما عاشت الدولة الاموية(١) ، مادام المنطق يقضي بأن تؤدي نفس الاسباب الى نفس النتائج . وفي هذه المرة، لن يأتي الهاشميون مكان العباسيين ، او اسرة عربية مكان اخرى ، بل سيكون الدوح حراما على بلابله : حلالا للطير من كل جنس .

والخلاصة التي اريد الوصول اليها هنا ، هي أن تاريخنا العربي الاول ، اي ذاك الذي كان للعرب فيه الدور الاول في شؤون الحكم (اي مابين عام الهجرة الاول وبين العام ٢٤٨ هـ ، تميز بغلبة التمركز على الذات بدل التمركز على الآخرين ، واعلان الآني من المصالح على الدائم منها ، وتناسي دروس الماضي ، والذهول عن الاستفادة منها للمستقبل ، كأن الزمان العربي — وعلى الاقل زمان أولياء الامر — لم يكن الا نقطة رياضية ، تفصل فصلا كاملا بين الماضي والمستقبل . وهذه النقطة الغريبة عما قبلها ، الذاهلة عما بعدها ، هي الحاضر وحده .

ولا شك أنه وجد خلالها بعض القادة الذين تمثلوا حق التمثل ، دروس النبي ، وسعة افقه ، وحرصه على جمع القلوب ، والتأليف بينها ، على أساس من اولوية العقيدة والمبدأ ، مثل ابي بكر ، وعمر وابي عبيدة الجراح وامثالهم . وبفضل هؤلاء مضت الامة العربية الى الساحة العالمية ، واحتلت مكان الصدارة فيها ، واستبقت للمستقبل بعض لهيبها . ولكن العقل الحاكم بالجملة ، يظل كما هو ، آني الزمان والمصالح . وسرعان ما يصبح أسوة . وتغدو الامة على دين ملوكها ، كمرحلة أولى ، ليتم التوازي بين الطرفين (ان لم يكن التوازي قائما في الاصل) فتغدو الامة والحاكم من دين واحد ، وينقطع الحوار ، وتتوقف جدلية التاريخ ، ويمضي الناس من انهيار الى آخر ، حتى نبلغ ذلك اليوم الذي نفيق فيه على الدنيا ، فلا نجد في حياتنا الا الدمار الكامل ، الذي يؤرخ محمد عبده لبدايته ، فيجعلها تبدأ بالمعتصم الذي نقل السيادة من العرب والفرس ،

(١) راجع تفاصيل كثيرة عن هذا الموضوع في كتاب الخضري عن الدولة العباسية ، ص : ٤٢ ، فما بعدها .

واحلها في الاتراك ، الذين كانوا مواليه وأفراد جيشه ، وقليلاً فقليلاً كان الدمار يتسع ، ليصبح قلة في السكان ، وضآلة في العمران ، وضعفا في المرافق العامة ، وانعداما للمؤسسات ، وشيوعا في الفقر والجهل والمرض، كما لو ان كل شيء قد اعد لنا احسن الاعداد لقبول الاستعمار الذي انتهينا اليه فجأة ، فحملناه كل أوزارنا ، كما لو انه لم يكن نتيجة بل سببا .

وهنالك سؤال ولا شك عن أصل هذا التركز على الذات ، وأسبابه ، وظروف نشأته ، وعما اذا كان أصيلا ، أو دخيلا ، وعما اذا كان في وسع الظروف الاخرى ، ان تغيره ، أو تقضي عليه ، أو تطوره ، في الاتجاه الافضل . ومع اني اختصر الجواب الآن لأقول : ان هذا الطبع بدوي الاصل ، ولكنه انحدر بالتدريج من مستوى القبيلة الى مستوى الفرد ، وفقد حجمه الجمعي ، ليبقى في حدود الذات وحدها ، وان في وسعنا تطويره ، وتغييره ، إما بالبطء الذي يقتضيه التطور الطبيعي ، وأما بالسرعة التي يريدها العقل المخطط ، والتربية الواعية ، والقيادة التي تخلص للمثل العليا . اما أن أقول عن شيء ما انه أصيل ، وجد من قبل ، وسيوجد من بعد ، مهما فعلنا ، فذلك آخر ما يمكن أن أفكر فيه . وكل الاصالة التي يبدو اني التحدث عنها لا تزيد عن « تجلي طبع » ما خلال مدة طويلة ، لا بحكم اصالة حقيقية ، لكن بحكم استمرار الظروف المناسبة لهذا التجلي . الا انه ليس بالصحيح أيضا أن كل شيء هو ابن الظروف وحصيلتها ، بل ان في الانسان نفسه بذورا لسمات نفسية اسرع الى الظهور من غيرها ، لتقادم العهد على الظروف التي انشأتها ، وجعلتها رد الفعل الطبيعي المناسب لها . وعندما تدوم ظروف من نوع ما ، اكثر من الف سنة ، فلا شك أن رد الفعل النفسي عليها سيكون أكثر رسوخا من غيره ، وأسرع الى الظهور ، بمنبه اقل وادنى شأنا من ذاك الذي احتاج اليه في نشوئه . ولنشر هنا الى التجارب التي تحدث عنها غييوم ، في كتابه : علم النفس في بحث الفريزة ، في صدد رد الفريزة الى مجموعة ردود فعل متراكمة ، وخلاصة هذه التجارب ان بعض الحيوانات الصغيرة تدرب على اجتياز متاهة ، من أولها الى آخرها ،

فتحتاج في ذلك الى مجموعة من التمارين ، ثم يأتي الجيل الذي بعدها ، فيحتاج الى عدد أقل من هذه التمارين .

وهكذا فكلما جاء جيل جديد من هـذه السلسلة ضاق عدد التمارين التي يحتاج اليهـا بحيث يمكـن القول أخيرا ، انه لو أمكـن تمديد هذه التجارب زمنا طويلا ، بدرجة ما ، لاصبح اجتياز المتاهة يبـدو وكانه شيء فطري . ومن المؤسف أن الانسان العربي لم يجد في تاريخه ظروفا اخرى غـير الظروف التي ترده الى نفسه ، وتختصر أبعـاده الاجتماعية ، وتقسره على الاعتصام بالذات لا يخرج عنها ، بمقدار ما تختصر له أبعاد الحياة الطبيعية كالزمان والمكان ، والماضي والمستقبل .

□ □ □ □

والآن ، عندما نسمع اذاعاتنا ، واذاعات العـالم ، منذ ثلاثين سنة ، لا تكرر علينا الا اخبار مؤامرات تحاك علينا ، وكيد يراد بنا ، وشرور لا حصر لها تصيبنا . . . فلا شك انه ليس علينا ان ننتظر رحمة العدو ، او شفقته علينا ، او حرصه على ان يسلك تجاهنا سلوكا اخلاقيا .

اذ لو استطعنا نحن أن نقضي عليه بالأخلاق أو باللاأخلاق ، لما قصرنا ولن نقصّر ولكن علينا أن نلاحظ أنفسنا ، وما قد يكون فيها من عيوب رسخها الماضي بتجاربه اللامتناهية ، لنخفف منها او لنقضي عليها . اما أن ننادي دوما بالويل والثبور ، وعظائم الامور لان عدونا « لا اخلاقي » ، فمن المضحك حقا أن نتوقع منه ان يكون اخلاقيا .

الفحص عن مبادىء التفكير

تيسير شيخ الارض

مقدمــة

لمبادىء التفكير أهمية كبيرة جدا في حياتنا اليومية والعلمية . انها بمثابة الاساس الذي يقوم عليــه بناء الذهن سواء في أمورنا العادية ، او امورنا التأملية . اننا نحتكم اليها باستمرار ، حتى اننا لا نكاد نصدق امرا يتنافى معها ؛ فهي محط اليقين الذي نرتاح اليه، ونثق به . لهذا كنا نحتكم اليها في كل حكم نصدره ، أو يصدره غيرنا ، لنتبين صحيحه من فاسده . وهذا يعني ، انها المحك الاخير لصحة هذه الاحكام وخطئها ؛ فما وافقها عددناه صحيحا ، وما خالفها رأيناه خاطئا . وهذا ينتهي الى ان هــذه المبادىء تدعي لنفسها الضرورة والواقعية على كل نحو من الانحاء .

لهذا كانت سندنا في شكنا ويقيننا . وهذا الوضع هو الذي جعلها موضع تساؤل وموضع تفسير . فقد ذهب بعضهم الى انها قوام بنيتنا الذهنية . ولكن ، لو صح ما ذهبوا اليه، لما أمكن الخطأ ؛ اذ انه يكفينا أن نصغي الى صوت اذهاننا ، حتى تتبدى لنا الحقيقة واضحة لا لبس فيها ، وهذا ما يتنافى مع تجاربنا اليومية ؛ فهي تعلمنا اننا في كل حكم من احكامنا ، معرضون للوقوع في الخطأ ؛ وليس الخطأ في حقيقة امره سوى مخالفة احد هذه المبادىء في هذا الصدد او ذاك !

ولكن ، اذا لم تكن قوام بنيتنا الذهنية ؛ فهل هي قوام الاشياء ذاتها ، والذهن يستمدها منها ؟ لقد ذهب بعضهم هذا المذهب ، واننا لنتساءل هنا ايضا : لو كان الامر كذلك ،

لما أمكن الخطأ أيضا ؛ اذ انه يكفينا أن نلاحظ الاشياء ، ونستقرىء خصائصها المميزة لها ، حتى نصل الى أحكام صادقة بشأنها ، ونتجنب كل خطأ ؛ وليس الامر كذلك ، كما هو واضح من أمورنا .

ولكن ، اذا لم تكن مبادىء التفكير نابعة من بنية الذهن ولا من الاشياء ذاتها ، فكيف يمكننا أن ننظر اليها ؟ أننظرُ اليها على أنها مستقلة عن الذهن والاشياء معا ؛ وانها تنتسب الى عالم مخالف لهما ، ولكنه متصل بهما على نحو من الانحاء ، ونعني به عالم الافكار ؟ قد يبدو هذا الحل مرضيا ؛ ولا سيما بالنسبة الى مبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع من ناحية ؛ وخاصة اذا كانت نظرتنا اليها من خلال علاقتها بالامور الجزئية . وفي هذه الحال تصبح عماد المنطق ، أو المبادىء المنطقية ؛ وتكون من هذه الناحية مفارقة للذهن والاشياء معا ؛ بحيث يمكن للذهن أن يستلهمها في حكمه على الاشياء ذاتها ، اما سلبا أو ايجابيا !

ولكن مهلا ! ما بالنا نسينا مبدأ الهوية ومبدأ العلة الكافية وهما في أصل مبداي عدم التناقض والثالث المرفوع ومبداي السببية والغائية ؟! الحقيقة ، اننا لم ننسَ ؛ واذا خيل لبعضهم أننا نسينا ، فلانه مازال يفكر ضمن اطار التفكير التقليدي الذي يجعل للتفكير المنطقي مبدأين ، هما مبدأ الهوية ومبدأ العلة الكافية ؛ ثم يرى مبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع وجهين من مبدأ الهوية ؛ ومبدأ السببية ومبدأ الغائية وجهين من مبدأ العلة الكافية ؛ ثم يضع كل مبدأ منهما مع مشتقي كل منهما على مستوىٍ واحد . ونحن اذ نقر الناحية الاولى ، لا يمكننا أن نقر الناحية الثانية . والحقيقة ، فمبدأ الهوية ومبدأ العلة الكافية مبدآن فلسفيان ؛ في حين ان عدم التناقض والثالث المرفوع والسببية والغائية هي مبادىء منطقية . والمبدآن الفلسفيان يصحان على الكل تجريدا ، ويتوحدان فيه تشخيصا ؛ في حين ان المبادىء المنطقية تصح على الجزئيات والمجردات تجريدا فقط . ولهذا كان المبدآن الفلسفيان من حيث هما كذلك ، سند المبادىء المنطقية .

ولكن ، اذا كانت المبادىء المنطقية تعتمد على المبدأين الفلسفيين ، وتستمد قيمتهما ويقينها منهما ؛ فمن أي شيء يستمد المبدآن الفلسفيان قيمتهما ويقينهما ؟ لكي نجيب عن هذا السؤال ، لابد لنا من أن نرى أولا ، لماذا لم تكن المبادىء المنطقية موضع شك في تاريخ « الفلسفة » ؛ لكي ننتقل بعدئذ ، فنبين اعتماد الدراسة المنطقية على الدراسة الفلسفية ، لا العكس ، كما ظل « الفلاسفة » يعتقدون من منذ قيام « الفلسفة » في بلاد الاغريق ، حتى يومنا هذا . وفي هذه الحال ، ننتقل الى شرح وجهة نظرنا ، التي تعد المبدأين الفلسفيين سند المبادىء المنطقية ؛ وانهما صورتان من الحقيقة الاولى ، يعبر

فيها مبدأ الهوية عن وجهها الثابت : الوجود ؛ ويعبر فيها مبدأ العلة الكافية عن وجهها المتحرك : الصيرورة . ولكنهما ليسا صورتين منها الا في التجريد ؛ لانهما يتوحدان فيها تشخيصا ؛ فاذا بالهوية هي العلة الكافية ؛ واذا بالعلة الكافية هي الهوية !

- ١ -

قلنا ان تفكيرنا كله يعتمد على مبادىء التفكير . والحقيقة ، ان مناهج التفكير ، من تحليل وتاليف ، من استقراء واستنتاج ، من جدل ورد ؛ تعتمد اعتمادا كليا عليها ؛ مما يجعل الثقةبهامعتمدة على الثقة بهذه المبادىء . واذا كان هذا شانها ، كان لابد لنا من التساؤل عن قيمتها . ولكن ، هل يمكن الشك فيها عندئذ ؟ اذا كان يقين العلم مستمدا من يقين مناهجه ؛ وكان يقين المنهج مستمدا من يقين مبادىء التفكير ، كان لابد من التساؤل عن المصدر الذي تستمد مبادىء التفكير يقينها منه . وهذا سؤال مشروع ؛ لان الاجابة عليه هي مناط يقين المعرفة الانسانية كلها ؛ فاما ان نرى فيها جماع الحقيقة ، واما ان نجعلها موضع شكنا . والحقيقة ، ان مبادىء التفكير هي اساس المعرفة ؛ ولا يمكن لنا ان نثق بمتانة صرح المعرفة ، ما لم تكن على ثقة تامة من متانة الاساس الذي تقوم عليه . ومن هنا كان سؤالنا : اذا كان العقل يشعر براحة تامة ، حينما يجد ان معارفه تنسجم مع مبادئه ، فما اصل هذا اليقين الذي تهبنا اياه هذه المبادىء ؟ وما المدى الذي يمكن له ان يبلغه ، اذا كان هناك مثل هذا الاصل ؟

قد يبدو سؤالنا غريبا ، ولاسيما بالنسبة الى اولئك الذين تمرسوا بالتفكير الفلسفي ، وادمنوا الاطلاع على جوانب الانتاج فيه ؛ فهم يعرفون ، ان مبادىء التفكير لا يمكن الشك فيها جديا . والحقيقة ، لقد علمنا تاريخ « الفلسفة » ان كل شك فيهـا يعتمد عليها . فمنذ عهود « الفلسفة » الاولى نجد من يشك فيها ! حتى أن الريبانيين في أواخر عهود « الفلسفة » اليونانية ـ وهم أشهر من شك ـ لم يشيروا الى مثل هذا الشك ! وفي « الفلسفة » الاوربية الحديثة ، كان شك ديكارت شكا منهجيا ، اي شكا مؤقتا في سبيل الوثوب الى اليقين ، بالاعتماد على مبادىء التفكير ذاتها . أما هيوم فرد مبدأ السببية الى العادة ؛ فجرده من قيمته المنطقية ؛ وهذا لا يعني بحال من الاحوال الشك بمبدأ السببية وانما يعني أن الحقائق التي تعتمد عليه ، هي حقائق تعتمد على العادة . واذا كان هيوم هو الذي أيقظ كانط من سباته الوثوقي ، فهو لم يشككه بمبدأ العلة الكافية ، الذي جعله السند الاخير لفلسفته !

ولعل أول من شك فعلا بمبادىء التفكير ، هو الغزالي ! فقد شك بمبدأ عدم التناقض في كتابه « المنقذ من الضلال » ؛ وشك بمبدأ السببية في كتابه « تهافت الفلاسفة » . ولكن شكه في هذين المبدأين كان لغاية في نفسه ؛ وهي أن يقول لنا : ان قيمتها مستمدة من الله وشريعته(١) ؛ وهو أمر لا يمكن قبوله فلسفيا ؛ ولاسيما بالنسبة الى من يريد أن يجعل اللاهوت ملحقا بالفلسفة ؛ شأنه شأن العلوم التي لا يمكن أن تظل ملحقة بالفلسفة . وهكذا نلاحظ ، ان مبادىء التفكير لم يشك فيها فعلا ، في تاريخ « الفلسفة » . نقول هذا ، ونحن نعتقد ان الغزالي لم يكن فيلسوفا بل متكلما اراد أن يحارب « الفلاسفة » بسلاحهم ، ولكن ، لماذا كان الامر كذلك ؟ نعتقد ان « الفلاسفة » لم يفعلوا ذلك ؛ لانهم لم يفصلوا فصلا حاسما بين الحقيقة الكلية والحقائق الجزئية ؛ ولانهم فهموا الحقيقة الكلية على انها حقيقة مجردة تصدق على كثيرين متحدين في النوع أو في الجنس . أما نحن فنريد أن نرى الحقائق الجزئية اجزاء مجردة عن الحقيقة الكلية ؛ ونريد ان نفهم بالحقيقة الكلية الحقيقة المشخصة ؛ لان الكل المجرد ليس كلا .

ومن هنا كان لا بد لنا أن نشك ـ نحن انفسنا ـ بالمبادىء المنطقية من حيث هي مبادىء تصدق على الحقائق الجزئية ؛ وان لا نعود الى الثقة فيها ، الا حينما نرى انها تعتمدعلى مبدأي الهوية والعلة الكافية ، من حيث هما صورتان مجردتان من الوجود المشخص . والحقيقة ، ان مبدأ الهوية ومبدأ العلة الكافية هما عماد المنطق بعامة ؛ فمبدأ الهوية هو عماد المنطق الصوري ؛ ومبدأ العلة الكافية هو عماد المنطق التطبيقي ، ولكن منالناحية الكلية ؛ اي من حيث اعتماد الحقائق الجزئية على الحقيقة الكلية ، غير ان هذين المبدأين لا ينطبقان على الحقائق الجزئية بحد ذاتهما ؛ بل بالمبادىء المشتقة منهما ، والتي تستند اليهما الى مبدأي عدم التناقض والثالث المرفوع يصلحان في مجال الحقائق الجزئية صوريا؛ ومبدأي السببية والغائية يصلحان في مجال هذه الحقائق تطبيقيا ! وهذا وحده كاف للكشف عن علاقة المنطق بضبط التفكير العلمي ، والحقيقة ، فالمنطق بشكليه يصلح للربط بين الحقائق الجزئية والمجردة ؛ واستخراج بعضها من بعض ، سواء اسار في طريقه من « الحقائق الكلية » الى الحقائق الجزئية ؛ أو من الوقائع الى قوانينها العلمية ! ولكن مانريد ان نلح عليه هنا ، هو ضرورة التفريق بين الهوية مبدأ تفكير فلسفي ، وعدمالتناقض والثالث المرفوع مبدأي تفكير منطقي ؛ وكذلك ضرورة التفريق بين العلة الكافية مبدأ تفكير فلسفي ؛ والسببية والغائية مبدأي تفكير منطقي !

---

(١) راجع مقالتنا : قيمة العقل عند الغزالي ، مجلة المعرفة ، تموز ١٩٧٦ ، التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق .

ولكن الايمان بنوعين من المنطق ، من شانه ان يقضي على وحدة التفكير ؛ والقضاء على وحدة التفكير من شانه ان يقضي على وحدة الحقيقة . وهذا امر لايمكننا ان نسلم به الا في التجريد ؛ وهو تسليم مؤقت غايته ان يتيح لنا تحليل الحقيقة الاولى ، في سبيل فهمها، والتصرف بازاء موجوداتها . عندئذ ، يمكننا ان نعتمد على مبدأ الهوية في فهم الوجود ، وعلى مبدأ العلة الكافية في فهم صيرورته . وقد نوغل أبعد من ذلك ؛ فنحلل الوجود المشخص الى موجودات جزئية ، معتمدين على صيرورته ؛ والصيرورة الى حوادث ووقائع، معتمدين على الموجودات الجزئية في الوجود المشخص ؛ متنقلين في حركة تتناوب بين صورة الوجود وصورة الصيرورة ، من دون ان نعرف لنا حدا نقف عنده .

- ٢ -

وكل هذا يطرح علينا السؤال عن اصل مبادىء التفكير .

والحقيقة ، اننا اذا استشرنا تاريخ « الفلسفة » ، وجدنا أن « الفلاسفة » حاروا في تفسيراتهم لاصل هذه المبادىء ، ولعل القارىء انتبه الى اننا حددنا ثلاثة اتجاهات في التفسير في في مقدمة هذا البحث . والحقيقة ، هناك اتجاه ذو نزعة نفسية ، واتجاه ثان ذو نزعة وجودية ، واتجاه ثالث ذو نزعة منطقية . وها نحن اولاء نشير الى هذه الاتجاهات الثلاثة ، في سبيل الموازنة بينها ، والتعقيب عليها .

اما اصحاب النزعة النفسية ، فيرون انها تعبير عن التفكير البشري في العمليات التي يقوم بها ؛ وانها تتبع بالتالي قواعده ، وتخضع لنظامه ، في كل عملية من هذه العمليات .وهذا يعني ، ان الفرد الانساني يعتمد على بنيته النفسية ، حينما يرى ان مبدأ عدم التناقض مثلا ، يعني استحالة الحكم على قولين متناقضين بانهما صحيحان في وقت واحد ، ومن جهة واحدة ؛ او حينما يرى ان مبدأ الثالث الرفوع يعني ان واحدا فقط من قولين متناقضين هو صحيح ؛ وانه لا ثالث بينهما .

بيد ان الاجدياليين (الانطولوجيين) يرون ان مبادىء التفكير لا تعتمد على بنية النفس البشرية ، بل على موضوعات التفكير ؛ اي على الموجودات ذاتها ؛ لان هذه الموجودات هي التي تهب هذه المبادىء معناها ؛ وهي التي تطبع الفكر بطابعها . وهذا مانجده عند ارسطو الذي صاغ مبدأ عدم التناقض ، فقال : « يستحيل حمل المحمول الواحد ، على الموضوع

الواحد ، وعدم حمله عليه ، في وقت واحد ، ومن جهة واحدة » (٢) . وهكذا حمل المحمول على الموضوع ، وكان لدى النفسيين يحمل على القول .

ولكن اصحاب النزعة المنطقية رفضوا الاتجاهين معا ؛ وجعلوا من مبادىء التفكير مبادىء منطقية ؛ اي مبادىء لها علاقة بالافكار بما هي افكار ، وبصرف النظر عن الموضوعات التي هي افكار عنها ، وعن النفس البشرية ، بما هي مصدر العمليات الفكرية . ومن هذا ينتج أن مبادىء التفكير تعنى بالافكار ، لا بالعمليات الفكرية ، ولا بموضوعات التفكير .
فاين ترانا نقف من هذه الاتجاهات الثلاثة ؟ لابد لنا من الاشارة منذ البداية ، الى اننا نذهب مذهب اصحاب النزعة المنطقية تجريدا ؛ مع مفارقتهم في نقطة معينة ، وهي الاصل الكلي لا الجزئي لهذه المبادىء . وهذا يعني عندنا ، ان مبادىء التفكير مبادىء منطقيـة ذات أصل وجودي ونفسي معا ؛ على أن نفهم بالوجودي هنا ، ما يمت الى الحقيقة الاولى، او الوجود المشخص .

والحقيقة ، اننا نرى ان النفس الانسانية ـ بما هي ذات مجردة من الوجدان ـ تقوم بدور هام في تحويل ثوابت الوجود من ناحية ، وتغيرات الصيرورة من ناحية اخرى ، الى مبادىء منطقية ، نحكم بموجبها على الحقائق الجزئية ؛ والى مبداين فلسفيين يربطان الحقائق الجزئية بالحقيقة الكلية ؛ تطلعا الى صورتي الحقيقية الاولى في تجريدهما ؛ أعني الوجود والصيرورة . وهذا يعني ، ان المبادىء الفكرية ـ بما هي مبدآن فلسفيان ومبادىء منطقيةـ هي وليدة النفس الانسانية والحقيقة الاولى ، في اشتراكهما بالاصل ، وفي تفاعلهما فيما بينهما باستمرار .

ولكن هذا يصح في حالة التجريد ، حينما ينفصل الوجدان عن الوجود المشخص، ويستحيل الى ذات ، ويحيل الحقيقة الاولى الى وجود في صيرورته وصيرورة في وجودها ؛ ثم يستعين بحركة الصيرة ، ليحيل بالفكر والعقل ، الوجود المشخص الى موجودات جزئية؛ والصيرورة الى حوادث زمانية ، في الوقت ذاته . وهذا امر تبلغه الذات حينما توغل في التجريـد إيغالا كافيا ! بيد انها لاتكاد تتراجع قليلا نحو التشخيص ، من دون أن تبلغ التشخيص التام ، حتى تجد ان الحقائق الجزئية متماسكة ومترابطة ، بعضها آخذ برقاب بعض ، في قلب الحقيقة الاولى، التي هي حقيقة كلية ؛ حتى اذا قاربت التشخيص الوجودي ، وجدت

---

(٢) ارسطو : مابعد الطبيعة Metaphysique ؛ ترجمة تريكو الفرنسية ، ج ١ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ؛ منشورات Vrin ، باريس ١٩٤٠ .

ان هذه الحقائق الجزئية تغرق في الحقيقة الكلية ؛ وانها هي نفسها تغوص معها في هذه الحقيقة الكلية ، التي تستحيل وجوديا الى « الحقيقة كاملة التشخيص » . وهذاينسجم مع نظريتنا في العلاقة البدئية القائمة بين الوجدان والوجود المشخص ؛ ان صح أن نستخدم الظرف « بين » هنا !

- ٣ -

ولكن ، اذا كان المنطق وسيلة العلم الى تحصيل الحقائق الجزئية ، كان معنى هذا ، انه لايصدق على الحقيقة الاولى ؛ اي لايصلح اساسا للدراسة الفلسفية . وهذا يجعلنا نتساءل : اذا كان المنطق لايصلح اساسا للدراسة الفلسفية ؛ فهل تصلح الفلسفة - في المقابل - اساسا للدراسة المنطقية ؟ اننا نعتقد ذلك ؛ فهذا من شانه أن يهب الدراسات المنطقية يقينها الذي تخلعه على الدراسات العلمية بدورها !

والحقيقة ، فالوجدان حينما ينفصل عن الوجود وعن صيرورته كما يتبديان في الحقيقة الاولى تجريدا ، يتحول في المعرفة الى ذهن ؛ أي الى فكر وعقل : فكر يعبر عن حقيقة الوجدان الحركانية (الديناميكية) ؛ وعقل يعبر عن حقيقته السكنانية (الستاتيكية) ، وهو من هذه الناحية ، ينصب فكرا وعقلا على الحقائق الجزئية والمجردة ، التي تفتت اليها الحقيقة الاولى . ولهذا كان المنطق بشكلية الصوري والتطبيقي منصبا على اقامة العلاقات بين هذه الحقائق الجزئية والمجردة ، بالتحليل تارة ، وبالتأليف تارة أخرى . ولكنه في كلتا الحالتين ، يفترض الحقيقة الاولى ؛ لانها القاع الوجودي والمعرفي لكل تحليل وتاليف ؛ بل القاع الوجودي للوجدان ، اصل الذات ، التي تقوم بالتحليل والتاليف معا ؛ فتنشىء المعرفة نتيجة ذلك .

ومن هذا نرى ، ان المنطق هو في اصل تحليل الوجود المشخص الى اجزائه ، واعادة التاليف بين هذه الاجزاء ، تجريدا ، ولكن هذا يفترض أصلا قيام الوجود المشخص قاعا يقوم فيه كل تحليل وتاليف . ومن هنا كانت خطورة المنطق بالاضافة الى التفكيرالفلسفي من ناحية ، وتبعيته للتصور الفلسفي من ناحية اخرى .

وهذا يعني نتيجة لذلك ، أن الاكتفاء به ، وجعله أولى في التفكير ، يعرضنا لاشد المزالق الفكرية ؛ فهو في حقيقته قائم على المجردات ؛ والمجردات لاقيمة لها الا باصولها الوجودية؛ والاصول الوجودية تنحل في نهاية المطاف في الوجود المشخص .

وهذا يعني ايضا ، انه لابد لنا ، كلما كنا بصدد حقائق مجردة ، من مراجعتها على أصولها الوجودية ؛ والتأكد من امانتها لهذه الاصول ! اذ ان مراعاة هذه الاصول ـ ولاسيما بعد احلالها في الوجود المشخص ـ من شانها ان تساعدنا على ضبط تفكيرنا ، سواء اكانفلسفيا ام علميــاً !

وكل هذا ينتهي الى ان هناك ارتباطا بين المجرد والمشخص ، يجعل المعرفة قائمة علـى اساس متين . صحيح ان العقل يسهم بنصيب وافر في انشاء هذه المعرفة ؛ ولكنه لايهبها يقينها الاخير . ان كل مايهبها اياه هو تماسكها المنطقي . ولكن هذا التماسك ليس كافيا لمنحها اليقين الاخير ؛ لان هذا اليقين لابد له من أن يكون يقين الوجود المشخص في نهاية المطاف .

والحقيقة ، ان مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع ، استخدمت جميعا في مجال الحقائق المجردة والجزئية . وكذلك مبدأ العلة الكافية ـ وما يتضمنه من مبدأ السببية ومبدأ الغائية ـ استخدام في مجال الحقائق الطبيعية والحيوية والانسانية . وكل هذه الحقائق مجردة او جزئية ؛ وهي بما هي كذلك ، لا وجود لها بذاتها ، بل بالحقيقة الاولى التي يقف الوجدان « في مقابلها » تجريدا . فمن اين اتى العقل بهذه المبادىء التي يطبقها على الحقائق المجردة والجزئية ؟ أمن الحقيقة الاولى التي هو فيها ، والتي تظل ماثلة أمامه تجريدا ، والتي لا يستطيع تصور أية حقيقة جزئية او مجردة الا ابتداء منها ؟. واذا كان ذلك كذلك ، افلا يعني هذا ، انه يستلهم هذه الحقيقة ؛ وانه يستمد مبادئـه منها ؛ مما يعني ، انه لابد لهذه المبادىء ان تنطبق عليها ، من باب اولى ، لانها مستمدة منها ، وتعبر عن بنيتها الحقيقية ؟!

ولكن رد الهوية والعلة الكافية الى الحقيقة الاولى ، يتطلب منا وقفة قصيرة . ولاسيما ان « الفلاسفة » تعودوا على رد احد المبداين الى الاخر .

- ٤ -

ها قد بينا ان مبداي الهوية والعلة الكافية ينبعان من الحقيقة الاولى ، ويجدان وحدتهما فيها ؛ وان الذهن يستمدهما منها ؛ ثم لايلبث ان يعدهما مبداين مستقلين تجريدا . بيد اننا لم نقدم برهاننا على ذلك .

والحقيقة ، فقد ياتي من يطالبنا بالبرهان على مانذهب اليه ، من أن الهوية والعلة الكافية تنحلان في الحقيقة الاولى ، التي هي الحقيقة الكلية ؛ وان مبدا الهوية من ناحية ، ومبدا

العلة الكافية من الناحية الاخرى ، يعتمدان عليها . وجوابنا عن ذلك ، هو ان البرهان يعتمد على مبدأ معين بعينه بذاته . ولكن الاعتماد على مبدأ معين ، يفترض التجريد أصلا ونحن ننطلق من نزعة مشخصة تخطىء كل تجريد ، حينما يكتفي بذاته !

والحقيقة ، اننا اذا تأملنا هذه الطريقة في التفكير ؛ وهي البحث عن برهان لكل شيء ،وعن مبدأ يستند اليه هذا البرهان ، وجدنا اننا بازاء تقليد عريق في تاريخ « الفلسفة » ، وهو رد كل شيء الى العقل واولياته ، بعد تجريده هو ذاته ، وتجريد اولياته منه ، تجريداتاما فكاننا ننصب العقل حاكما في كل شيء ، بصرف النظر عن كل شيء ، ولاعجب عندئذ ، ان نراه يتعسف في بعض احكامه ! وقد رأينا في مواضع كثيرة ومختلفة ، أن التجريد هو سبب اخطاء التفكير « الفلسفي » كلها . ولهذا ، لابد لنا من ان نتجنب قدر استطاعتنا ، هذه الطريقة في التفكير ؛ وان نبحث لنا عن طريقة أخرى ! فماذا نفعل بدلا من ان نرد كـل شيء الى مبدأ عقلي ؛ يكون سندا لبرهان لابد لنا من البحث عنه في كل امر ؟

لابد لنا هنا ، من العودة الى التذكير ، بأن ماينسجم مع طريقتنا المشخصة في التفكير ،هو أن نرد الجزء الى الكل ، والمجرد الى المشخص ، والمعقول الى الموجود . اما البراهـين فيظل نطاق عملها في الجزئيات والمجردات والمعقولات ، من دون أن يكون عملها هذا مستنفدا لشروط الحقيقة ؛ لان هناك خطوة اخيرة لابد لها من ان تاتي ، لتتويج عمل البراهين ،وهو الوصول الى الموجودات اولا ، والى الوجود المشخص اخيرا . وبهذا المعنى ، فان الوجود، او الحادث ، او المعرفة ، او الفعل ، من حيث هي امور جزئية ، تجد علتها الكافيـة في الكل ، سواء اكانت علة فاعلة ام علة غائية . والحقيقة ، ان كل شيء في الكل : متات عن الكل ، ويسعى الى الكل . ومن هنا كانت الصيرورة هي صيرورة الوجود المشخص ؛ومادامت كذلك ـ بما الوجود المشخص هو الكل ـ لم يكن هناك ماينضاف الى الكل ، او ينقص منه ؛ بل ان كل مايجري هو تغيرات عارضة يتبدى عليها الكل في لحظة من اللحظات ، من دون ان يكف عن ان يكون مساويا لذاته ، في اية لحظة ، وفي كل اللحظات ! لا اللحظات هي لحظاته ، وهي تمثل وجها من وجوه حقيقته ، تجريدا ، ومتى وصلنا الى هذا الحد ، حق لنا ان نرى في مبدأ الهوية من ناحية ، ومبدأ العلة الكافية من ناحية اخرى ، بداهة ذاتية ، ليس وراءها بداهة .

— ٥ —

وهكذا نلاحظ ، ان مبدأ العلة الكافية مبدأ كلي ؛ وكذلك مبدأ الهوية ، والحقيقة ، اننا لا نستطيع ان نتكلم ، ونحن بصدد الحقائق الجزئية او المجردة ، على هوية حقيقية ، او علة كافية حقيقية ؛ لان الهوية تختلط بالعلية : فمن هوية الشيء قابليته للتاثر بشيء اخر،

اي خضوعه لعلية معينة ، دون علية أخرى . ولكن هذا الشيء الآخر يصدق عليه أيضا ، ما صدق على الشيء الاول . وهكذا،) حتى نجد في نهاية الامر ، ان كل شيء يؤثر في كل شيء ، ويتأثر به . مثال ذلك قطعة الحديد .

والحقيقة ، ان قطعة الحديد هذه تتمدد بالحرارة ، وتتقلص بالبرودة ، شأنها شأن كل معدن . واذن ، فمن هويتها ـ ومن هوية كل معدن ـ الخضوع لعلية الحرارة والبرودة . وهذا يعني ، أن مبدأ العلية يتوحد هنا هو ومبدأ الهوية . ولكن الحرارة والبرودة يخضعان هما أيضا لحالة الغلاف الجوي المحيط بالارض؛ واذن، فمن هويتهما كونهمامعلولتين لحالة الغلاف الجوي . وهذا يعني هنا ايضا ، ان مبدأ العلية يتوحد ومبدأ الهوية . ولكن حالة الغلاف الجوي معلولة لكون الارض تدور حول الشمس في فلك اهليلجي ، يجعل ابتعادها عن الشمس يزداد وينقص ؛ فتنقص الحرارة أو تزداد تبعا لذلك . وهذا يعني أيضا ، أن منهوية الغلاف الجوي ، أن يتأثر بقرب الارض من الشمس أو بعدها عنها . وهكذا نجد أن الهوية مرتبطة بالعلية . وما قلناه عن الارض والشمس ، يصدق على المجموعة الشمسية ، وعلى مجرتنا التي ننتمي اليها ، وعلى الكون كله .

ولكن ، لنلاحظ أننا هنا كنا في مجال التجريد ؛ فنظرنا الى الامر من جانبي الحرارة والبرودة فقط ؛ واننا اذا انتقلنا الى التشخيص ، فنظرنا الى حالة الضغط ، وهبوب الرياح وسرعتها ، والجاذبية ، الخ ... لاحظنا الامر ذاته ، ولكن على درجة أعلى من التعقيد . اذ أن الحرارة والبرودة لاتعملان من دون تأثير الضغط والرياح والجاذبية الخ ... مما يعني ، أننا كلما اقتربنا من التشخيص ، وجدنا أن الهوية تصبح اكثر توحدا مع العلية ؛ حتى انهما تصبحان شيئا واحدا في نهاية الامر ، تصبحان شيئاواحدا في الكل المشخص ، في هذا الكون الرحيب على سعته .

وهذا يعني ، انه لما كانت العلة الكافية لحقيقة جزئية تكمن في حقيقة جزئية أخرى تقع خارجها ، وهذه في علة أخرى خارجها ؛ حتى نصل الى علة كافية لاعلة لها خارجها ،هي حصيلة العلل كلها ، كان لابد لهذه العلة الكافية الاخيرة ، من أن تكون هي الكل المشخص؛ حيث تتطابق العلة الكافية مع الهوية تطابقا كليا . وهكذا نجد أن العلة الكافية الاخيرة لايمكن أن تكون جزئية ؛ لان كل ماهو جزئي له خارج ومحدود بسواه ، وهو يتأثر به ويؤثر فيه ؛ مما يشير الى أن العلة الكافية هي في نهاية التحليل ، الكل المشخص السابق على كل أجزائه ومجرداته ، الذي ينبع منه كل أثر ، ويبقى فيه كل تأثير ؛ والذي هو العلة الكافية لكل جزء من أجزائه ؛ لانه الهوية التامة المتحققة في كل أجزائه .

ومن كل هذا يمكننا أن نستنتج ، أن المبدأ الاول لايمكن أن يكون عقليا مجردا ؛ لان كل ماهو عقلي مجرد لابد أن يكون ملحقا بالوجودي المشخص . لهذا كان المبدأ الحقيقي هو

الكل في تشخيصه الكامل ؛ ولكن ، بمعنى أغنى من معنى مبدأ التفسير ؛ لأنه يصبح مبدأ وجود ومبدأ تفسير في وقت واحد معا . والحقيقة ، أن الكل المجرد ينطوي علىتناقض في الحدود . لهذا كان لابد لنا ، ونحن نتحدث عن الكل ، من أن نفهمه فهما مشخصا ، لابالتشخيص الحسي فقط ، بل بما يشير اليه التشخيص الحسي من تشخيص وجودي. وهذا يعني ، أن البرهان الحقيقي هو البرهان الذي يرد الجزء الى الكل ، والمجرد الى المشخص ، والمعقول الى الموجود ؛ وهو يتضمن أن مفهوم المبدأ هنا ، هو القوام الوجودي والسند العقلي في وقت واحد معا ؛ ولكن ، مع ملاحظة أن السند العقلي لايمكن أن يكون سندا كاملا من دون القوام الوجودي . وهذا مادفعنا الى القول بضرورة رد المجرد الى المشخص ، والمعقول الى الموجود !

والحقيقة ، أن ربط مبادىء التفكير بالكل المشخص ، من شأنه أن يبدل تبديلا اساسيا في حقيقة التفكير الفلسفي من ناحية ، وفي حقيقة التفكير العلمي ، من حيث هو قائم على أساس من التفكير الفلسفي ، من ناحية أخرى . انه يبين لنا ، أن العلوم الجزئية تستند الى الفلسفة في مبادىء التفكير ، مثلما استندت اليها في موضوعاتها ومناهجها !

وهذا يؤيد ماقلناه من أن المبادىء المنطقية تستند الى المبدأين الفلسفيين : الهوية والعلة الكافية . فاذا لم يكن من هوية سوى هوية الكل ، ولا من علة كافية سوى علة الكل ، كان لابد لمبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع – وكلاهما يتعلق بالحقائق الجزئية – ولمبدأ السببية ومبدأ الغائية – وكلاهما يتعلق أيضا بالحقائق الجزئية – من أن تستند الى مبدأي الهوية والعلة الكافية . وهذا يعني ، أن التفكير المنطقي – أو العلمي – يعتمد على التفكير الفلسفي ؛ فالتفكير المنطقي الصوري الذي يعتمد على مبدأي عدم التناقض والثالث المرفوع ، يجد سنده الاخير في مبدأ الهوية ، التي هي الهوية الكلية كما رأينا ، والتي تعبر عن الوجود تجريدا ؛ والتفكير المنطقي التطبيقي الذي يعتمد على مبدأي السببية والغائية ، يجد سنده الاخير في مبدأ العلة الكافية ، التي هي العلة الكافية الكلية كما رأينا ، والتي تعبر عن الصيرورة تجريدا . وهو يعني أيضا ، أن التفكير المنطقي أوالعلمي وهو تفكير في المجرد ، يعتمد على التفكير الفلسفي ، وهو تفكير في المشخص ؛ لان الهوية والعلة الكافية هما شيء واحد في الكل المشخص ، كما رأينا .

خاتمــــة

وهكذا نرى أن التفكير يعتمد على مبادىء عامة ، بعضها يتعلق بالحقيقة الكلية مثل مبدأ الهوية ومبدأ العلة الكافية ؛ وبعضها يتعلق بالحقائق الجزئية ، مثل مبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع ؛ ومثل مبدأ السببية ومبدأ الغائية ؛ وأن المبادىء الاخيرة تعتمد في نهاية امرها على المبدأين الاولين .

والحقيقة ، فقد اختص مبدأ الهوية بدراسة الحقائق الثابتة ، واختص مبدأ العلة الكافية بدراسة الحوادث المتغيرة . وهذا يعني ، ان الحقيقة الاولى رؤيت بمنظارين مختلفين : الهوية والعلة الكافية ، بعد التفريق تجريدا ، بين حقائق ثابتة تعبر عن الوجود ، وحقائق متغيرة تعبر عن الصيرورة .

وهذا يدفعنا الى القول : ان الحقيقة الكلية الواحدة شوهها الذهن ، فاصبحت في التجريد حقيقتين ؛ أدى انفصالهما عن الكل المشخص ، الى الحاجة الى ميدانين فكريين كليين يصلح كل منهما للتفكير في حقيقة كلية مجردة مختلفة . لقد انتهت الحقيقة الاولى أعني الوجود المشخص ، الى أن تصبح وجودا مجردا مجردا يصلح له مبدأ الهوية ، وصيرورة مجردة يصلح لها مبدأ العلة الكافية : وهذا يعني ، أن هذين المبدأين نتيجة نظرة تجريدية وما علينا الا أن نرد كل تجريد الى أصله في التشخيص ، لنرد اليقين المجرد الى اليقين المشخص . وعندئذ لابد لنا من أن نرى وحدة الذهن فكرا وعقلا ، في مبداي الهوية والعلة الكافية ، وما يتفرع عنهما من مبادىء أخرى ؛ لاننا كما قلنا ، لانستطيع أن نرى الحقيقة الا في التشخيص الوجودي ؛ ولان الحقيقة المجردة لايمكن عدها حقيقة الا اذا هي استندت الى حقيقة وجودية ؛ مهما كانت المسافة التي تفصلها عنها ، والسبل التي تنتهي اليها ، أما « الحقيقة » المجردة التي ليس لها مثل هذا الاصل ، فلا يمكننا أن ندعوها حقيقة !

والحقيقة ، ان مبدأ الهوية ومشتقية مبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع ، من جهة ؛ ومبدأ العلة الكافية ومشتقيه مبدأ السببية ومبدأ الغائية ، من جهة اخرى ؛ لم يستخدما في تاريخ « الفلسفة » الا في نطاق الحقائق الجزئية والمجردة ؛ فلم يقتصر التجريد على اقامة كل منهما مستقلا عن الآخر ؛ بل تعدى ذلك الى الاقتصار على الحقائق الجزئية ، بحيث فهمت الهوية على انها هوية جزئية ؛ والعلة الكافية على انها علة جزئية. أما نحن فلا يمكننا ان نتقبل هذا الراي ؛ لانه ينطوي على تصور يجعل الجزئي سندا للجزئي ؛ والجزئي لا يمكن أن يكون سندا ، لانه هو بدوره بحاجة الى سند . لهذا كان الاخذ به من شانه ان يلغي اليقين ؛ لانه ما من يقين الا في نطا قالكل . لهذا تساءلنا : هل مبدأ الهوية ومبدأ العلة الكافية يصدقان حقا على الامور الجزئية ؟ ورأينا ان الهوية الحقة هي هوية الكل ؛ وان العلة الكافية حقا ، هي علة الكل ؛ وان مثل هذا الراي هو عماد اليقين ؛ اذ من دونه ، لن يكون هناك يقين بوجه من الوجوه !

وحدانا هذا الى القول بان الهوية والعلة الكافية تنبعان من أصل واحد ؛ ولا بد لهما من ان تتطابقا معا في هذا الاصل الواحد ؛ حينما يهبط الفكر من عالم المجردات ، الى الوجود المشخص ؛ حيث يصل الى اليقين حقا ، اليقين الاول الذي يستند اليه كل يقين .

ملاحظات حول التطور الجديد للنظام الامبريالي العالمي

بهجت سليمان

تدخل الامبريالية الان مرحلة جديدة من تطورها ، وينعكس ذلك في التغيرات الكيفية في بنيتها او مختلف نشاطاتها ، وانتشار آثار هذه التغيرات في مختلف ميادين الحياة الدولية . ان عهد انقلاب نوعي قد بدأ يطرأ فعلا على مستوى البنائين : التحتي والفوقي للدول الامبريالية ، ويتجلى ذلك في مظاهر اقتصادية واجتماعية وسياسية مختلفة منها مثلا ظهور الاحتكارات الدولية المتنوعة ، سيما الشركات المتعددة الجنسية ، الميل نحو التكامل الامبريالي وتدويل الحياة الاقتصادية التي اصبحت واقعا حقيقيا ، الاستعمار الجماعي الجديد ، التكتلات الاقتصادية والسياسية والعسكرية المختلفة ، الاتجاه نحو انشاء الوحدات السياسية للتكتلات الاقليمية كالسوق الاوروبية المشتركة ، التي انتخبت مؤخرا برلمانا اوروبيا مشتركا في محاولة لبناء وحدة دول السوق التسعة السياسية . كل تلك المظاهر تمثل علامات تحول جذري وعميق في مجرى التطور الامبريالي العالمي ، وفي سير عملية التطور الدولية الشاملة .

ان أهمية بحث هذه الملامح الجديدة لتطور النظام الراسمالي الاحتكاري العالمي ، تستند الى ضرورات ومبررات موضوعية يستحيل عدم أخذها بعين الاعتبار ، كحقيقة ان تطورات النظام الامبريالي العالمي الراهنة لاتجري بمعزل عن تأثير التطورات الجارية في النظام الاشتراكي العالمي ولا عن التطورات الجارية في بلدان العالم الثالث ، بل ان هـذه التطورات بمجملها تشكل كلا واحدا متفاعلا تفاعلا ديالكتيكيا معقدا ، انها تشكل وحدة

أجزاء متضادة ومتناقضة ومتحركة باتجاهات تاريخية موضوعية يمكن تحديدها نسبيا . وعلى هذا فلا يمكن فهم قوانين تطور النظام الامبريالي العالمي التي « أصبحت تظهر باشكال جديدة » ، فهما صحيحا الا « بربطها بسنن تطور العصر بكامله[1] » وبلدان العالم الثالث معنية أكثر من غيرها بتتبع وتحليل وفهم مظاهر تطور الامبريالية ؛ ذلك لان تخلفها وتطور هذا التخلف يرتبط الى هذا الحد او ذاك ، وبهذه الصورة أو تلك بتطور نظام الامبريالية العالمية ، على الاقل لان الفاعل الحاسم والمحدد في هذا الارتباط هو للامبرياليـة (اذا استبعدنا فرضا تاثير النظام الاشتراكي العالمي) لا العكس ، وليس أدل على صحة هذه الحقيقة من كون العالم الثالث مايزال يشكل المجال الحيوي والاحتياطي الهائل لاستمرار أسلوب الانتاج الرأسمالي ، ومرتعا للرأسمال الاحتكاري الاجنبي ، وتبقى الغالبيـة العظمى من بلدان العالم الثالث جزءا من النظام الرأسمالي العالمي وحلقات في اقتصاده ، ويبقى سير هذه البلدان في طريق التطور الرأسمالي هو الاتجاه الغالب في تطورها ، لان الارضية الملائمة لمثل هذا التطور الرأسمالي لاتزال قائمة ومتمثلة بوجود ملايين الاستثمارات البضاعية الصغيرة[2] ، ويجعل وضع بلدان العالم الثالث هذا ضمن مجمـل النظام الرأسمالي العالمي من الضرورة بمكان الاهتمام بفهم قوانين التطور الرأسمالي العامـة والخاصة ، وحمل عبء تتبع وتحليل أهم المسائل المستجدة والتحولات الطارئة في سير عملية تطور النظام الامبريالي العالمي ، لانه « لن يكون بالامكان فهم « التخلف » في بلداننا (بلدان العالم الثالث) دون فهم « التقدم » (بمعنى التطور) في بلدان المركز الرأسمالي (أي الدول الامبريالية) » [3] .

ومن خلال هذا الفهم المادي الديالكتيكي والتاريخي لمجرى تطور النظام الامبريالي العالمي ضمن اطار العضوية المتفاعلة للتطور العالمي الشامل ، سوف ننطلق في بحثنا عن بعض المعطيات المستجدة في التطورات الامبريالية الراهنة . نشأت الرأسمالية على انقاض المجتمع الاقطاعي وكانت المانيفاكتورة مرحلة الرأسمالية الاولى الوليدة ، ومن تطور المانيفاكتورة السريع ؛ ومع اكتشاف البخار والالة دخلت الرأسمالية مرحلتها الثانية التي تمثل انقلابا ثوريا عاصفا في الانتاج الصناعي ، انها مرحلة رأسمالية المزاحمة الحرة

---

(1) الاقتصاد السياسي للبلدان النامية ، توليانوف ، ترجمة الدكتور مطانيوس حبيب ، ص ٢٦ – ص ٤٩ .

(2) : المرجع نفسه السابق ذكره ، ص ٢٧ – ٢٨ – ٣٥

(3) : الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، كريستيان بالوا ، ترجمة عادل عبد المهدي ، المقدمة ص ٨ .

والتنافس . مرحلة الثورة الصناعية الاولى التي غيرت وجه المجتمع واستولت على السلطة السياسية فيه ، وسادت الراسمالية تشكيلة اقتصادية اجتماعية . كل نواحي الحياة وميادينها المادية والايديولوجية « وخلقت السوق العالمية ، لتقيم صلات شاملة بين الامم تجعلها متعلقة بعضها ببعض في كل الميادين المادية والفكرية ، ان البرجوازية في هذه المرحلة تجر الى تيار المدنية كل الامم ، حتى اشدها همجية ، لان رخص منتجاتها في يدها بمثابة مدفعية ضخمة تقتحم وتخرق كل ماهنالك من أسوار صينية ، وتنحي امامها رؤوس اشد البرابرة عداء وكرها للاجانب ، ان البرجوازية تخلق في كل مكان عالما على صورتها ومثالها (٤) » .

لكن هذه المرحلة وصلت الى ذروتها في اواخر القرن التاسع عشر ، حيث اخلت ملامح مرحلة أكثر تطورا تغزو آفاق وميادين المجتمع الصناعي الراسمالي ، لقد بدأت تغيرات نوعية عميقة تبرز في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ولعلنا نستطيع التاكيد بان انعطافا واضحا أقوى من الثورة الصناعية الرأسمالية راح يحل محلها ، انها الثورة العلمية التقنية ، وبروز الشركات الاحتكارية العملاقة التي تعتبر بواكير عهد الامبريالية ، ان نشوء وتوطد الاحتكارات قد دشن مرحلة الامبريالية هذه المرحلة التي وصفها لينين بانها : « أعلى مراحل الرأسمالية » وآخرها .

« ان القرن العشرين هو نقطة التحول من الرأسمالية القديمة الى الحديثة » (٥) من رأسمالية الثورة الصناعية والمنافسة الحرة الى الرأسمالية الاحتكارية والسيطرة على السوق الوطنية والعالمية . وكما يقول لينين ، فبدلا من « الرأسماليين المبعثرين يتكون رأسمالي واحد مشترك » حيث « ان قبضة من الاحتكاريين تخضع لنفسها العمليات التجارية والصناعية في المجتمع الرأسمالي برمته(٦) » .

ان عهد الامبريالية هو عهد سيطرة النظام الرأسمالي على العالم باسره ، وسيادة قوانينه على كل بقاع الارض ، « لقد آلت الامبريالية الى نظام عالمي »(٧) لامنازع له البتة : اتحاد الصناعة والبنوك ، اتحاد الاحتكارات الخاصة باحتكارات الدولة والذي ينتج رأسمالية

---

(٤) : مختارات ماركس ـ انجلز ـ الجزء الاول ، ص ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٥
(٥) الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ، لينين ، ص ٦١
(٦) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٥ .
(٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٩ ـ ١٢٠ .

الدولة الاحتكارية ، نشوء الشركات المتعددة الجنسيات ، تصدير رؤوس الاموال ، اقتسام العالم اقتصاديا وسياسيا واعادة اقتسامه والصراع من أجل المستعمرات(٧) . هذه هي بعض السمات الرئيسية للنظام الامبريالي الذي اشتد عوده واصبح القوة الاساسية التي تحرك العالم وتحدد مصيره وتربطه بمصيرها .

استمرت هذه المرحلة حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى ونشوب أول ثورة اشتراكية في العالم خلالها ، هذه الثورة التي اجتاحت روسيا الامبراطورية ، واستولت الطبقة العاملة المنظمة على السلطة السياسية لاول مرة في التاريخ بقيادة البلاشفة وعلى رأسهم لينين ، مما فاجأ الامبرياليين في دولهم كافة ، وصعقهم الحدث الذي هز جذور مجمل النظام الرأسمالي هزة عنيفة عام ١٩١٧ ، مما فتح عهدا جديدا في تاريخ التطور العالمي عامة ، وفي تاريخ تطور الراسمالية خاصة . وأدت ولادة النظام الاجتماعي الاقتصادي السياسي الجديد ، الى أن تحديد اتجاهات تطور العالم لم يعد رهنا بمشيئة النظام الامبريالي ، وأن ناقوس الخطر قد نبه البرجوازية العالمية على حقيقة واقعة ، وهي أن نظامهم لم يعد النظام الخالد المقدس الوحيد الذي لا مهرب للبشرية من سلوكه أو قبوله ، ومع الثورة الاشتراكية دخلت الراسمالية ازمتها العامة والعميقة ، وفرض عليها التطور الجديد أن تفتح اعينها جيدا ، وأن تعد حتى العشرة قبل أن تقرر شيئا ، وان تغير سلوكها واستراتيجيتها الاقتصادية والسياسية على المستويين الوطني والعالمي، سيما وأن ضغط الحركة العمالية والديمقراطية في العالم الراسمالي قد بلغ الاوج وكاد يودي بهذا النظام في أكثر من بلد أوروبي ، بل كاد يتولى زمام السلطة السياسية أكثر من مرة في المانيا وفرنسا . ومنذ ذلك الحين اكتسبت الامبريالية ملامح جديدة ، فالى جوار « اوروبا المتاخرة (المنهارة) ... والتي بدأت تدب فيها عفونة الشيخوخة » نهض العملاقان : اليابان ، والولايات المتحدة الامريكية ، لقد أصبحت « اوروبا بمجملها ، بالقياس الى الولايات المتحدة ، تعني الركود الاقتصادي » ، والى جوار هؤلاء بدأ يتوطد ويترسخ ويقوى ساعد النظام الاشتراكي في الدولة السوفيتية الفتية . وبدأ سباق التسلح وعسكرة الاقتصاد والاعداد الاقتصادي والسياسي والعسكري للحرب الانتقامية القادمة من أجل اعادة تقاسم المستعمرات يطبع الحياة في العالم الرأسمالي باسره بطابعه القوي . هكذا تفعل قوانين التطور الراسمالي فعلها فـ « الحرب لا تتناقض مع أسس الملكية الخاصة (الرأسمالية) ، انما هي تطورها المحتوم » ، كما « لايمكن للتقاسم (واعادة التقاسم) ان يرتكز على أي أساس ، على أي مبدأ ، غير القوة » و « القوة تتغير مع التقدم الاقتصادي » و « في ظل الرأسمالية يستحيل تطور مختلف الاستثمارات ومختلف الدول اقتصاديا بالوتيرة نفسها . والوسائل الوحيدة الممكنة لاعادة التوازن المفقود ، من حين الى آخر ، انما هي ، في ظل الراسمالية ، الازمات في

الصناعة ، والحروب في السياسة » « ان التفاوت في التطور الاقتصادي والسياسي هو قانون مطلق للراسمالية(٨) » ، وهذا مايفضي الى نهوض هذه الدول وتفوقها تارة (انكلترا ، فرنسا ، المانيا) ، ونهوض غيرها وتفوقها عليها تارة أخرى (اليابان ، الولايات المتحدة الامريكية) ، ولكن اوروبا المتهالكة مافتئت حتى استجمعت أنفاسها ونهضت من جديد نهضة قوية مع كل مايتمخض في أعماقها من تناقضات استعمارية وصراعات مستعصية، من أجل اعادة تقاسم الغنيمة الاستعمارية المتمثلة بالبلدان المستعمرة وشبه المستعمرة ، فظهرت بسرعة ملحوظة المانيا الهتلرية المتفوقة القوة اقتصاديا وعسكريا والى جانبها ايطاليا الفاشية وعدد من الدول الاوروبية الحليفة ، وفي الجهة المقابلة قامت فرنسا وانكلترا وحلفاؤهما ببناء ما دمرته الحرب ، لتعود اقوى مما كانت عليه قبل الحرب الكونية الاولى ، وحتى ذلك الحين كانت لا تزال دفة التطورات السياسية الدولية الى حد ما بيد اوروبا ، وكانت اوروبا ما تزال تمثل كفة راجحة على صعيد تقرير مصير التطورات العالمية ، على الرغم من وجود الاتحاد السوفياتي ، الدولة الاشتراكية الوحيدة والمحاصرة ، والتي كانت تبني نفسها اقتصاديا وعسكريا بصمت وثبات وسرعة ، لتحمي نفسها ونظامها الاشتراكي مما يبيت لها في الخفاء ، من قبل الامبرياليين ، وخاصة منهم النازية والفاشية .

وبينما كانت الازمات الدورية العاصفة العامة والعالمية تجتاح النظام الراسمالي كله ، وخاصة منها الازمة العامة الدولية التي نشبت من عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣ ، كانت في الجوانب الاخرى من العالم تتصاعد مقاومة حركات التحرر الوطني والقومي في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة ، في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، في نضالات وثورات شعبية مسلحة ضد المستعمرين الغزاة الامبرياليين ، وبدعم مطلق من الاتحاد السوفياتي ، الذي لم يكن يملك من وسائل الدعم الا الدعم السياسي والمعنوي .

لقد بدأت حركات التحرر الوطني تشكل ضغطا متناميا ومتعاظما على السياسة الخارجية لدول النظام الامبريالي ومواقفها المختلفة حيالها ، كما أصبحت عامل توتر عالمي باعتبارها الضحية التي يتنافس على افتراسها الضواري الكبار من الدول الاستعمارية .

في تلك المرحلة كانت عوامل التفرقة والانقسام والصراع بين الامبرياليين هي القانون العام لسياستهم العامة الداخلية والخارجية خاصة ، ولم يكن من سبيل لحل هذا

---

(٨) مختارات لينين ـ الجزء السادس ، ص ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ .

الصراع « الا بنسبة القوة » الاقتصادية والعسكرية ، ولم يكن من سبيل « لاعادة التوازن المفقود في الصناعة الا الازمات ، وفي السياسة الخارجية الا الحروب » . وبالفعل لم يدم الهدوء طويلا ، ولم يمض اكثر من ربع قرن على الحرب الكونية الاولى ، حتى اندلعت الكارثة من جديد وانحرف العالم كله في اتون الحرب العالمية الثانية التي استمرت خمسة اعوام ونصف وذهب ضحيتها سبعة عشر مليونا من العسكريين وثمانية عشر مليونا من المدنيين ، وكانت خسارتها ونفقاتها العسكرية تربو على / ٣٢٠٠ / مليار دولار (٩) . هذه هي مثالية المستعمرين الامبرياليين المزعومة . انها مثالية مبنية على التخريب والدمار والنار وبحار الدم البشرية .

هزيمة المحور (المانيا ، ايطاليا ، اليابان ، وحلفاؤهم) وانتصار الحلفاء (الولايات المتحدة الامريكية ، انكلترا ، فرنسا ، وحلفاؤهم) وانتصار روسيا السوفيتية الذي افضى الى انتصار الثورة الاشتراكية في عدد من بلدان اوروبا الشرقية وولادة منظومة الدول الاشتراكية ، هذه هي نتائج الحرب الكونية الثانية المريعة .

لقد تغيرت الخريطة السياسية الدولية في مناطق عديدة من العالم ، الذي انتقل مع نهاية الحرب الى عصر الذرة والثورة العلمية التقنية نهائيا . وبرزت الى الوجود السياسي الدولي حركات وثورات التحرر الوطني في دول المستعمرات واشباه المستعمرات ، والتي اخذت تنتزع استقلالها السياسي الواحدة بعد الاخرى ، واصطلح على تسمية هذه الدول بـ « دول العالم الثالث » او بـ « الدول المتخلفة » . وفيما بعد اصبح البعض يطلق عليها « الدول النامية » وترددت هذه الدول في اختيار طريق تطورها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بين نظامين رئيسيين في العالم ، النظام الاشتراكي العالمي ، والنظام الرأسمالي الامبريالي الذي لم يزل تربطه بهذه الدول علاقات تناقض عميقة ، تتخذ صورا مختلفة من السيطرة والتبعية .

وبينما كانت التناقضات المحددة لمجرى التطورات الدولية هي التناقضات الجارية في قلب النظام الرأسمالي ، فقد اصبح التناقض الرئيسي للعصر هو التناقض بين النظامين ، الرأسمالي والاشتراكي . واصبح هذا « التناقض الرئيسي للعصر الحديث الذي يلقي بتاثيره المتنامي على العمليات الداخلية في كل من الدول الامبريالية والنامية » و « أسلوب الانتاج الرأسمالي وقوانين الرأسمالية ، فقدت الطابع الشمولي المقتدر ، في حين لم تصبح

(٩) الحرب العالمية الثانية ، رمضان لاوند ص ٨٤ .

قوانين الاشتراكية، وأسلوب الانتاج الاشتراكي شاملة بعد في النطاق العالمي[10]».ان الدول الامبريالية لم يعد بامكانها الانفراد في تحديد شروط وطبيعة التطورات الجارية على الصعيد العالمي ، وخاصة في دول العالم الثالث المتعاظمة النفوذ في الساحة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الصعيد الدولي ، سيما وأن الاستقلالات السياسية لهذه الدول قد تلاحقت بسرعة كبيرة ، واستلمت السلطة السياسية فيها حكومات وطنية جعلت هدفها تجاوز التخلف وتطوير نفسها اقتصاديا وثقافيا وسياسيا ، مستفيدة من دعم المعسكر الاشتراكي العالمي ، ومن تجارب ومنجزات الدول المتقدمة صناعيا سواء الرأسمالية منها ام الاشتراكية . وسلك بعضها طريق التطور اللارأسمالي واتجه نهائيا فيما بعد في طريق بناء الاشتراكية (كوبا ، كوريا ، فيتنام ، الخ) بينما سلك بعضها الاخر طريق التطور الرأسمالية واتجه نهائيا لترسيخ أسس وأسلوب الانتاج الرأسمالي (الهند ، تركيا ، الباكستان ، اندونيسيا ، البرازيل ، الخ) ، ولايزال البعض الاخر مترددا او متارجحا بين النظامين ، بحيث لم تتحدد بعد هويته . ان فرصة اختيار احد طريقي التطور الرأسمالي أو الاشتراكي قد أصبحت سانحة لدول العالم الثالث بعد انتصار ثورات التحرر الوطني وحصولها على الاستقلال السياسي وسيطرتها على السلطة السياسية في بلدانها .

ولادة المعسكر الاشتراكي ، انتقال حركة التحرر الوطني من الموقف المنفعل الى الموقف الفاعل المتعاظم التأثير ، تنامي ضغط الحركات العمالية والديمقراطية داخل دول النظام الرأسمالي ، هذا الواقع الجديد قد أجبر الحكومات الرأسمالية على اعادة حساباتها ، واعادة النظر في استراتيجيتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على الصعيدين الداخلي الوطني والخارجي الدولي .

ان المعطيات المستجدة والمتغيرة للتطور العالمي جملة وللتطور الرأسمالي خاصة ، تتطلب فهما وتفسيرا موضوعيا علميا واقعيا ، من أجل التلاؤم معها نضاليا ، وما أكثر المحاولات الجادة الناجحة والموفقة نسبيا ، التي تصدت لمعالجة هذه المسائل الحديثة والمعاصرة ، وقدمت الاجابات المعقولة عليها ، الا أن اية اجابة تتوقف على معطياتها ومسائلها المحددة في الزمان والمكان ، وضمن هذا النطاق تظل هذه الاجابة صحيحة ، انها تظل صحيحةوفقا لنوع وطبيعة المسالة التي تتناولها بالاجابة ، أهي مسالة مطلقة أم نسبية ؟ أهي مسالة مستمرة دائمة أم محدودة ومؤقتة ؟ أهي مسالة ظرفية .. عارضة .. منفردة .. خاصة..

(١٠) الاقتصاد السياسي للبلدان النامية ، ص ٢٥ – ٢٦ .

وحيدة ، أم عامة شاملة ؟ جوهرية أم شكلية ؟ فعلى مستوى النظام الرأسمالي مراحل تطوره كافة ، توجد ظواهر وقوانين ملازمة لجوهر وطبيعة النظام المذكور ، قوانين لا تنفك تفعل فعلها فيه مهما طرأت عليه من تطورات وتغيرات في المضمون والشكل ، قوانين تظل قائمة في المرحلة المانيفاكتورية ، ومرحلة التنافس الحر ، ومرحلة الامبريالية . فقوانين القيمة الزائدة ، ومعدل الربح المتوسط ، وسعر الانتاج ، والعرض والطلب ، والريع العقاري ، ومفاهيم العمل المأجور ، وتكاليف الانتاج ، وقانون الهبوط التزوعي لمعدل الربح المرتبط بتغيرات التركيب العضوي لرأس مال ما ، ومفهوم الصراع الطبقي ، والتناقض بين البنية التحتية (أسلوب الانتاج : مستوى تطور القوى المنتجة + علاقات الانتاج) والبنية الفوقية (الايديولوجيا ، السياسية ، الدولة .. الخ(١١)) ، كل ذلك قوانين ومفاهيم ومقولات عامة ملازمة عضويا للنظام الرأسمالي ، ولكن الذي يتغير فيها هو شكل ظهورها وتأثيرها فيه من حين الى آخر ، ومن مكان الى آخر . والمطلوب بشكل أساسي من كل باحث هو تتبع هذه المظاهر والاشكال المتبدلة والمتغيرة أبداً في أسلوب الانتاج الرأسمالي ، في قوانين تطور الرأسمالية ككل ، وبالطبع من المفروغ منه أن معرفة هذه القوانين والمقولات بشكل عام هو شرط أساسي للقيام بمثل هذا العمل .

ان تغير أشكال وصور تجسد قوانين تطورالرأسمالية لا تنفي ظهور قوانين جديدة او مركبة وأكثر تعقيدا من حيث المضمون والشكل معا الى جانب القوانين السائدة المعروفة ،ولكن من المهم ايضا ان نعرف كيف نربط ولادة الجديد من القديم ، وان ولادة حلقات أعلى في التطور من حلقات أدنى هو قانون ديالكتيكي عام وشامل ومطلق ، فمن الادنى الى الاعلى ومن البسيط الى المركب ، وهذا القانون الاعم الذي يحكم سير العملية التطورية المادية أيا كان نوعها : اجتماعية أم فكرية أم طبيعية(١٢) .

فعلى سبيل المثال يعتبر الاحتكار ظاهرة جديدة في التشكيلة الرأسمالية ، ولكن هذه الظاهرة متولدة عن ظاهرة رأسمالية سادت قبلها وأدت اليها ، وولدتها ، وهي المزاحمة التي تفضي الى التراكم وتمركز الانتاج ، اللذين يفضيان عند درجة معينة من تطورهما الى الاحتكار(١٣) ، وتحل القوانين الجديدة (مثلا : الاحتكارات) مكان القوانين القديمة

---

(١١) راجع بشأن هذه المفاهيم كتاب رأس المال لكارل ماركس ، وكتاب المادية التاريخية ... الخ .

(١٢) راجع بهذا الشأن كتاب المادية الديالكتيكية .

(١٣) رأس المال ، كارل ماركس ، الكتاب الاول ، الجزء الثالث ، ص ٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠

(مثلا المزاحمة وتمركز الانتاج) ، اي تصبح سائدة ورئيسية ومحركة لكل الفعاليات الاقتصادية ، انها تصبح محور الحياة الاقتصادية ، محورا يجتذب كل الفعاليات الى خدمته ، مثلما تجتذب نواة الذرة الالكترونات المحيطة السائرة حولها في مداراتهـا ، مكونة واياها وحدة لكل الوجود المتحرك .

ان النظام الرأسمالي هو نظام التجدد المستمر في صيغه وأشكال حياته ، انه نظام الحركة المستمرة في بنيته ووجوده « ان البرجوازية لا تعيش الا اذا أدخلت تغييرات ثورية مستمرة على ادوات الانتاج ، وبالتالي على علاقات الانتاج ، اي على العلاقات الاجتماعية بأسرها . وبعكس ذلك ، كانت المحافظة على أسلوب الانتاج القديم ، الشرط الاول لحياة الطبقات الصناعية السالفة . فهذا الانقلاب المتتابع في الانتاج ، وهـذا التزعزع الدائم في كل العلاقات الاجتماعية ، وهذا التحرك المستمر وانعدام الاطمئنان على الدوام ، كل ذلك يميز عهد البرجوازية عن كل العهود السالفة » « ان كل شيء .. كل صورة .. كل علاقة جديدة تشيخ ويتقادم عهدها قبـل أن يصلب عودها (١٤) » «لا شيء ثابت في النظام الرأسمالي .. ومن خلال هذا القانون ، قانون التبدل والتغير والتطور المستمر في الحياة الاقتصادية الاجتماعية السياسية للنظام الرأسمالي ، يجب الانطلاق دوما في فهم قوانين آليـة حركة ذلك النظام جملة وتفصيلا .

وعلى هذا الاساس ، يجب اعتبار الشكل الامبريالي العضوية الرأسمالية ، تطوراً ضرورياً لهذه العضوية ، ونتيجة حتمية لها . حيث يصبح الاحتكار قاعدة الحياة الاقتصادية الاساسية فيـه ، والشكل الاكثر تطوراً وتعقيداً للاستثمار والاستغلال والسـعي وراء الربح .. وراء القيمة الزائدة .

ولكن ما هو الاحتكار ؟ هل هو نقيض المزاحمة أم ماذا ؟

ان الاحتكار هو نوع من اشتراكية رأس المال ، واتفاق الرأسماليين بشكل جماعي على استثمار رؤوس أموالهم المتجمعة في شركات مساهمة تسيطر على فرع او فروع صناعية او تجارية أو مالية بمجملها ، وقد أصبح يسيطر الآن على مستوى عالمي وأسيا وافقيا ، وهذا يعني أن الاحتكار لم يزل نوعا من المزاحمة بين مجموعات الرأسماليين المتحدين ، انه نوع جديد من المزاحمة فرضته متطلبات الحيـاة الاقتصادية المستجدة ، وفرضه

---

(١٤) : مختارات ماركس ، جزء ١ ، ص ٥٤

النزوع نحو السيطرة على مقدرات المجتمع الاقتصادية ، نوع من الاستغلال الجماعي للطبقة الراسمالية . وبدلا من التنافس والمزاحمة بين رأسماليين فرديين مبعثرين ، تسود المزاحمة بين كتل راسمالية مؤلفة من عدد كبير من الرأسماليين المتجمعين . وبهذا المعنى « لا يزيل الاحتكار المزاحمة الحرة التي نشأ عنها، بل يعيش فوقها والى جانبها(١٥)» واذا كان الاحتكار نوعا من تنظيم الاستغلال والاستثمار الجماعي للطبقة الرأسمالية وعلى اساس اسلوب الانتاج الراسمالي ، فهل يمكن ان يصل هذا التنظيم الى الدرجة التي يقضي فيها على المزاحمة نهائيـا ؟

لقد شغل هذا السؤال حيزا هاما من الادب الاشتراكي ومن تفكير قادته ، وخاصة بين كاوتسكي ولينين .. فهل يمكن ، على حد قول كاوتسكي أن تصل الاحتكارات الراسمالية الى « مرحلة استثمار مشترك للعالم من قبل الرأسمال المالي المتحد في النطاق العالمي ؟ » هل يمكن الوصول الى « مرحلة ما فوق الامبريالية » ؟

لم يستبعد لينين كليا أن « يسير التطور في اتجاه احتكار عالمي واحد ، تروست عالمي واحدا ، هذا لا جدال فيه ، ولكنه كذلك خال من كل معنى (لماذا ؟ لان قول ذلك يشبه قول) المرء ان « التطور يسير في اتجاه انتاج المواد الغذائية في المختبرات(١٦) » هكذا يجيب لينين على هذه المسالة الهامة من تطور الامبريالية .

فحتى هذه اللحظة لم تزل الامبريالية بعيدة عن مرحلة تحقيق الوحدة الاممية لراس المال الاحتكاري ، بل ان الحربين العالميتين كانتا دليـلا على تصادم مصالح التكتلات الاحتكارية العالمية وصراعها وتنافسها على اقتسام العالم كله عامة والمستعمرات خاصة ، كانتا دليلا على استمرارية قانون المزاحمة وقوة نفوذه حتى في عهد سيادة الشكل الاحتكاري لنشاط رأس المال والرأسماليين ، كانتا دليلا على وصوله الى درجة الخطورة البالغة التي تهدد النظام الرأسمالي الاحتكاري بمجمله . لقد برهنت الوقائع حتى الحرب العالمية الثانية من تاريخ الرأسمالية أن الاحتكارات تقوي مفعول تأثير قانون المزاحمة على الصعيد الدولي اقتصاديا وسياسيا وعسكريا واجتماعيا . ان قانون المزاحمة أصبح حتى ذلك الحين أشد بروزا وتأثيرا منه في اي وقت مضى ، ومن العبث القول بان الاحتكار يلغي المزاحمة أو انه يزيحها ويحل محلها ، وأن مرحلة الاحتكار تختلف عن مرحلة المزاحمة

---

(١٥) : الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية ، ص ١١٦

(١٦) : الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية ، ص ٢٧

من هذه الحيثية . ان وضع المزاحمة موضع التضاد مع الاحتكار .. ان وضع هذين المفهومين موضع النقيضين خطأ فادح ، ذلك لان المزاحمة ليست سوى سعي الرأسماليين الفرديين كل على حدة من أجل السيطرة على السوق واحتكارها لتصريف سلعه . والحال ما تزال هكذا بعد نشوء الشركات . ان شيئا جوهريا لم يتغير ، فبدلا من المزاحمة الفردية ، حلت المزاحمة الجماعية باعتبارها الصيغة الاقوى لخوض معركة السوق البضاعية ، باعتبارها الاسلوب الاكثر نجاحا وقدرة على الصمود في حلبة أو في غابة المزاحمة الرأسمالية . ان الاحتكارات بهذا المعنى هي صيغة أكثر تركيبا وتعقيدا وتطورا للمزاحمة . انها المزاحمة بين مجموعات راسمالية منظمة يواجه بعضها بعضا في السوق العالمية والوطنية ، فتحل تناقضاتها سلميا واتفاقيا حينا ، وبالاقتتال والحروب المحلية والدولية حينا آخر . وفي عهد الاحتكارات يصبح قانون المزاحمة السلاح الاكثر تدميرا للراسمالية .

ان قانون المزاحمة هوقانون الغابة وقد ساد وسيطر علىجميع مجالات الحياة الراسمالية. والقول : ان الامبريالية هي الانتقال من مرحلة المزاحمة الحرة الى مرحلة الاحتكارات ، هو قول تعوزه الدقة في التعبير ، ويجب أن يقال بدلا من ذلك : ان الامبريالية هي انتقال الراسمالية من مرحلة التنافس الفردي الحر والمزاحمة الفردية الحرة الى مرحلة التنافس الجماعي الراسمالي أو المزاحمة الجماعية الراسمالية . ان الامبريالية هي الانتقال من مرحلة صراع الراسماليين الافراد الى مرحلة صراع المجموعات الراسمالية المنظمة في اتحاد ومنظمات جماعية تتواجد في السوق المحلية والدولية ، بحيث تصبح المزاحمة أشد ضراوة ، وتصبح الاتحادات الاحتكارية المنظمة اكثر قوة وشراسة وسطوة وافتراسا . هذا ما يميز مرحلة الامبريالية الحديثة والمعاصرة ، ولكن اما من مؤشرات لمرحلة أعلى من تطور الامبريالية ذاتها ؟ وبمعنى أوضح ، هل ستتطور الاحتكارات الدولية في المرحلة الراهنة نحو شكل أرقى من تنظيم جماعية الاستغلال الطبقي الراسمالي الدولي ؟ هل سيفضي تطور الاحتكارات نحو وحدتها وتكاملها اقتصاديا ومن ثم سياسيا ؟ هل ستصل الى « مرحلة استثمار مشترك للعالم من قبل الراسمال .. المتحد في النطاق العالمي » على حد قول كاوتسكي ؟ وهل تستطيع الراسمالية تبعا لذلك « ان تزيل المزاحمة في السوق العالمية بصورة نهائية ولبرهة طويلة » ؟ ان لينين يجيب بالنفي على هذه المسألة (١٧) ، فما هي مبررات هذا النفي ؟ وما هي مبررات تصورات كاوتسكي ؟

---

(١٧) : الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية ، ص ١٣٥ .

يوجز ماركس الانتاج الرأسمالي بثلاث وقائع رئيسية هي :

١ ـ تركيز وسائل الانتاج في عدد قليل من الايدي (تمركز الانتاج) .

٢ ـ تنظيم العمل نفسه كعمل اجتماعي يلغي الملكية الخاصة الفردية والعمل الخاص .

٣ ـ تكوين السوق الرأسمالية العالمية (١٨) .

تكوين السوق العالمية ، هذه النقطة المهمة التي أبرزها ماركس في أكثر من مكان ، تعتبر سمة جوهرية في تطور الرأسمالية « ان الانتاج الرأسمالي لا يمكن ان يوجد دون تجارة خارجية (١٩) » والتوسع اللامحدود والتطور الدائم اللذان هما المحرك الاساسي للرأسمالية يدفعانها في هذا الاتجاه ، الا وهو خلق السوق العالمية . و « بدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة تنطلق البرجوازية الى جميع انحاء الكرة الارضية . فينبغي لها أن تدخل وتتغلغل في كل مكان ، وتوطد دعائمها في كل مكان ، وتقيم الصلات في كل مكان . وباستثمار السوق العالمية تصبغ البرجوازية الانتاج والاستهلاك في كل الاقطار بصبغة كوسموبولتية . وتنزع من الصناعة أساسها الوطني » و .. « مكان الانعزال المحلي والوطني السابق والاكتفاء الذاتي ، تقوم بين الامم صلات شاملة وتصبح الامم متعلقة بعضها ببعض في كل الميادين ، وما يقال عن الانتاج المادي ينطبق أيضا على الانتاج الفكري. فثمار النشاط الفكري عند كل أمة تصبح ملكا مشتركا لجميع الامم . ويصبح من المستحيل أكثر فاكثر على أية أمة أن تظل محصورة » و « تجر البرجوازية الى تيار المدنية كل الامم ، حتى أشدها همجية (٢٠) » هذه حقائق تجسدت وتتجسد باستمرار ، ان السوق العالمية أضحت واقعة ملموسة ، وأسلوب الانتاج الرأسمالي غمر جميع انحاء الارض (عدا الدول الاشتراكية الوليدة التي تجاوزته) وقوانين تطور الرأسمالية تفعل فعلها في أي مكان .. في أية دولة ، كما فعلت فعلها في دول أوروبا والعالم الرأسمالي الاصلي الذي انطلق تطور الرأسمالية فيها من ضرورات التطور الداخلية ، ولكن تطور الرأسمالية في باقي بلدان العالم وخاصة بلدان العالم الثالث سيجري ضمن ظروف مختلفة تمام الاختلاف ، وتتمثل هذه الظروف في كون الرأسمالية لم تنبع من متطلبات التطور الذاتي لبلدان العالم الثالث ، بقدر ما نبعت من متطلبات تواجد راس المال الخارجي الاجنبي في تلك البلدان ، ومن ضرورة حياته وحركته داخل البلدان التي يدخلها ، وبالتالي فسيطبع ذلك الانتاج الرأسمالي في بلدان العالم الثالث بطابع خاص يتجلى في كون

(١٨) : راس المال ، ماركس ، الكتاب الثالث ، جزء١ ، ص ٤٠٥

(١٩) : المرجع السابق نفسه ، الكتاب الثاني ، جزء ٢ ، ص ٢٢٦

(٢٠) : مختارات ماركس وانجلز ، الجزء الاول ، ص ٥٤ ـ ٥٥

الاقتصاد الرأسمالي للبلدان المستعمرة سيتخذ صيغة كولونيالية خادمة ومكملة وموظفة لدى الرأسمال الاحتكاري الدولي ، ومن ناحية أخرى سيتأثر تطور بلدان العالم الثالث رأسماليا بوجود النظام الاشتراكي العالمي ضمن حدود معينة .

لقد أصبح الاقتصاد العالمي كلا متصلا أوثق الاتصال ، وعلى مستوى الاقتصاد الرأسمالي العالمي أخذت تبرز أكثر فأكثر ملامح الوحدة الكيفية للاساس الاقتصادي لمجمل الدول الامبريالية عامة . اذ لا يمكن احتكار التقدم العلمي والتقني بل يستحيل احتكاره في اطار دولة امبريالية محددة ، ذلك لان الثورة العلمية التقنية التي تعصف الآن في أرجاء العالم الرأسمالي كافة انما تمولها وتقوم بها شركات دولية متعددة الجنسيات ، وهذا ما يجعل تعميمها على النطاق الامبريالي والرأسمالي العالمي والعالم قاطبة امرا أكيدا لا مهرب منه ، وبالتالي ، فان ذلك سيفضي الى تطبيقه عالميا والاستفادة منـــه على النطاق الانساني .

ان محاولات حرف اتجاهات التطور الرأسمالي في بلدان العالم الثالث بما يخدم الاقتصاد الرأسمالي الامبريالي هو امر نسبي تماما ، اذ لا يمكن اغفال الدور ذي التأثير المعاكس لهذا الاتجاه ، الذي تمارسه دول العالم الثالث حيـال الامبرياليين . فالامبرياليـة لا تستطيع بشكل مطلق تحديد طابع تطور الرأسمالية في البلدان النامية وفقا لمصالحها . انها لا تستطيع تحديد اتجاهات تطورها الذاتية ، ومن باب أولى أن لا تستطيع تحديد اتجاهات تطور الدول النامية الا ضمن حدود ضيقة جدا ، ذلك لان تحديد هذه الاتجاهات يرتبط بقدر ما يرتبط بتأثير الامبريالية ـ بتأثير العوامل الذاتية للدول النامية ، كما يرتبط بتأثير تطور النظام الاشتراكي العالمي .

ان الرأسمالية اذ تصدر رأس المال ، وبالتالي أسلوب انتاجها الى أنحاء المعمورة كافة ، تفقد السيطرة على ما خلقته بنفسها ، انها تفقد السيطرة على ما أنتجته وزرعته مـن علاقات انتاج واسلوب انتاج جديد في المستعمرات التي سيطرت عليها . تماما كما تفقد السيطرة على ما خلقته من قوى انتاج عملاقة . ان تاريخ الرأسمالية هو « تاريخ تمرد القوى المنتجة الحديثة على علاقات الانتاج القديمة ... تاريخ تمرد القوى الجهنميـة التي أطلقتها من عقالها (٢١) » ولئن كان نشوء وتطور الرأسمالية في المستعمرات من فعل رأسمالية أوروبا ، فان رأسمالية أوروبا الامبريالية لم تكد تفعل ذلك حتى فقدت في

---

(٢١) : مختارات ماركس وانجلز ، ص ٥٦ ـ ٥٧

الوقت نفسه امكانية الاستمرار في سيطرتها على الحياة الاقتصادية في تلك المستعمرات ذاتها . والاسلحة التي استخدمتها الرأسمالية في غزوها للعالم كله هي نفسها الاسلحة التي تستخدمها دول العالم الثالث للتخلص من الاستعمار والسيطرة الاستعمارية للدول الامبريالية . « ان تصدير الرساميل يؤثر على تطور الرأسمالية في البلدان التي يوجه اليها ، معجلا هذا التطور لاقصى حد . ولذا فان هذا التصدير اذا كان بامكانه أن يفضي لدرجة معينة الى بعض الركود في تطور البلدان المصدرة ، فهذا لا يمكن ان يحدث الا مقابل اطراء تطور الرأسمالية سعة وعمقا في العالم بأسره(٢٢) » . هذا يعني أن عمليات التطور الرأسمالية للدول الامبريالية ، خلال سعيها لاستعمار العالم ، لن تكون لصالحها تماما ، بل ان ذلك سيكون عاملا معجلا في تطور بقية العالم نحو الوصول الى الرأسمالية المتطورة ، والدخول في حلبة الصراع الرأسمالي الدولي . ان هذه الميزة تختص فيها التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الرأسمالية دون بقية التشكيلات التي سبقتها ، فالرأسمالية هي أسلوب الانتاج الوحيد الذي يستطيع أن يغزو أنحاء المعمورة كافة بالقوة وبالاقتصاد ، وأن يفرض كنظام جديد على المجتمعات التي لم تصل في تطورها بعد الى مرحلته ، انه النظام الاقتصادي السياسي الفكري الذي لا تمكن مقاومته اطلاقا من قبل الانظمة السالفة له . وهذا النظام يلغي الحدود بين المجتمعات ويعدم المسافات ، ويقرب درجات التطور الاجتماعي في الزمان والمكان بين الامم . ان أحدث منجزات العلم الحديث يمكن استيعابها من قبل أشد الدول تخلفا اذا سنحت لها الفرصة لذلك ، فالحاسبات الالكترونية والطائرات العملاقة والسفن والسيارات والقطارات وأجهزة الكومبيوتر والتلفزيون وصناعة السينما ... الخ .. أصبحت في متناول أغلب بلدان العالم . ويشير هيلفردينغ الى ذلك بقوله : « تنهار العزلة الزراعية التي استمرت آلوف السنين لدى هذه « الامم الموضوعة خارج التاريخ » وتجذب هذه الامم الى لجة الرأسمالية. والرأسمالية نفسها تقدم للمستعبدين شيئا فشيئا الوسائل والاساليب للتحرر ، فيضعون نصب أعينهم ذلك الهدف الذي كانت ترى فيه الامم الاوربية فيما مضى الهدف الاسمى ، أي انشاء دولة قومية موحدة باعتبارها وسيلة للحرية الاقتصادية والثقافية ، وهذه الحركة الطامحة الى الاستقلال تهدد رأس المال الاوروبي في أهم ميادين الاستثمار (٢٣) » .

---

(٢٢) : الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ، ص ٨٧

(٢٣) : المرجع السابق نفسه ، ص ١٦٥

ان ما يمكن استنتاجه من وقائع التطور الملموس للرأسمالية ، يتلخص في ان الرأسمالية الاحتكارية ليست فاعلا مطلقا في عملية تطور البلدان النامية وفي عملية التطور العالمي ، بل هي مجرد جزء مكون رئيسي في مجموع العمليـة التطورية العالميـة التي تتألف من العالم النامي والعالم الاشتراكي والدول الامبريالية ذاتها ، ولا يصح نفي الفاعليـة الايجابية عن أي من أطراف هذه العملية المترابطة للتركيبة العالمية الاقتصادية والاجتماعية الراهنة . ان تطور الامبريالية الذاتي يتأثر الى هذا الحد أو ذاك بتطور النظام الاشتراكي العالمي ، وبتطور البلدان النامية ذاتها ومهما تكن علاقات التبعية بين البلدان النامية والبلدان الامبريالية فان ذلك لا ينفي تأثيرها في سير تطـور النظام الرأسمالي الاحتكاري في الدول الامبريالية ذلك لان علاقات التبعية بين الدول الصغرى والكبرى موجودة قبل الرأسمالية ، ولايقلل من شان تأثير تطور البلدان النامية في التطور الامبريالي والعالمي كون علاقات التبعية بين الدول الصغرى والكبرى تصبح نظاما عاما(٢٤) .

ان مانريد قوله هو : ان تطور الرأسمالية في الوقت الذي يقرر فيه مصير التطور العالمي ، ويطبعه بطابعها ، ويقرب من مستويات أجزائه المكونة ، فان ذلك التطور العالمي يفلت من قبضتها ، وقد ينقلب عليها في كثير من الاحيان . وبلدان العالم الثالث التي كانت متأخرة ولا تزال تغط في ظلام نظم ما قبل الاقطاعية وعزلتها العميقة ، توقظها الرأسمالية وتجرها الى سكة تطورها ، ولكن تلك البلدان تأخذ زمام المبادرة بعد ان تنهض وتقرر سبيل تطورها بقدر معين من الاستقلال عن مشيئة المتروبولات الكبرى . ومهما تداخلت تطورات البلدان النامية مع تطورات العالم الامبريالي ، ومهما اتخذ هذا التدخل من صيغ وعلاقات تبعية ، فان ذلك لا يقلل من شان تأثيرها في مجمل التطور الامبريالي ، ولا يمنع ذلك من تأثير قوانين التطور الرأسمالي في تطورها باتجاه الآفاق ذاتها التي كانت الرأسمالية الاوروبية قد اتجهت اليها ووصلتها ، وأعني مرحلة سيطرة الاحتكارات والانتقال الى الامبريالية ، فالهند ، والبرازيل ، واندونيسيا ، والباكستان ، وتركيا.. الخ ، هذه الدول التي تعد من دول العالم الثالث قد خطت بعيدا في طريق الرأسمالية، وهي بحكم ظروفها الذاتية والدولية المواتية تماما ، وبفعل قانون تفاوت التطور الرأسمالي يمكن في أية لحظة ان تصل الى درجات عليا من التطور الرأسمالي كالتي وصلتها الدول الامبريالية ، وقد يحدث وتتجاوز في تطورها رأسماليا وامبرياليا مستويات التطـور الراهنة للولايات المتحدة الامريكية واليابان ومختلف دول أوروبا الامبريالية . وبذلك سوف تدخل تباعا في عداد الدول الامبريالية ، دول رأسمالية متطورة كانت حتى الان تعتبر من بلدان العالم النامي .

---

(٢٤) : الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ، ص ١١٧ .

وسواء أسلكت دول العالم الثالث طريق التطور الكولونيالي أم طريق التطور الرأسمالي المستقل ، أم طريق التطور اللارأسمالي ، فان ذلك كله لن يؤدي الا الى تقليص حصة الدول الامبريالية في السوق العالمية ، وتقليص رصيدها فيما يسمى بتقسيم العمل الدولي ، حتى مع افتراض عدم وجود النظام الاشتراكي العالمي وتطوره المتعاظم في المدى والعمق .

ان الدول الامبريالية اذ تحاول السيطرة على اتجاهات تطور العالم الرأسمالي غير الامبريالي ، فانما تعجل في خلق الوضع الرأسمالي الدولي الذي سوف لن يخدمها ، لان كل خطوة الى الامام بالنسبة الى الامبريالية لن تعني الا خطوة الى الوراء في الوقت نفسه ، ولن تعني سوى المزيد من الهرم والشيخوخة والتعفن .

اما مايقال حول تعميق التبعية بالنسبة الى الدول النامية السائرة في طريق الراسمالية، فهذا القانون ينطبق على مجمل النظام الرأسمالي العالمي على مستوى الدول ، تماما كما ينطبق قانون تبعية رؤوس الاموال الصغيرة والكبيرة داخل المجتمع الرأسمالي الواحد والدولة الامبريالية الواحدة . ان قانون التبعية هذا ينطبق على العلاقات بين الدول الامبريالية ذاتها حيث الصغيرة منها تقع في « شباك التبعية الدبلوماسية والمالية »(٢٥) للكبيرة منها ، ومفهوم التبعية الدولية اقتصاديا وسياسيا يختلف تماما الاختلاف عن المفاهيم التي يروج لها بعض الاقتصاديين المعاصرين في كتاباتهم حول العالم الثالث ، مثل مفهوم نمو التخلف ، وتطور التخلف . .الخ التي ترد في نظرياتهم حول تطور البلدان النامية (٢٦) . ان مصطلح نمو التخلف أو تطور التخلف يوحي فقط باستمرار وتعميق تطور البلدان النامية باتجاه معاكس لتطور البلدان الامبريالية ، وهذا مستحيل عمليا ، لان اتجاهات التطور العالمي لجميع الدول تتوازى وتتخذ نفس الاتجاه ، بالرغم من التعرجات والانحرافات الضعيفة التي قد توهم بانقلاب سمت التطور بزاوية مستقيمة ، ان جميع اتجاهات تطور الدول تشترك في كونها تتجه من الادنى الى الاعلى ومن البسيط الى المعقد ، ان سرعة تطور هـذه الاتجاهات المتوازية تتفاوت من دولة الى اخرى تفاوتا قد يزيد

---

(٢٥) : الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية ، ص ١١٥

(٢٦) : انظر بهذا الشأن كتاب (التراكم على الصعيد العالمي ـ نقد نظرية التخلف)، الدكتور سمير امين ، ترجمة حسن قبيسي ... وكتاب (الاقتصاد السياسي للتخلف) للبروفسور توماس سنتش ، ترجمة فالح عبد الجبار .

أو ينقص وفقا للظروف والمعطيات المتغيرة ، وهذا ما يجعل من اتجاهات التطور المتوازية اتجاهات غير متساوية ، ولكن مع هذا فان ذلك لاينفي نزوعها الى التساوي مستقبلا . ان الرأسمالية كأسلوب انتاج (نضع جانبا الاشتراكي افتراضا) يجد تعميمه الان أكثر من أي وقت مضى ، واذا كانت العبودية والاقطاعية قد وجدت تعميمها العالمي في مراحل تاريخية متباينة ، فان الرأسمالية هي أسرع تشكيلة وأقدر نظام على تحقيق مثل هذا التعميم والشمول لقواه المنتجة وعلاقاته الانتاجية والاجتماعية على النطاق العالمي .

ان الرأسمالية هي الرأسمالية مهما اختلفت صيغ نشوئها وتطورها من دولة الى اخرى وكما أن تبعية العمل المأجور (الطبقة العاملة) لرأس المال (الطبقة الرأسمالية) داخل المجتمع الواحد لاتنفي تطور المجتمع ككل واحد اقتصاديا وثقافيا وسياسيا رغم التناقض الداخلي الذي يمتد بجذوره الى أعمق أعماق المجتمع الطبقي ، كذلك فان تبعية الدول الصغرى الرأسمالية للدول الكبرى الرأسمالية ، أو تبعية دول العالم الثالث الرأسمالية أو شبه الرأسمالية للدول الامبريالية لا تنفي تطور الرأسمالية العالمية ككل على جميع الاصعدة وفي الاتجاهات كافة وضمن اطار النظام الرأسمالي الذي يعتبر بمثابة العضوية الواحدة ، والذي يتجه نحو تعميق التداخل والتشابك والتكامل والوحدة الكيفية ليس على صعيد الاقتصاد فحسب بل على صعيد السياسة أيضا ، والذي نعنيه هو أن هذا الاتجاه قائم .. فاعل .. محرك .. « أصبح تدويل الرأسمالية من السمات النوعية في تطور الاقتصاد الرأسمالي العالمي(٢٧) » ، ولايقلل من صحة هذه الفكرة أن سير اتجاه التطور هذا قد يفضي أو لا يفضي الى الهدف أو الذروة ، أي الى انجاز الوحدة الاقتصادية والسياسية . ان الامر الجوهري في حركة التطور الرأسمالي العالمي هو أنه يسير في هذا الاتجاه ، على الرغم من كل العوامل والقوى النابذة له ، والتي تعمل بالاتجاه المعاكس له ، ويمكن تصنيفها ضمن العوامل الرجعية التي تحاول التشبث بالكيفية السائدة ، وتكافح ضد نفيها الذي بات محدقا بها من كل صوب . ان جميع الاحصاءات الاقتصادية الرأسمالية تشير الى اتجاه العالم الرأسمالي نحو مزيد من الترابط الاقتصادي والسياسي الدولي ، وخاصة داخل التكتلات الاقتصادية

(٢٧) : انظر بهذا الشأن : كتاب الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة ، الجزء الرابع ، الفصلين الخامس والسادس .

الاقليمية للدول الامبريالية ، وتجري هذه العملية داخل دول النظام الامبريالي العالمي بصيغ واشكال مختلفة يتم من خلالها تدويل الحياة الاقتصادية وتكاملها واندماج الاحتكارات الخاصة والدولية(٢٨) بتسارع مطرد وملحوظ ، حتى ان دول السوق الاوربية التسع قد توصلت أخيرا الى انتخاب برلمانها الاوروبي المشترك بالاقتراع المباشر ، أي ان أوروبا الامبريالية دخلت مرحلة وحدتها السياسية التي تعتبر تتويجا لوحدتها الاقتصادية التي استغرق انجازها عقودا طويلة من الزمن .

ان حاجة رأس المال الى السوق القومية الموحدة الواسعة هو الذي دفع ممثليه الى تدمير الاطار الاقطاعي الاقتصادي الضيق الذي لم يعد يلبي متطلبات التوسع والتقدم الرأسماليين وحاجة الرأسماليين الى سوق واسعة حرة . وهذا العامل هو الذي لعب ويلعب الدور نفسه في تجاوز الحدود الوطنية وخلق السوق العالمية الرحبة ، وبين تنازع هاتين القوتين ، وطنية رأس المال الكلاسيكية ونزوعه نحو العالمية ، تتحرك وتتطور الامبريالية الدولية والرأسمالية العالمية اجمالا . وتلعب العوامل السياسية دورا يفوق الحدود المرسومة لها في هذا الصراع بين السعي للمحافظة على الصيغة الوطنية لرأس المال ، وبين النزوع لتفجير الصيغة الوطنية والانفتاح على سوق عالمية حرة موحدة « ويتبع هذا من كون التكامل هو عملية اقتصادية وعملية سياسية في آن واحد (٢٩) » .

ان لكل من القوتين المتنابذتين من يمثلها على الصعيد الاقتصادي والسياسي ، فرأس المال الاحتكاري الوطني الخاص والحكومي والذي له نشاطات في الخارج ، يفضل ممثلوه السياسيون ، واجمالا الحكومة الوطنية بمعظمها تقريبا ، المحافظة على الشكل السياسي الوطني للحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ويعبرون عن اتجاههم هذا بموقف ايديولوجي سياسي معاد للوحدة السياسية اللاوطنية لمجموعة دول امبريالية متكتلة . اما رأس المال الاحتكاري الخاص والحكومي المندمج أو المشارك أو المتحد مع رأس مالات خاصة وحكومية دولية .. عالمية ، فينزع الى توطيد وترسيخ اتجاه تجاوز السوق القومية والسياسية الوطنية ، ويجد من مصلحته تفجير الاطار السياسي والاقتصادي الوطني ، الذي يضيق عن تلبية متطلبات التطور الرأسمالي العالمي اقتصاديا وسياسيا وايديولوجيا،

---

(٢٨) : المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٠ – ١٦١

(٢٩) : المصدر السابق نفسه ، ص ٥٨٠

وهذا الاتجاه هو الذي تميل كفته في الميزان الى الرجحان ، ذلك لانه يحقق قفزة جديدة في مجال مجاراة تطور القوى المنتجة العاصف ، والتطابق النسبي معها ، واطالة عمر النظام الرأسمالي ككل ، من خلال هذه المحاولة للتلاؤم مع الظروف الجديدة المحيطة بالنظام الامبريالي .

ان الوحدات الاقتصادية اللاوطنية المنتشرة بين الدول الامبريالية ، كالاحتكارات الدولية والشركات المتعددة الجنسية هي التي تضغط باتجاه « توحيد الاسواق الوطنية في سوق واحدة ، وعن ذوبان المناطق الاقتصادية الوطنية في منطقة واحدة أكبر (وأوسع) بالدرجة الاولى من اجل الصراع ضد المنافسين الامبرياليين خارج التكتلات الامبريالية الدولية المعنية » (٣٠) ، وبمناسبة هذه الفكرة لابد من ذكر قول لينين المأثور : « هناك اتجاهان احدهما يجعل التحالف بين جميع الامبرياليين أمراً لامحالة فيه ، اما الاخر فيفسح الامبريالي الواحد ضد الاخر (٣١) » لقد تجاوزت البلدان المتأخرة تأخرها ، ضمن حدود معينة ، سواء عن طريق السير بالتطور الرأسمالي أو اللارأسمالي ، فالهند التي كانت متأخرة بالامس ، فجرت القنبلة الذرية ، ومضت في سبيل بناء صناعة ثقيلة ميكانيكية متطورة وطنية(٣٢) .

ان الوضع قد تغير جذريا في الوقت الراهن ، حيث نضجت الرأسمالية في كثير من البلدان المتأخرة ، وخرج بعض هذه البلدان من مجال التطور الرأسمالي الى مجال التطور الاشتراكي . ولم تعد هذه البلدان المتأخرة مجالا مطلقا لتصدير رأس المال اليها ، يقول لينين بهذا الصدد : « ان مايُنشيء امكانية تصدير رأس المال هو وجود جملة من البلدان المتأخرة قد انجذبت الى تيار الرأسمالية العالمية وتنشأ ضرورة تصدير الرأسمالية عن واقع ان الرأسمالية قد « نضجت جدا » في عدد ضئيل من البلدان » . ان هذه الحالة التي يضعها لينين ، قدتغيرت جذريا ، حيث نضجت الرأسمالية كثيرا في معظم بلدان العالم المتأخرة والمتقدمة ، ومع تغير هذه الظروف تتعدل وتتغير أشكال وصيغ تطور النظام الامبريالي الدولي ، لقد دفعت الظروف الجديدة الى اتجاه تصدير القسم الاعظم من راس المال نحو الدول الامبريالية ذاتها بين بعضها البعض (٣٣) .

---

(٣٠) : كتاب الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة ، الجزء الرابع ، ص ١٦٥

(٣١) : المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٣

(٣٢) : الجغرافيا الاقتصادية لبلاد العالم ، سبيرتشينكو ، ص ٢٢٠ وما بعد

(٣٣) : الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة ، الجزء الرابع ، الفصل الخامس .

« ان التكامل بين الاحتكارات يقود ، عند مستوى معين من التطور ، الى تكامل بين الدول والى اقامة الاتحادات والتكتلات الاقتصادية الاقليمية ، التي تشكل تكتلات عالية بين دول احتكارية ، ويشكل الاتجاه نحو الوحدة الاقتصادية بين الدول الامبريالية ، اهم سمات تطور الراسمالية بعد الحرب العالمية الاخيرة . ويعكس التكامل الامبريالي عملية تدويل الحياة الاقتصادية والرأسمال والعلم والتكنولوجيا ... وتتمثل أشكال ظهورها في مختلف التكتلات الاقتصادية بين الدول الامبريالية ، كالسوق الاوروبية المشتركة ، والسوق الاوروبية للفحم والصلب ، ولجنة الطاقة الذرية الاوروبية ، ومنطقة التجارة الحرة الاوروبية وغيرها ..(٣٤) » .

ان هذا الاتجاه قد فرضته ظروف التطور العالمي الجديدة من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، فالنظام الامبريالي خسر كليا مجموع بلدان النظام الاشتراكي ، التي خرجت كليا من مجال التطور الرأسمالي ومقتضياته المختلفة ، كما خسرت الامبريالية دول العالم المستعمر من قبلها سابقا ، حيث تحررت المستعمرات سياسيا وظفر معظمها بالاستقلال الاقتصادي ، وتوصل اكثرها الى التخلص من العزلة والتاخر الاقتصادي ومضى شوطا بعيدا في طريق التطور الرأسمالي (تركيا ، الهند ، اندونيسيا ، البرازيل .. الخ) . وان الامبريالية التي خسرت كل هذه المجالات الحيوية لتوظيف رؤوس أموالها ، لم يعد بامكانها الحصول عليها بالاساليب العسكرية والاستعمارية التقليدية ، فبدأت بحل هذه المسالة باسلوب جديد مثل ايجاد أسواق اقليمية عاملة للبلدان المتطورة ، ودمج الاقتصادات الوطنية للعديد من البلدان الامبريالية في اتحادات اقتصادية شاملة ، ثم الربط التدريجي للبلدان النامية بالبلدان الرأسمالية (٣٥) عن طريق ربطها بتكتلاتها المتعددة . واذا كانت التكتلات قد اصبحت في عصرنا امرا واقعا ، فماذا بصدد هذه التكتلات ؟ والى أين تمضي اتجاهات التطور الامبريالي والراسمالي ؟

ان هناك حقيقة لاتزال تفعل فعلها وسوف تبقى على المدى المنظور تفعل فعلها كقانون اقتصادي اجتماعي سياسي سواء داخل المجتمعات الوطنية ام داخل التكتلات المتعددة القوميات أم بين التكتلات المختلفة في العالم الرأسمالي ، هذه الحقيقة كان قد أبرزها قول لينين المأثور الذي سبق ذكره ، كما يمكن استنتاجها من الوقائع الحسية الملموسة .

(٣٤) : المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٤ — ١٦٤
(٣٥) : نفس المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٩

هذا القانون يجسد ديالكتيك وحدة وصراع الأضداد داخل المجموع الرأسمالي عامة ، وهو صراع التحالف والتنافس . الاحتكار والمزاحمة ، « هناك اتجاهان أحدهما يجعل التحالف بين جميع الامبرياليين امرا لا محالة فيه ، أما الاخر فيضع الامبريالي الواحد ضد الاخر » هكذا عبر لينين عن هذا القانون الديالكتيكي الذي كان ولا يزال أحد القوانين الرئيسية الموجهة لسير التطور الرأسمالي الامبريالي العالمي .

« ان عملية التكامل بين الاحتكارات تشمل جميع البلدان الامبريالية تقريبا ، اما عملية التكامل الاقتصادي بين الدول فانها تنمو فقط ، في بعض المناطق الرأسمالية ، وتضم من حيث تركيبها مجموعات الدول المتقاربة نسبيا (٣٦) » واذا كانت عمليات التكامل بين الاحتكارات تمضي سريعا ، بينما تحبو عملية التكامل بين الدول ، فاننا لا نستطيع ان نستنتج من ذلك استحالة تحقيق التكامل الاقتصادي وحتى السياسي بين الدول الامبريالية ، ذلك لان العملية السياسية غالبا ماتكون لاحقة للعملية الاقتصادية ، بل ان المبدأ العام للتطور التاريخي هو كذلك . ان السياسة الامبريالية الراهنة ما تزال تسعى الى اللحاق بالعملية التاريخية الاجتماعية للتطورات الاقتصادية الامبريالية العالمية ، ولا تزال السياسة الامبريالية تفشل في مواكبة التطورات المادية الاجتماعية سياسيا ، وهي وان مضت قدما في هذا السبيل ، فانها لم تحقق بعد ماينبغي عليها تحقيقه ، وبالسرعة نفسها . ان سير عملية تطور التكامل الامبريالي الاقتصادي السريعة تفرض على الامبريالية بالقوة سلوك سياسة التكامل الاجتماعي والسياسي ، ذلك لان قوانين المادية التاريخية تفعل فعلها في هذه المرحلة من تطور الامبريالية ، كما فعلت فيما مضى وكما تفعل دوما ، وليس من سبيل الى التهرب من تأثير قانون تطابق البنية الفوقية مع البنية التحتية « ان الاتجاه نحو توحيد الاقتصادات الوطنية لعدة بلدان (امبريالية داخلة) في تكتلات اقتصادية ، تشكل مرحلة عليا من تمركز الانتاج (وهذا ما يعبر عن تغيرات عميقة في مستوى تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، أي البنية التحتية) ، لا بد وان تقود بالضرورة الى تغيرات تناسبها في الفوقية السياسية ، كي تصبح مناسبة (ملبية ومتطابقة ومنسجمة) لمتطلبات تطور القوى المنتجة (٣٧) » .

ان عملية التكامل الاقتصادي بين الدول الامبريالية تعود بالدرجة الاولى الى التغيرات الكيفية العميقة والاساسية في درجة تطور القوى المنتجة بالارتباط مع تقدم الثورة العلمية

---

(٣٦) : نفس المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٤

(٣٧) : الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة ، ص ١٦١

.التقنية العاصف ، وتقليص حصة الدول الامبريالية في نسبة العمل الدولي ، وتصدع النظام الاستعماري الكلاسيكي ، وقيام المجموعة الاشتراكية الدولية العالمية ، مما جعل من الضرورة بمكان خلق بديل للواقع المنهار ، وهذا البديل هو « قيام مناطق اقتصادية واسعة ، واسواق اقليمية مشتركة » واذا كانت عملية التكامل هذه تعود الى أسباب اقتصادية ، فقد ساهمت في تطور هذا التكامل عوامل سياسية أيضا ، مثل سعيها الإحتكارات والحكومات البرجوازية نحو توحيد الجهود من أجل الصراع ضد النظام الاشتراكي العالمي ، والحركة العمالية والديمقراطية داخل بلدانها ، وحركة التحرر الوطني في مستعمراتها السابقة (٣٨) ويشكل مجموع هذه العوامل الاقتصادية والسياسية المحتوى الاساسي لعملية التكامل السياسية بين الدول الامبريالية ذاتها خاصة والعالم الراسمالي عامة ، والى تغير في مجمل البنية الفوقية السياسية للدول الامبريالية عامة ، وبهذا المعنى يقول لينين : « ان عهد الرأسمالية الحديثة يبين لنا أن ثمة علاقاتتكون بين اتحادات الراسماليين على صعيد اقتسام العالم اقتصاديا ، وان ثمة علاقاتتكون بمحاذاة تلك ، وتبعا لذلك بين الاتحادات السياسية بين الدول على صعيد اقتسام بقاع العالم ، على صعيد « الصراع من أجل الرقاع اقتصادية (٣٩) » .

ان قيام التكتلات العالمية بين الدول الاحتكارية يفضي ، وسيظل يفضي الى نشوء بناء فوقي سياسي يناسبها ويتطابق مع الواقع الاجتماعي الجديد الذي وصلته في تطورها ، اما كيف يجري ذلك الآن ؟ وكيف سيجري في المستقبل ؟ فهذا ما تقرره مسارات التطور الواقعية التي تعتبر مؤشرا جديدا على هوية المستقبل الاقتصادي والسياسي للنظام الامبريالي‌العالمي.

لقد كان نشوء الاحتكارات عن تمركز الانتاج هو القانون العام والاساسي في تطور الرأسمالية نحو الامبريالية(٤٠) اما وقد تجاوزت هذه الاحتكارات مرحلة النشوء .. بل مرحلة النضوج والشباب وشق طريقه في كل مكان وبكافة الوسائل (٤١) فما هو القانون العام الاساسي لحركة تطور الراسمالية الاحتكارية الراهنة ؟

اننا نعيش مرحلة اندماج الاحتكارات الخاصة والوطنية بالاحتكارات العالمية ، وبات وجود احتكارات عالمية متحدة ومتعددة الجنسيات سواء الخاصة منها او الحكومية امرا لا خلاف

---

(٣٨) : المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٣

(٣٩) : الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ، ص ١١٥

(٤٠) : المصدر السابق نفسه ، ص ٢٣ .

(٤١) المصدر السابق نفسه ، ص ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٥ .

حوله ، وقد اصبحت هذه الاحتكارات العالمية على درجة من القوة الاقتصادية والسياسية بحيث انها تستطيع ان تقرر مصير العالم الامبريالي اقتصاديا وسياسيا . لقد حلت التكتلات الاحتكارية العالمية محل الاحتكارات الوطنية نسبيا ، واصبح التكامل الامبريالي الاقتصادي والسياسي هو العامل المسيطر في الافق الرأسمالي الامبريالي . ان اتجاهات تطور الاقتصاد الامبريالي تشير الى تعميق التقارب والتجانس الكيفي في بنيتها التحتية ، خصوصا بلدان اوروبا الامبريالية الغربية التي كانت هي البادئة بتحقيق التكامل فيما بينها ، لان التناقض فيها بين متطلبات تطور القوى المنتجة الرأسمالية وبين الاطار الضيق للاسواق الوطنية لعدة بلدان صغيرة نسبيا (اذا ما قيست بالولايات المتحدة الامريكية) ومتطور جدا من الناحية الاقتصادية و (التكنولوجية) هو تناقض حاد ، هذا اولا ، وأما ثانيا فان ذلك يعود الى شروط التطور السياسية العامة للرأسمالية الاحتكارية في هذه البلدان. ان قيام وتقوية منظومة البلدان الاشتراكية في أوروبا الشرقية (المتاخمة لاوروبا الغربية الامبريالية والتي تهددها وتشكل خطرا مباشرا على نظامها) ونضج وتماسك الحركة العمالية والديمقراطية في البدان الاوروبية الغربية الامبريالية ، الخسارة المحققة والمتعاظمة التي تكبدتها من جراء انهيار امبراطوريتها الاستعمارية ، وسعيها للتخلص من وصاية المنافس الامريكي (العملاق) ... كل ذلك شدد النزوع والاتجاه نحو تلاقي الدول الامبريالية في هذا الجزء من العالم . ان نسبة التداخل العالمي بين الرساميل لا تكفي وحدها لخلق التكتل والتكامل الامبرياليين ، وما يؤكد هذه الحقيقة هي ان التداخل بين رأس المال الامريكي وراس المال الكندي ، وكذلك تداخل راس المال الامريكي مع الاوروبي الغربي أكثر نشاطا وأكبر حجما من تداخل رساميل البلدان الاوروبية الغربية ، ومع ذلك فقد قامت تكتلات في اوروبا الغربية ، بينما فشلت محاولات الامبريالية الامريكية لتحقيق التكامل مع راس المال الاوروبي الغربي في سوق اقتصادية أطلسية ، وهذا ما يثبت ان التكامل والتكتلات بين الدول الاحتكارية ، انما تقوم بالدرجة الاولى في تلك المناطق من العالم الرأسمالي التي يكون حافزها نحو التكامل الامبريالي من حيث شروط التطور الاقتصادية والسياسية للبلدان الموجودة في هذه المناطق أكبر من غيرها . وهذا ما نجده متوفرا لدى دول أوروبا الغربية ، اما بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية ، فان حافزها على التكامل اضعف ، وذلك في ضوء كون الولايات المتحدة تهيمن على منطقة اقتصادية ضخمة ، وعلى سوق داخلية واسعة ، يضاف الى ذلك تفوقها الاقتصادي والعسكري والسياسي الكبير والحاسم ، مقابل البلدان الرأسمالية الاخرى ، التي اصطدمت فيها محاولات اقامة تكتلات تكامل بزعامة الولايات المتحدة بالرفض(٤٢) .

(٤٢) الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة ، ص ١٦٥ ــ ١٦٦ من الجزء الرابع .

ان ما يميز هذا العصر .. عصر التكتلات والتكامل الامبريالي هو تغلب الطابع الدولي لراس المال الاحتكاري على طابعه الوطني(٤٣) ، مما يشير الى أن حسم هذا الصراع أصبح وسيظل لصالح الدولة الاحتكارية العالمية التي قد تتحقق وقد ينهار النظام الرأسمالي كله قبل أن يتحقق .

اننا الآن أمام عصر من تكتل وتكامل مجموعات اقليمية من الدول الامبريالية ، فما هو القانون المحرك الاساسي لتطورها في المرحلة الراهنة والمقبلة ؟

على الرغم من وصول تطور الاحتكارات نحو انعطاف جديد ، نحو قيام تكتلات احتكارية عالمية ، فان تاثير قوانين التطور الرأسمالية الاساسية لاتزال تفعل فعلها في مجمل النظام الامبريالي العالمي الراهن ، فقانون تمركز الانتاج لايزال هو القانون الاساسي الذي تتحرك حوله الكيفية الجديدة ، انه القانون الذي يفعل فعله أكثر من أي وقت مضى ، ويتضخم تاثيره على ضوء الثورة التقنية ، حيث وصل الاقتصاد الامبريالي الى درجة التنظيم والتخطيط الحكومي ، وعمق الطابق الاجتماعي للعمل ، ووحد الرساميل الفردية في راسمال اجتماعي منظم ومشترك بين مجموع الطبقة الرأسمالية . ان الطابع الاجتماعي للرأسمال لم يكن ليتحقق لولا تاثير قانون تمركز الانتاج الذي يفضي الى اندثار العمل الرأسمالي الفردي وحلول العمل الرأسمالي الجماعي مكانه . بل يمكن الجزم بان قانون تمركز الانتاج هو الذي خلق عالمية أو دولية رأس المال الاحتكاري ، فاصبحت الاحتكارات الوطنية صيغة متخلفة ، لا تستطيع أن تجاري متطلبات السوق الرأسمالية ، فبدات تحل محلها الاحتكارات الدولية التي تتمتع بقوة أكبر وبانتاجية عمل ارقى وبنفوذ مالي وصناعي أوسع . ان أهمية رأس المال والرأسماليين باتت حقيقة ساطعة في هذا الوقت ، ولكن هذه الاهمية لاتزال تنطوي على عناصر كابحة ورجعية وتتمثل هذه العناصر بممثلي الكيفية الامبريالية السابقة للاقتصاديين والسياسيين الذين يحاولون عرقلة اتجاهات التكامل الامبريالي الجديدة . ان قانون تمركز الانتاج الرأسمالي لا يكف عن التاثير في اسلوب الانتاج الرأسمالي في مراحله كافة ، وسيفضي دوما الى مزيد من جمعنة الانتاج باستمرار حتى تتحول الرأسمالية الى وحدة اقتصادية سياسية عالمية ، أو يتصدع وينهار النظام الرأسمالي العالمي نهائيا ويحل محله النظام الاشتراكي في جميع الدول الامبريالية ، ويقول ماركس بهذا المعنى : « وتصل جمعنة العمل ومركزة نوابضه المادية الى نقطة لا تعودان ،

---

(٤٣) الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، ... الخ ، ص ٢٠ وما بعد .

معها ، تستطيعان البقاء في غلافها الرأسمالي . فيتحطم هذا الغلاف الى شظايا (٤٤) »
فمهما كانت الدرجة التي ستصلها الرأسمالية من حيث جمعنة تدويل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فان ذلك لا ولن يعني سوى اقترابها من النهاية وانهيارها كغلاف يضيق عن مستوى تطور القوى المنتجة ، الذي يتسارع ويتعاظم نموه بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، بفضل الثورة العلمية التقنية وبفضل مجموع عوامل التطور العالمي .

والى جانب قانون تمركز الانتاج فهناك قانون آخر لايزال وسيظل في المستقبل المرئي يفعل فعله بضغط وطاقة هائلتين ، هـذا القانون هو التنافس والمزاحمة بين تكتلات اقتصادية سياسية امبريالية عملاقة ، و « كما هو الحال في السوق الوطنية ، حيث يوجد الاحتكار الى جانب المنافسة الحرة ، وحيث تقوم الدولة بالتدخل في علاقات السوق ، تنشأ علاقات التبادل في السوق العالمية الرأسمالية (على نفس الاسس) وتحت تأثير عدة قوى مختلفة أيضا : التنافس .. الاتفاقات بين الاحتكارات (الوطنية والدولية) .. التدخل الحكومي والوطني والدولي بأشكال عدة (٤٥) » . ان قانون المزاحمة والتنافس يصبح أشد خطراً وتأثيراً في عصر الامبريالية ، ذلك لانه يدفع بقوى عملاقة الى التصادم ، هذه القوى هي الاحتكارات الدولية والتكتلات المالية التي حلت محل الرأسماليين الافراد والاحتكارات الخاصة والوطنية . واذا كان قانون تمركز الانتاج هو العامل الرئيسي في خلق التكتلات الاقتصادية والسياسية والدولية ، فان قانون المزاحمة والتنافس هو العامل الرئيسي في الصراع بين التكتلات المالية من جهة ، وفي داخل هذه التكتلات الدولية ذاتها من جهة اخرى ، « وتصبح المعركة بين أخوة أعداء (٤٦) » ، ولن يبطل تأثير هذا القانون الا اذا وصلت الرأسمالية الى مرحلة تتحول فيها الى احتكار عالمي واحد أو الى وحدة اقتصاديةسياسية كاملة ، وهذا امر مشكوك فيه طالما أن احتمال زوال الرأسمالية قائم في أي لحظة .

لقد تغلب رأس المال الجماعي الوطني على رأس المال الفردي الوطني من قبل ، وها هو الآن رأس المال الجماعي الدولي بدوره يتغلب على رأس المال الجماعي الوطني ، فرأس المال الجماعي الوطني يشكل نفيا لرأس المال الوطني الفردي ، حيث يسيطر النظام الجديد الامبريالي الاحتكاري نهائيا على الحياة الاقتصادية ، وانتصار رأس المال الاحتكاري

(٤٤) رأس المال ، ماركس ، الكتاب الاول ، الجزء الاول ، ص ٣١٩ .
(٤٥) : الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة ، الجزء الرابع ، ص ١٧٣ .
(٤٦) رأس المال ، ماركس ، الكتاب الثالث ، الجزء الاول ، ص ٣٧٨ .

الدولي على رأس المال الجماعي الوطني يشكل نفياً ثانياً ودرجة من التطور أرقى وأعلى وأكثر قوة وتعقيداً ، انه قانون نفي النفي الديالكتيكي الذي يجد تعبيره المادي والتاريخي داخل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجارية في الواقع الاجتماعي النظام الرأسمالي العالمي . ان الغلاف السياسي الذي كان يتطابق وينسجم ويلبي حاجة المراحل الرأسمالية الماضية ، أصبح الآن عتيقاً بالياً ضيقاً لا يمكنه استيعاب تطور القوى المنتجة والعلم والتكنولوجيا العاصف ، وكما ان نشوء وتطور المرحلة الامبريالية حتى الحرب العالمية الثانية قد تطلب أشكالاً أو غلافات ملائمة جذرياً عن تلك التي سادت في مرحلة رأسمالية ما قبل الاحتكارات (التي يفضل البعض تسميتها برأسمالية المزاحمة الحرة) و (الافضل تسميتها برأسمالية ما قبل الاحتكارات أو برأسمالية المزاحمة الفردية الحرة) ، والحال في العصر الراهن يتطلب كذلك غلافاً سياسياً ملائماً ومختلفاً عن مرحلة ما قبل الحرب الكونية الاخيرة ، وان مؤشرات تفجر هذا الغلاف الكلاسيكي بدأت تلوح في الافق ، كما بدأت تلوح فيه علائم مرحلة اقتصادية وسياسية مختلفة تماماً ، ويمكن اعتبار انتخاب برلمان أوروبي غربي مشترك بالاقتراع العام بداية حاسمة وأكيدة لها . ان الوحدة السياسية لبلدان السوق الاوروبية المشتركة ما هي سوى علامة مميزة للتغيرات الثورية العميقة الجارية داخل النظام الامبريالي ككل ، ونقطة تحول كيفية واضحة في طبيعة التطورات الرأسمالية العالمية ، لابد وان تلقي بتأثيرها في مجمل عمليات التطور العالمية داخل أسرة الدول الاشتراكية وداخل تطور بلدان العالم الثالث ، وفي الوقت نفسه فان التأثيرات المعاكسة لدول النظام الاشتراكي وبلدان العالم الثالث سيكون لها شأن كبير في تحديد بعض سمات التطور الرأسمالي لدول النظام الاشتراكي العالمي .

ان الوحدة السياسية لاوروبا الغربية في رأسماليتها ، سوف تدفع بها ثانية الى مقدمة النظام الامبريالي العالمي ، وسوف توفر لها الاساس الامتن لتجاوز تقهقرها الذي وضعها في الصف الثاني داخل القوى العالمية الامبريالية ، وسوف تتغلب على جميع ظروف ضعفها وعجزها عن تلبية حاجات التطور الملحة الراهنة . لقد أشار لينين الى هذه الوحدة قائلاً: « ... كانت الولايات المتحدة أمراً ممكناً أيضاً ، .... ، قصد العمل معاً على خنق الاشتراكية في أوروبا ، على الدفاع معاً عن المستعمرات ، المتملكة نهباً ، ضد اليابان وأميركا » ويقول في موضع آخر : « وعلى الاساس الاسرع » و « ان الولايات المتحدة ستكون في ظل الرأسمالية ، ضرباً من اتفاق لتقاسم المستعمرات (٤٧) » ومهما تكن أهداف التحالف الاقتصادي والسياسي لدول أوروبا الغربية الامبريالية، فانها تعتبر قبل كل شيء شكلاً جديداً من أشكال تطور الامبريالية في مرحلة سيطرة الاحتكارات الدولية اللاوطنية ، وخطوة واسعة في اتجاه تدويل .. لا الحياة الاقتصادية الرأسمالية العالمية فحسب ،

(٤٧) مختارات لينين ، الجزء السادس ، ص ٢١ – ٢٢ – ٢٣ .

بل والحياة السياسية أيضا . وهي مرحلة تعترض حتما تدخل الحكومات وتعاونها والتنسيق فيما بينها لتنظيم هذه العملية المعقدة في تاريخ النظام الراسمالي .

ان وحدة أوروبا الغربية يعني تقدمها الراسمالي الامبريالي ، ويعني زيادة قدرتها على منافسة الخصوم الامبرياليين كاليابان والولايات المتحدة الامريكية ، وليس ما يبرر ثقتنا في استمرار تفوق الولايات المتحدة الامريكية الامبريالية اقتصاديا وعسكريا وسياسيا على المستوى العالمي ، وما من ضمان لاستمرار هذا التفوق اذا استمرت اتجاهات الوحدة الاوروبية في التقدم والنجاح واحراز الهدف ، ذلك لان الوحدة الاوروبية تعني نشوء عملاق امبريالي لا يقل قوة وتاثيرا عن الولايات المتحدة الامريكية ، وبالتالي فان زعامة الاخيرة على العالم الامبريالي ووصايتها عليه سوف تكون عرضة للسقوط والتزعزع .. انها سوف تكون مهددة باستبدالها بزعامة جديدة تمارسها أوروبا الغربية على العالم الامبريالي . ان مثل هذه التصورات محتملة ، ولكنها ليست أكيدة ، طالما أن ثمة تطورا كالذي يحدث في أوروبا الغربية ، ربما يحدث في مناطق اخرى من العالم الامبريالي، أو ربما أخيرا سترضخ الولايات المتحدة الامريكية وتقبل بالدخول في حلبة التكامل الاقتصادي امبريالي دون المطالبة بزعامة هذا التكامل أو التكتل الامبريالي ، فتتكون بذلك السوق الاطلسية بين أوروبا الامبريالية والولايات المتحدة التي تحلم بذلك شرط قبول زعامتها ! ان هذه التوقعات كلها لها أكثر من اساس ومبرر واقعي موضوعي ، ولكن ذلك كله لا ينفي التناقضات التي تنخر في العالم الامبريالي كله ، تماما كما لا تعني وحدة المجتمع الامبريالي داخل الدولة الواحدة نفي التناقضات المستعصية التي تتآكله من الداخل ، ان التكامل الامبريالي ووحدة العالم الامبريالي لن يعني في نهاية المطاف سوى وحدة الرجعية العالمية التي تهدف الى تقويض عمليات التقدم والتطور الاشتراكي الجاري داخل منظومة الدول الاشتراكية التي تشكل أكثر من ثلث البشرية ، والى اعادة واحكام السيطرة الاستعمارية الجديدة عن بلدان المستعمرات السابقة المسماة ببلدان العالمالثالث، واعادتها الى حظيرة الرأسمالية العالمية ، واستخدامها كمجال حيوي احتياطي للنظام الرأسمالي العالمي ، وكحزام امان احتياطي ضد الحركة الاشتراكية الدولية المتنامية حتى داخل بلدان العالم الثالث ذاتها . ان محاربة النظام الاشتراكي العالمي والتضييق عليه ، والسيطرة على حركة التحرر الوطني المتعاظمة النفوذ ، وتطويق الحركةالديمقراطية والعمالية التقدمية في الدول الامبريالية ذاتها ، هذه الاهداف تشكل مجتمعة دافعا رئيسيا ، لا يقل عن العوامل الاقتصادية الذاتية ، من حيث تاثيره ، في دفع الدول الامبريالية نحو التكامل والوحدة وانشاء التكتلات العالمية والدولة العالمية الامبريالية فوق الوطنية .

وتتضح أكثر فاكثر اليوم معالم التمايز الطبقي الدولي ، وانقسام العالم كله الى تحالف رأسمالي عالمي مقابل تحالف اشتراكي عالمي ، وتختفي الى غير رجعة سمات وخصائص نظم ما قبل الراسمالية ، ليحل مكانها احد اسلوبي الانتاج الرئيسيين العالميين ، احد النظامين الدوليين الرئيسيين: الراسمالية أو الاشتراكية ، هذان النظامان هما آخر ما يمكن لجميع دول العالم الوصول اليه من حيث درجة التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، ومن حيث شكل هذا التطور المعني . ولكن ايضا لا يمكن في نهاية المال أن يتعايش هـذان النظامان الى ما لا نهاية له ، ولا بد للنظام الراسمالي القائم على التناقضات والتناحرات الطبقية الذاتية التي لا حل لهـا الا بالنظام الاشتراكي ، لابد لهـذا النظام الراسمالي من أن يخلي الساحة نهائيا للنظام الاحدث والارقى والاكثر انسجاما مع متطلبات التطور الانساني الشامل الحالية والمقبلة ، لانه النظام الذي يلبي مقتضيات العقل والمنطق والعدالة والمساواة والنشاط الانساني ويحقق الوحدة والتجانس والانسجام ليس داخل المجتمع الواحد فحسب ، بل بين عناصر الاسرة الدولية الشاملة .

وان تطور هذا التمايز الطبقي العالمي والصراع الرئيسي الدولي الجاري بين النظامين العالميين : الاشتراكي والراسمالي لن يصل الى حد تكون الدولة الرأسمالية العالميـة الواحدة مقابل الدولة الاشتراكية العالمية الواحدة ، لان هذه الدرجة البعيدة من التطور لم تعد ممكنة مع تواجد المنظومة الاشتراكية ، وتعاظم وزن بلدان حركة التحرر الوطني ، كما لا يمكن تحقيقها لسبب آخر يتعلق بالعوامل الذاتية للنظام الامبريالي ، هذه العوامل التي ستجعل وصول الامبريالية الى الوحدة العالمية ، مستحيلا ، لانها تكون قد ادت عند اقتراب الامبريالية من هذه الدرجة الى انقلاب كيفي جديد يستبدل من خلاله النظام الامبريالي بالنظام الاشتراكي الذي يصبح أمرا لا مفر منه .

ان تطور نفوذ وقوة بلدان العالم الثالث ، وتعاظم واتساع تطور المنظومة الاشتراكية العالمية ، وتصاعد الضغط الداخلي الذي تمارسه القوى الديمقراطية داخل الدول الامبريالية ، كل تلك العوامل المتغيرة كما وكيفا ستجعل من استمرار النظام الامبريالي مسالة نسبية ومحدودة ومؤقتة « ان تنمية القوى الانتاجية للعمل الاجتماعي هي مهمة راس المال التاريخية وتبريره ، ومن أجل ذلك يخلق ، على وجه الدقة ، ودون معرفة منه ، الشروط المادية لنمط انتاجي أعلى »(٤٨) . ان قانون عدم تطابق البنية التحتيـة

(٤٨) رأس المال ، ماركس ، الكتاب الثالث ، الجزء الاول ، ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

والبنية الفوقية سوف يظل السلاح الذي لا تستطيع الامبريالية ان تدير له ظهرها ، كما لا يستطيع أي نظام اشتراكي أو غير اشتراكي أن يغفل حياله ذلك ، وطالما أن في النظام الامبريالي عدم تطابق بين البنيتين الفوقية والتحتية ، فان هذا النظام سيظل معرضا لخطر الانهيار الكامل والزوال حتى يصل نزوع القانون الى هدفه الذي يتلخص بتحقيق التطابق بين البنيتين الفوقية والتحتية ، وهذا ما لن يحدث بشكل نهائي الا باحلال النظام الاشتراكي كعلاج وحيد وبديل حتمي للنظام الرأسمالي العالمي . وهذا القانون هو دليل قطعي على عدم تمكن الامبريالية من الاستمرار الى ما لا نهاية ، أو من الاستمرار حتى تحقيق الدولة الرأسمالية العالمية التي حلم بها كاوتسكي من قبل ، ولئن كانت الامبريالية تستطيع في بعض الاحيان تجاوز حدودها المتضمنة فيها فانها لا تتوصل الى ذلك الا باستخدامها وسائل تقيم امامها من جديد وعلى نطاق أضخم ، الحواجز نفسها[٤٩]، وهذا يفيد ان الامبريالية ستظل تدور في حلقتها المفرغة ، وتتخبط في اطار تناقضاتها ، وتجاوزاتها الجزئية لازمتها العامة لن تفيض الا الى خلق أزمة أعم وأعمق وأكثر خطورة . وبالتالي فان نهاية النظام الرأسمالي العالمي سوف تكون اقرب بكثير من حلول الدولة الرأسمالية العالمية الواحدة التي كانت محتملة التحقق لولا ولادة ونضوج النظام الاشتراكي العالمي ، ودخول حركات التحرر الوطني الى حلبة الحياة الدولية .

وفي العقود القليلة القادمة سوف تتضح اكثر فاكثر معالم مستقبل التطور الرأسمالي الموشك على الانهيار ، وسوف تتضح أيضا أكثر فأكثر معالم الانتصار الحتمي الحاسم للنظام الاشتراكي بمختلف صوره واشكاله ، والذي سيحل محله نهائيا والى غير رجعة في جميع أنحاء العالم .

---

(٤٩) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨٢ .

بعض المشكلات العملية للبحث في الادب العربي الحديث

د . حسام الخطيب

مـدخل :

كثيرة هي المشكلات المنهجية النظرية والعملية التي تعترض طريق الباحث في الادب العربي الحديث(١) . وقليلون هم أولئك الذين يشعرون على ساحة وعيهم بأهمية هذه المشكلات ، ولذلك ترى طلاب الدراسات العليا والمؤلفين من ناشئين وغيرهم يستسهلون الخوض في مسائل الادب العربي الحديث ويقبلون عليه باعتباره (أقل صعوبة) من البحث في الادب القديم ويؤسف المرء ان يعترف بان كثيرا مما يؤلف وينشر في البلاد العربية هو اشبه باكياس البطاطا في البلدان الزراعية المتخلفة ، اذ تكوم المادة المقطوفة او المقتلعة تكويما اعتباطيا غرضه ملء الاكياس مع الحد الادنى من النخل والتنسيق والتبويب وما اكثر الرسائل الجامعية وما اكثر الكتب المنشورة التي تعطي انطباعا بأن التحدي الاساسي الذي واجه مؤلفيها هو ملء الصفحات بالكلام — مهما كان هذا الكلام متفاوتا في سويته — ومن هنا نشأ لدى الطلاب الباحثين عندنا ذلك الاهتمام الغريب بعدد صفحات البحث حتى اصبحوا يتسابقون في زيادة عدد الصفحات أو زنة الرسالة الجامعية (٢) .

وبالطبع الى جانب ذلك هناك باحثون جادون ودقيقون ومنهجيون ، لايجوز انكار اسهامهم الرفيع في مجال البحث والتاليف ، ولكن الملاحظ

ان معظم هؤلاء يبدأون بداءات طيبة ولكنهم لا يستمرون أو يستمرون على قلة ربما لان تقدير الجهد البحثي مازال محدودا حتى الآن ، والتفريق بين بحث ذي طبيعة عامة وبحث نوعي دقيق قلما يحدث في غمرة التعميمات والمجازفات الكتابية التي تملأ حياتنا الثقافية وربما العلمية .

وهناك خطر في هذا المجال لابد من التنبيه اليه ، وهو ان المؤلفات الاجنبية المتعلقة بالبلاد العربية وأحوالها الاجتماعية وآدابها واقتصادها تلتزم اليوم منهجا علميا دقيقا وتعود بالتدريج مرجعا اساسيا لنا كما كانت في عصر النهضة واذا استمر الحال على هذا المنوال فسوف نصبح مستوردين للمعارف المتعلقة بمنطقتنا العربية ، ولا نستثني من ذلك الدراسات الادبية واللغوية .

والمشكلة اولا وآخرا هي مشكلة منهجية ، وهي ظاهرة في مجال الدراسات الادبية واللغوية كما هي ظاهرة في مجال الدراسات الانسانية الاخرى ، وتحتاج معالجتها الى دراسة وطول صبر وعناء ، على يد فريق من الباحثين او في مؤتمر عام .

ويتصور المقال الحالي مشكلات البحث في الادب العربي الحديث على ثلاثة مستويات :

١ ــ المشكلات العامة للبحث .

٢ ــ المشكلات المتعلقة بالوضع الثقافي العربي .

٣ ــ المشكلات النوعية لدراسة الادب العربي الحديث .

ويرجى أن ينظر الى الملاحظات التي يقدمها هذا المقال على انها مجرد تحريض واثارة لهذه القضية ذات الاهمية الفائقة .

١ ــ المشكلات العامة للبحث :

ان المقال الحالي يقدم ملاحظات نوعية حول المشكلات البحثية العملية المتعلقة بالادب العربي الحديث ، وبالطبع لابد من وضع هذه المشكلات

في اطارها العام وهو مسألة البحث العلمي وطرائقه وتسهيلاته في البلاد العربية اليوم . ومن الملاحظ ان البحث العلمي بالمعنى العام يعاني من المشكلات التقليدية للبحث مثل النقص في المصادر والمكتبات والفهارس والتسهيلات المكتبية والبحثية العامة ، كما يعاني من افتقار الباحثين الى الخبرة في تطبيق المناهج البحثية ، والى المقدرة على الاستفادة من المصادر على افتراض توفرها ، والى المقدرة على تصنيف الظواهر المشتركة وربطها ومقارنتها وتعليلها ، واخيراً – وليس آخرا في الاهمية – يعاني البحث العلمي العام من الضعف في الاداة اللغوية والشكل والطباعة .

وسنضرب صفحا عن البحث في هذه المسألة لانها ذات طبيعة عامة ، ويمكن ان تكون مجالا لبحث مستقل ، غير ان ذلك لايعفينا من الاعتراف بوجود ضعف عام في التاليف العربي داخل حرم الجامعة وخارجها ، ربما كان ناجما عن سببين اساسيين هما :

اولا : نقص وسائل البحث العلمي وتسهيلاته .
اي المشكلات المتعلقة بالاستعدادات الخارجية .

وثانيا : القصور في التمرس بأساليب البحث والغياب النسبي للاخلاقية العلمية وربما لتقديرها من الاخرين . اي المشكلات المتعلقة بالاعداد الداخلي للباحث .

٢ – المشكلات المتعلقة بالوضع الثقافي العربي :

اذا كانت أزمة البحث العلمي العام في بلادنا تشكل الاطار الاوسع لمشكلة البحث في الادب العربي الحديث فإن الوضع الثقافي العربي يشكل الاطار الخاص لهذه المشكلة ، ومن غير المنطقي البحث في الادب العربي الحديث بمعزل عن الوسط الثقافي الذي ينتجه وينشىء باحثيه . ومن هنا كان على المرء ان يولي هذه الناحية ماتستحقه من اهتمام وان يجعلها تمهيداً لبحث المشكلات النوعية . الا ان نظرة سريعة على جوانبها

المختلفة كفيلة بأن تقنع الباحث بالاقتصار على بعض النواحي التي يجدها اقرب اتصالا بالمشكلة النوعية لان هذه الجوانب شديدة التعدد والتداخل، وينبغي أن تتضافر على دراستها جهود كثيرة .

ويبدو للمرء أن الجوانب التالية هي الاقرب اتصالا بالمشكلة البحثية النوعية للادب العربي الحديث :

آ ـ المصطلحات .

ب ـ اللغة النوعية الخاصة .

ج ـ الاستعمال اللغوي بوجه عام .

ومن المعروف أن هذه المشكلات مطروقة في البلاد العربية ، وقد تولى دراستها مختصون كبار وهيئات علمية ووطنية وعربية ومؤسسات ثقافية وجامعات كثيرة . وما من شك في أننا نتقدم تقدما واضحا في معالجتها . ولذلك سيجري تناولها هنا فقط من ناحية علاقتها في الوضع الحالي من تطورها ـ بآلية البحث المنهجي في الادب .

آ ـ المصطلحات :

ان الباحث يحار امام مشكلة المصطلحات المتعلقة بالمذاهب والبدع والاتجاهات الادبية المحلية والاجنبية . ذلك انه على الرغم من وجود فتاوى ومقررات للمجامع اللغوية العربية بشأن كثير من هذه المصطلحات فان التقيد بالقرارات الرسمية أو المؤسسية مازال بعيد المنال . وفي القسم الجامعي الواحد وفي الدائرة الثقافية الواحدة ، وربما في المؤسسة الصحفية الواحدة ، نجد استعمالات متباينة للمصطلحات الادبية . والمشكلة أن هذا التباين لا يشمل مصطلحات جديدة مثل (الرواية الجديدة) او (تيار الوعي) أو (ادب الضياع) ، وانما يشمل مصطلحات قديمة كثيرة الورود . وفي راسها كلمة مثل (الابتداعية) ، اذ نجد للدلالة عليها كلمتين معربتين مثل (الابداعية والابتداعية) ومجددا خرج أحد الاساتذة في لبنان بمصطلح جديد هو (التفلّتية) .

والى جانب هذه المصطلحات المعربة التي لا اشك بوجود غيرها مما لم اطلع عليه او لا اذكره الآن ، هنـاك مصطلحات مقتبسة من الصياغـة الاجنبيـة نفسها مثـل : الرومنسيـة ، والرومنتيكية والرومنطيقية والرومانتية والرومنتية (٤) .

وحتى لو تبين الدارس احد هذه المصطلحات ــ وهناك بالمناسبة دارسون لا يستقرون على مصطلح واحد ــ فانه يجد نفسه مضطرا الى اقتباس نصوص تستعمل مصطلحا مختلفا وبالتالي لايراد هذا المصطلح كما هو وفاء للامانة العلمية .

وقد كان طبيعيا ان يقع الاختيار هنا على المصطلح الاكثر اثارة للخلاف، ومن الحق ان يعترف الانسـان ان مثل هذا التباين غير مطرد بالنسبة للمصطلاحات الاخرى .

ولكن المشكلة قائمـة ، وهي لدى الناشئة اشد استفحالا منها لدى الاساتذة لان الناشئة تحتاج الى مصطلحات تريحها وتسهل لها مسألة التفاهم المشترك وتصرف جهودها لجوهر الامور .

وفي مجال اقتراح الحلول يخطر للمرء ان يتقدم بالاقتراحات العاجلـة التالية ، وهي اقتراحات متممة لجهود المجامع والجامعات والمؤسسات، وتتعلق بموقف الباحث نفسه لا بموقف المؤسسة :

١ ــ لعل الباحثين يقلعون ــ الا عند الضرورة القصوى ــ عن محاولة البحث عن صيغ مصطلحية جديدة لتلك المسميات التي درجت لهـا مصطلحات معينة واكتسبت ما يشبه الاجماع . وبذلك يوفرون علينـا بعض البلبلة الاضافية .

٢ ــ لعل الباحثين يحاولون في اعتماد مصطلحاتهم أن ينسجموا علـى الاقل مع المؤسسة التي ينتمون اليها . وان يعملوا على اعتماد ما تعتمده او الوصول الى تفاهـم مع زملائهـم في القسم أو الكليـة او الدائرة او المؤسسة . ذلك ان المشكلة تهون بعض الشيء اذا أصبح لدينا خلاف

على مستوى المؤسسات لا الافراد ، ومن المأمول أن يؤدي حصر الخلاف بالمؤسسات الى الخطوة المنتظرة نحو توحيد المصطلحات ولا سيما اذا وضعنا في الاعتبار ان الجهود الرسمية سائرة على قدم وساق .

وبهذه المناسبة ، ان اسوأ ما يمكن ان يحدث هو تعاقب استاذين على صف واحد في قسم واحد ، واصرار كل منهما على التشبث بمصطلح يغاير ما اقرّه الآخر . ومن السهل على المرء ان يتخيل طلابا حائرين مشتتين ليس امامهم من خيار سوى (المسايرة) العلمية ، والتظاهر بتقبل ما يملى عليهم .

٣ ـ لعل الباحثين يعمدون ـ حيثما تبين لهم وجود مصطلحات مقبولة من المؤسسات واكثر شيوعا من المصطلحات التي ارتضوها ـ الى التخلي عن مصطلحاتهم والتنويه بذلك على الملأ حتى يوفروا على الناس المشقة والارتباك .

٤ ـ وعلى كل باحث يستخدم مصطلحا جديدا أن يعمد الى شرحه بما يلزم ، وكذلك الى بيان السبب الذي دفعه الى اختيار الصيغة الاصطلاحية المعتمدة وبالطبع هذه خواطر سريعة تتعلق بمسؤولية الباحثين انفسهم . وان الذي دفعني الى تقديمها لم يكن شعوري بانها كافية وافية وانما اقتناعي بضرورة لفت الانتباه الى مسؤولية الباحثين انفسهم في هذا المجال . ان الباحثين هم **اكثر الناس معاناة من خوض المصطلحات، وكذلك هم أدرى الناس بخطورة هذه الفوضى ، وأخيرا ينبغي أن يكونوا أقدر الناس على التصدي لمعالجتها .**

ب (اللغة النوعية ودلالتها) :

وبالطبع تمثل المصطلحات جانبا واحدا من جوانب مشكلة التعبير عن الافكار في البحث ، واذا بقيت مشكلتها تقنية اي محصورة باختيار المصطلح الانسب للمفهوم المتفق عليه فان الامر يهون كثيرا ، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في غياب التبلور الدلالي للمصطلحات وكذلك في

غياب الدلالة الدقيقة للمفردات النوعية التي يفترض ان تكون مفاتيح اية كتابة اختصاصية .

ان هذه اللغة النوعية تقوم مقام الرموز في الرياضيات ، لانها أصلا يفترض ان (ترمز) لمدلولات متفق عليها ، وهكذا من خلال استخدامها تتوفر الدقة الاختصاصية من جهة والايجاز غير المخل من جهة اخرى . ومن المعروف أن كتابة بحث بلغة متطورة من هذه الناحية تستغرق عددا اقل من الكلمات وتوفر دقة أكثر . في حين ان اللغات التي لم تطور مفردات نوعية اختصاصية تتطلب من الباحث شروحا وتفسيرات واطالة في الكلام حتى يتوفر الحد المطلوب من الايضاح .

ومن السهل على الانسان ان يلاحظ في كثير من الرسائل الجامعية والدراسات الادبية الحديثة باللغة العربية اضطرابا في استخدام المفردات النوعية واللغة الاختصاصية ، واضطرارا للجوء الى الشروح غير اللازمة او الى الاستدارة في التعبير او الى الترادف .

وان كلمات مثل (الرمز ، والاسطورة ، والتقنية ، والعنصر الذاتي ، والتشخيص ، والوجدانية ، والصورة ، والنمط ، والنموذج وغيرها) هي أقل تبلورا في اللغة العربية منها في اللغات الاوربية . وبالطبع لا يعود ذلك الى اختلاف خصائص اللغات الثابتة او الى امتياز خاص وهبته الطبيعة للغات معينة دون غيرها ، وانما يعود الى ان لغات المجتمعات المتقدمة اكتسبت خاصية الدقة في التعبير من خلال تفاعلها مع التطور الصناعي والاجتماعي والفكري ، وان لغتنا العربية كفيلة بأن تتطور بهذا الاتجاه تطورا طبيعيا يتماشى مع التطور العام للمجتمع العربي . ولكن سيكون في مقدورنا ان نسرع في هذا التطور وان نخفف عن اذهان مفكرينا وناشئتنا وشعبنا معاناة الاضطراب الدلالي للكلمات اذا بذلنا جهدا متعمدا من اجل بلورة لغة نوعية تخدم اغراض البحث . ويقتضي ذلك بالطبع تبين الاساليب العلمية في فهم اللغة وخدمتها وتسهيل تطورها ونقلها من لغة نخبة الى لغة عملية لشعب بأكمله (٥) .

أن هناك جوانب كثيرة لمشكلة (اللغة النوعية) لا يسمح المجال الحالي بتناولها ؛ وحسبنا هنا التذكير بالظاهرتين التاليتين :

١ ـ غياب اي معجم عربي حديث معتمد اكاديميا ، مما يمكن الرجوع اليه في حالة الاختلاف او الرغبة في التدقيق في استعمال الكلمات للتعبير عن الموضوعات ولهذه الظاهرة مخاطر كثيرة يعنينا منها هنا أن نشير الى ما يترتب عليها من فتح باب الاجتهاد الفردي ، بل التجربة الفردية، بل المغامرة الفردية ، على مصراعيه ، مما يؤدي الى البلبلة واضعاف مفهوم المشاركة الجماعية الذي يقوم عليه الرمز اللغوي (٦) .

٢ ـ اتجـاه كل بلد عربي الى تطوير لغته الاختصاصية النوعيـة على طريقته الخاصة وضمن الاطار الاوسع للغة العربية ؛ مما يلوح بخطر نشوء لغات نوعية (ولا سيما في المجال العلمي) . ولا اقصد بذلك الفرق الواضح بين اقطـار المشرق والمغرب في استخدام المفردات النوعية في الكتب العلمية وانما اشير الى اختلاف واضح بين أقطار المشرق العربي نفسها ؛ حتى انه ليس من قبيل المبالغة القول بأن مراجعة كتاب علمي مطبوع بالعربية في بلد عربي ما (وليكن مصر مثلا) أصعب على الدارسين من مراجعة الكتاب نفسـه بلغة أجنبية في بلد عربي آخر (وليكن لبنان مثلا) .

وربما تفسر لنا هذه الظاهرة تفسيرا جزئيا ما نراه من تكرار ترجمات الكتب الاجنبية من علمية وغيرها في الاقطار العربية ؛ ذلك ان كل قطر عربي يفضل ترجمة الكتب الاجنبية الى لغته النوعية الخاصة .

ومن الحق أن نعترف هنا أن الوسط الادبي كان انجح الاوساط في تطوير لغة اختصاصية عربية مشتركة ، بحيث تبدو الفروق هنا أقل حدة ، وان كانت موجودة في المجال النقدي مثلا .

جـ ــ في الاستعمال اللغوي :

تلك القوائم الطويلة من الاغلاط الصرفية والنحوية والاملائية التي يبرزها مناقشو الرسائل الجامعية في جلسات المناقشة أصبحت كابوسا يهدد الباحث في مجال اللغة العربية ، بخاصة والدراسات الانسانية بعامة ، لانه ــ مهما جرى التخفيف من وقع هذه القوائم ــ فان ثبوت عجز الطالب في استخدام لغته الام التي يتخذها موضوعا لتخصصه يجب أن يعتبر نقيصة اساسية قد لا تغطي عليها حسنات وايجابيات اخرى في بحثه . والمشكلة أن قسما كبيرا من هـذه القوائم يشير الى اغلاط فاحشة في مجال القواعد الاساسية للغة من مثل اغفال نصب المفعول به واسم إن واخواتها أو حذف ياء المنقوص النكرة في حالتي الرفع والجر أو مراعاة قواعد جمع المذكر السالم وغير ذلك . ان مثل هذه الاغلاط لا تكاد تخلو منها رسالة جامعية ولا ورقة امتحان في اقسام اللغة العربية في الجامعات العربية ، ومغزاها الواقعي هو أن الطالب الذي ندب نفسه للتخصص في اللغة العربية يقدم على هذا الامر دون أن يتقن أداة التخصص ، وهي نقيصة علمية فاحشة الى جانب كونها نقيصة قومية لا يجوز التسامح بها [٧] .

وبالطبع تشكل قوائم الاغلاط هذه جانبا واحدا من المشكلة ، ولكن هناك جوانب أخرى كثيرة اهمها التواء الجملة العربية المستعملة في الرسائل وعجزها عن التعبير عما في ذهن الطالب ، مما يلجىء كثيرا من الطلبة الى استخدام العبارات الجاهزة والمنقولة وتطبيقها قسرا على الحالة المقصودة ، وان قارىء هذه الرسائل لا يحتاج الى تمعن شديد ليستنتج ان كاتبيهـا ــ في معظمها طبعـا ــ هم اسرى التعبير اللغوي المسقط اسقاطا ، وانهم بعيدون جدا عن التجوال الفكري الحر في رحاب اللغة . وبالطبع نحن نتحدث عن الرسائل الجامعية لانها معرضة اكثر من غيرها للكشف والتمحيص ، وهي عادة تطبع على شكل كتب ويجري تداولها بين القراء بعـد اجتياز أصحابهـا للامتحان . والامر غير مقصور على الرسائل الجامعية فهناك مؤلفات أدبية كثيرة متداولة تعاني من الالتواء

التركيبي والخطأ اللغوي . وليس من الحكمة تقديم وصفات سريعة لمعالجة هذه المشكلة ، وحسبنا هنا أن نشدد على أهمية النقاط التالية في هذا المجال :

١ – لا تندرج مسألة اللغة في باب الاتقان الشكلي للبحث ولكنها مسألة في صميم هذا البحث لانها تتعلق بعملية (الفهم والافهام) التي يقوم عليها كل تأليف ، بل كل بيان – كما اوضح الجاحظ قبل اكثر من الف عام .

٢ – لا تتعلق المشكلة اللغوية بطبيعة اللغة العربية نفسها وانما تخضع لعوامل تربوية واجتماعية وثقافية وحضارية ، لا بد من اخذها بعين الاعتبار لدى التصدي الجدي لمعالجة هذه المشكلة ؛ وآخر ما يمكن أن ينفع في معالجتها هو التشدد في تصحيح أوراق الامتحانات المتعلقة باللغة العربية وآدابها .

٣ – يحسن القيام بحملة لمعالجة هذه المشكلة على المستوى القومي أي على مستوى الاقطار العربية عامة من خلال المؤسسات الثقافية العربية المشتركة مثل (الكسو) و (اتحاد الجامعات العربية) و (نقابة المعلمين العرب) وما أشبهها .

٤ – يحسن تضافر الجهود الرسمية مع الجهود الاكاديمية مع الجهود الشعبية .

٥ – يجب استعمال الوسائل التقنية الحديثة جدا من اجل تعليم اللغة العربية ورفع مستوى اتقانها لدى جماهير الناس .

٦ – يجب ان يحتشد لمعالجة هذه المسألة مختصون لغويون ونفسيون وسياسيون واجتماعيون وصحفيون وغيرهم .

إن المسألة اللغوية اضخم بكثير مما تبدو عليه في الظاهر ، ولها عقابيل شديدة الخطورة في مستقبل المجتمع العربي الموحد الذي نعلنه هدفا لنا مع كل خفقة من خفقات قلوبنا ، وبحسن الا نترك للغويين وحدهم

معالجة هذه المشكلة المعقدة . كما يحسن التنويه بالجهود الطيبة التي تبذلها اقطار عربية معينة مثل سورية والعراق والجزائر والكويت بهذا الصدد . وكذلك بالدراسات اللغوية ذات الطابع الحديث التي بدات تظهر مجددا في بعض البلاد العربية ولا سيما بلدان المغرب العربي .

وفي مجال ذكر المؤسسات العاملة في هذا المضمار لا بد من الاشارة الى جهود مكتب تنسيق التعريب (الرباط) ، وهو تابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكسو) .

لكن يؤسف المرء ان يشير الى ان مردود كل هذه الجهود ما زال ضعيفا ، والمشكلة اللغوية تزداد حدة وتفاقما يوما بعد يوم .

الحواشي

(١) يمكن مراجعة المقال التالي حول بعض المشكلات النظرية للبحث في أدب عصر النهضة ، مع العلم أن مصطلحي (النهضة) و (الحديث) غير محددين حتى الآن : الخطيب ، د. حسام :
« بعض قضايا المنهج في أدب النهضة » . وذلك من كتابه :
ملامح في الادب والثقافة واللغة ، وزارة الثقافة بدمشق ، ١٩٧٧ .

(٢) لعله من المفيد التذكير هنا بان لوائح جامعة مثل كامبردج في بريطانيا لا تنص على الحد الادنى للكلمات التي ينبغي أن تبلغها الرسالة الجامعية ولكنها تنص على ان الرسالة يجب ألا تتجاوز ثمانين الف كلمة الا باذن من لجنة الدراسات العليا التي يمكن أن تتسامح في حدود مئة ألف كلمة ، أما اذا تجاوزت الرسالة هذا الحد فينبغي أن يكون هناك مسوغ مهم جدا حتى تاذن اللجنة بذلك .

(٣) أو هكذا سمعت من بعض الطلبة ، ولم أقع على هذا المصطلح في الدراسات المتوفرة بين يدي .

(٤) وهو المصطلح الذي اعتمدته في كتاباتي منذ زمن . ومن غريب ما اتفق لي أنني كنت اظن هذا المصطلح مطابقا لما اعتمده الدكتور عفيف البهنسي . ولكنني حين عدت الى كتابه « معجم مصطلحات الفنون » بمناسبة كتابة هذه المقالة وجدته يبقي على ألف الكلمة الاجنبية في المصطلح العربي فيقول (رومانتي) و (رومانتية) مما يخالف قاعدة حذف

الالف لالتقاء الساكنين . والحق انني في بادىء الامر كنت استعمل المصطلح على الوجه الذي أورده البهنسي ، ولكن يبدو انني احسست انه ثقيل على السمع بعض الشيء وأسقطت الالف منه بالتدريج . والجدير بالذكر ان كتاب البهنسي من طباعة مجمع اللغة العربية بدمشق وهو ثلاثي اللغات . انظر ص ٧١ من :

البهنسي ، د. عفيف : معجم مصطلحات الفنون ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٧١ .

(٥) كنت اشرت في اكثر من مناسبة الى ان المحافظة على اللغة العربية ووقايتها من المؤامرات المعادية لا تتحقق بنتيجة تشديد اسوار التحريم (التابو) من حولها ولكن بنتيجة تعريضها أكثر فاكثر للتماس الحار مع متطلبات الحياة ، ذلك ان تاريخ حياة اللغات يشير الى أن اللغة الحية هي اللغة التي تتصدى لمواجهة مختلف أنواع التحديات عن طريق المرونة والتطور ، وأن اللغات التي انكمشت وانطوت على ذاتها كانت دائما ضعيفة المقاومة ازاء الاخطار التي تتهددها . ولنا في تجربة لغتنا العربية ابان عصور الازدهار خير دليل ومثال .

(٦) لست هنا في مجال الحديث عن المحاولات الطيبة التي بذلت في هذا المجال من بعض الباحثين ، وانما اتحدث عن عدم وجود مرجع لغوي معتمد حديث من مثل Webshevs أو Oxford Dictionarg او قاموس ادبي مثل قاموس شبلي Shipley ناهيك عن مراجع المصطلحات والموسوعات العامة .

ومن المفيد أن اشير هنا الى ان ما ذكرته عن المفردات النوعية هو شيء شبيه بما قام به الدكتور جميل صليبا في مجال الفلسفة وذلك في : المعجم الفلسفي ، بيروت ١٩٧١ ـ ١٩٧٣، وقد صدر في مجلدين الاول في ٧٦٥ ص والثاني في ٧١٦ ص وهو يتتبع المعاني المختلفة للكلمة الفلسفية وتطور دلالاتها عبر العصور . وفي مجال الادب لا بد من الاشارة الى محاولة الدكتور ناصر الحاني القديمة (من اصطلاحات الادب الغربي) ، وكان هذا الكتاب مرجعا مفيدا في الخمسينات لمن لا يتقنون لغة أجنبية . وبالطبع المطلوب الآن عمل اكثر عمقا واتساعا .

(٧) كثيرا ما يلجأ الطلبة الى الاحتجاج بوجود خطأ مطبعي ، وبالطبع يرتب هذا الاحتجاج على صاحبه مسؤولية مزدوجة ، اذ ان دقة الطباعة والمراجعة تعتبر علامة شديدة الاهمية من علامات المنهج العلمي ، ذلك أن التهاون في المسألة الشكلية كالطباعة والتبويب ينبىء عن استعداد نفسي للتهاون في مسائل كبرى وهو عنوان للاهمال والكسل العقلي ولا سيما حين يأتي على يد دارس ناشيء يفترض أن يكون الاتقان هاجسه الاول .
وغني عن القول أن مشكلة الطباعة العربية ليست ذات جانب شكلي فقط ، وهي ذات أثر خطير في عملية الارسال والتلقي .

اصلاح النظام النقدي الدولي

ميشيل تولار (١)

ترجمة د . هشام متولي

وضعت لاول مرة أسس نظام نقدي دولي في « بريتون ـ وودز » قرب واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الامريكية ، ذلك في شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٤٤ عندما اجتمع ممثلو ٤٤ دولة للنظر في القواعد التي ستنظم العلاقات فيما بين هذه الدول بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ويمكن القول منذ البداية ان النظام المقترح قد اختلف عن ذلك الذي كان سائدا والذي تناوبته فترات من حسن التطبيق وأخرى من سوء التعامل بموجبه . والنظام السائد هذا كان نظام قاعدة الذهب . لم يتم اختيار هذا النظام نتيجة مداولات ومحاورات بين الدول ذات العلاقة ، بل انه فرض نفسه بشكل طبيعي فيما بين البلدان كما انه فرض نفسه على كل بلد لوحده . كان يرتكز على أساس القابلية التامة للعملات لتحويلها للذهب ، الامر الذي يؤدي ، بشكل آلي ، الى وضع من الثبات التام لاسعار تحويل هذه العملات فيما بينها . (٢)

---

(١) Michel Lelart باحث في المركز القومي للبحوث في فرنسا C . N . R . S. ونشر هذا البحث في العدد السادس من مجلة Politique étrangère التي تصدر في باريس . أما المترجم فيعمل مديرا لمصرف سورية المركزي .

(٢) وذلك بموجب نظرية « حد الذهب Gold Points » : عندما يرتفع سعر عملة يراد شراؤها ؛ يصبح من الافضل شراء الذهب وارساله للدائن خارج البلاد . انظر بحثي: « من قاعدة الصرف بالذهب الى الارصدة الاسترلينية » ؛ المنشور في العددين تشرين ثاني / نوفمبر ؛ كانون أول / ديسمبر من مجلة Revue Banque . Paris, 1977 .

ونظرا لكون الذهب عبارة عن معدن يتم انتاجه ، وبالتالي توفره ، بكميات محدودة ، فان النظام الذي يقوم عليه هو نظام غير مرن بالضرورة . لذا فان البلدان فضلت اللجوء الى نظام اكثر مرونة ، يمكن من خلق عملة عالمية دون أن يكون عامل الانتاج هو العامل المتحكم، وذلك باللجوء الى نظام التسليف أو الائتمان Crédit . فالعملات الوطنية التي يتم تداولها في هذا البلد او ذاك ، يمكن ان تستعمل أيضا فيما بين هذه البلدان . فبموجب النظام الجديد الذي يمكن وصفه بقاعدة الصرف بالذهب ، لاتكون قابلية تحويل العملات الى ذهب تامة ، كما أن ثبات أسعار صرف العملات فيما بينها ليس كاملا . فلا بد اذن من معالجة هذا الوضع من عدم قابلية التحويل التامة ، وعدم ثبات أسعار الصرف بصورة كاملة . ذلك كان هو هدف الحاضرين والمتفاوضين في « بريتون ــ وودز » . ونظرا لان قواعد معينة كانت توضع ، وان اللجوء الى الاستقراض أو الاستلاف سيتم على أساسها ، فلا بد اذن من احداث مؤسسة تجمع البلدان التي تنتمي اليها وتفرض على هذه البلدان احترام هذه القواعد وتمكن البلد الذي يحق له الاستقراض منها من أن يحصل على التسهيل المالي ضمن حدود حقوقه .

وهكذا فان اتفاقية « بريتون ــ وودز » أصبحت الاساس لنظام الصندوق النقدي الدولي. ورغم كون اسس هذا النظام هي على درجة من التعقيد ، فانه يمكن تلخيصها في المبادىء الاساسية الثلاث التالية : (٢)

قابلية تحويل العملات فيما بينها :

ان المادة الثامنة من الاتفاقيــة المذكورة واردة تحت عنوان « الواجبات العامـة للدول الاعضاء » ، وأن قاعدة « الالتزام بحسن التعامل » تفترض أنه « يتوجب على كل عضو أن يعيد شراء الموجودات من عملته التي يملكها عضو آخر ... ويحق للعضو الشاري أن يدفع بعملة بلد العضو الآخر ، أو بالذهب » . وهكذا فانه يتوجب على كندا أن تعيد شراء الدولارات الكندية التي يمتلكها المكسيك ، وتدفع مقابل عملية الشراء اما بالذهب أو بالبيزو Pesos ، اي العملة المكسيكية .

(٢) يمكن للقارىء الراغب في التوسع العودة لكتاب المترجم : النظام النقدي الدولي ، دمشق ١٩٧١ . كما يمكن له العودة خاصة للبحث الذي نشره الدكتور محمد الاطرش : « النظام النقدي الدولي : من بريتون وودز الى جامايكا » مجلة النفط والتعاون العربي. المجلد الثالث ــ العدد الثاني ١٩٧٧ ، الكويت .

ثبات اسعار تحويل العملات فيما بينها :

تنضوي المادة الرابعة من الاتفاقية المذكورة تحت عنوان « سعر التعادل فيما بين العملات »، والتي تقضي آن « سعر تعادل عملة كل بلد عضو يعبر عنه بالذهب أو بدولار الولايات المتحدة الامريكية بالوزن والعيار النافذ المفعول في أول تموز (يوليو) من عام ١٩٤٤ . ويجب ألا تتجاوز الحدود العليا والدنيا المطبقة على معاملات صرف عملات الدول الاعضاء حد سعر التعادل الا بمقدار واحد بالمئة ... »(٤) . وهكذا فقد عرف الفرنك الفرنسي في الثامن عشر من كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤٦ بما يعادل ٧ر٤٦١ ميلغرام من الذهب او ٨٣٩٥٨٣ر. سنتا من أصل الدولار الامريكي . وعلى مصرف فرنسا أن يعمل ، حسب ما هو مذكور أعلاه ، على ألا يزيد سعر صرف الدولار عن ٣ر١٢٠ فرنكا ولا ينقص عن ٩ر١١٧ فرنكا(٥) .

عمليات الصندوق النقدي الدولي :

تقضي المادة الخامسة من اتفاقية « بريتون وودز » والواردة تحت عنوان « معامــلات الصندوق » بانه « يحق لكل عضو أن يشتري من الصندوق عملة عضو آخر مقابل عملته وفقا للشروط التالية ... » وهكذا فانه يمكن لايران أن تحصل على الدولارات مقابل عملتها من الريالات . ويقال لهذه العملية أنها « سحبت » على الصندوق . وبالاضافة الى الشروط التي تخضع لها هذه السحوبات ، فان المادة الخامسة تحدد أيضا اشــكال او طرق الشراء والدفع للعمولات .

يمكن اعتبار ما تقدم أساسا للنص الذي صيغت على أساسه اتفاقية « بريتون ــ وودز ». وواقع الامر أن هذه الاتفاقية هي المشروع الامريكي المعروف باسم مشروع « وايت white

---

(٤) هناك بعض الاستثناءات . فكندا اختارت نظام صرف مرن اعتبارا من أول تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٠ وحتى الثاني من أيار (مايو) عام ١٩٦٢ . كذلك فعل كل من لبنان وكوريا .

(٥) بما أن اونــة الذهب (٣١ر١٠٣٤٨ غراما من الذهب الخاص) تساوي ٣٥ دولارا ؛ فان سعر تعادل الفرنك الذهبي يحدد قيمة الفرنك مساوية له :

$$\frac{٣٥ \times ٠ر٠٠٧٤٦١}{٣١ر١٠٣٤٨} = ٠ر٠٠٨٣٩٥٨٣ \text{ دولار}$$

وبالمقابل فان قيمة الدولار تساوي ١١٩ر١٠ فرنكا .

الذي فرض فرضا لانه الوحيد الذي قدم للنقاش . وقبل أشهر من بدء الصندوق النقدي الدولي نشاطه ، صرح وزير الخزانة الامريكي في ١٠ كانون أول (ديسمبر) من عام ١٩٤٦ بان الدولار قابل للتحويل الى الذهب . وهنا تجدر الاشارة الى أن الولايات المتحدة الامريكية كانت تملك غداة الحرب العالمية الثانية ثلثي الذهب الذي تمتلكه المصارف المركزية . وقد انفردت الولايات المتحدة باتخاذ مثل هذا القرار على الصعيد الدولي ، وذلك لان بلدان اوروبا الغربية كان عليها أن تنتظر خمسة عشر عاما من التاريخ المذكور لتجعل عملاتها قابلة للتحويل لعملات أخرى فقط(٦) . وعلى هذا الاساس يمكن القول ان الدولار كان يشكل نقطة الارتكاز بالنسبة لنظام « بريتون — وودز » . وعمليا فقد كانت العملة الامريكية تشكل وسيلة الدفع الاكثر استعمالا على صعيد التعامل الدولي . وبذلك اصبحت وحدة قياسية ، كالذهب ، بالنسبة لبقية العملات (المادة الخامسة) . وهي بذلك ايضا اصبحت كالذهب من حيث قيامها بدور الموجودات الاحتياطية التيتحتفظ بهـا المصارف المركزيـة . وبتعبير آخر ، فقد اطلق على الدولار انـه « جيد كالذهب as good as gold » .

وهكذا فان قاعدة نظام الصرف بالذهب كانت عمليا قاعدة الصرف بالدولار بسبب قابلية تحويله الى الذهب . كان من الممكن لهذا النظام أن يعيش طويلا . ولكنه صادف عقبات متزايدة لم يتمكن من التغلب عليها . وعوضا عن العودة الى القواعد التي وردت في اتفاقية « بريتون — وودز » واعتمادها من أجل الاستمرار في تسيير النظام النقدي الدولي ، فان التفضيل ذهب الى جعل النظام يتكيف بشكل أقل أو اكثر حسنا أو سوءا مع تطور الاوضاع الدولية ، وبالتالي التوصل الى مرحلة تغييره تغييرا كاملا .

سنحاول فيما يلي سرد تاريخ مراحل تطور النظام النقدي الدولي المشار اليه بشكل مختصر : ثم ننتقل الى تحليل مضمون التعديلات الجديدة للاتفاقية والتي هي قيـد التصديق(٧) .

(٦) حاولت بريطانيا جعل الليرة الاسترلينية قابلة للتحويل اعتبارا من عام ١٩٤٧ بعـد حصولها على قرض من الولايات المتحدة بمقدار ٣٫٧٥ مليار دولار . ولكن سرعان ما قررت لندن العودة الى نظام عدم قابلية التحويل بعد ستة أسابيع (٢٠ آب — اغسطس عام ١٩٤٧) ؛ اثر قيام مالكي الليرات الاسترلينية بطلب ابدالها أو تحويلها .

(٧) حصلت عملية التصديق ودخل التعديل الجديد لاتفاقية « بريتون وودز » موضع النفاذ اعتبارا من أول نيسان — ابريل ١٩٧٨ . (المترجم)

١ ـ من اتفاقية « بريتون ـ وودز » الى اصلاح النظام النقدي الدولي :

من الطبيعي الاشارة الى أن الدور الرئيسي الذي احتله الدولار في صلب نظام اتفاقية « بريتون ـ وودز » يلقى على عاتق الولايات المتحدة الامريكية مسؤولية خاصة . وأول بند من بنود هذه المسؤولية هو أن تعمل الولايات المتحدة على عدم زيادة الدولارات التي تمتلكها المصارف المركزية لبقية البلدان زيادة كبيرة بحيث تكون دوما قادرة على تحويلها . ومن أجل تحقيق ذلك ، فانه يتوجب عليها أن تحد من خلق نقدها في الوقت ذاته الذي تحد فيه أيضا من تعاملها به مع بقية العالم . كذلك يتوجب عليها أن تطبق لديها سعر فائدة مرتفع نسبيا ، وأيضا الحد من عجز ميزان مدفوعاتها . هذا ما اضطرت أن تفعله انكلترا قبل الحرب ، ولكن الامريكيين لم يقبلوا تحمل مسؤوليتهم على هذا الاساس بشكل قاطع(٨) .

تبعا لهذه الاوضاع ، فان كمية الدولارات التي هي في حوزة المصارف المركزية لبقية الدول هي في ازدياد مستمر في حين ان كمية الذهب الذي هو في حوزة الولايات المتحدة تتناقص شيئا فشيئا . ومع ذلك فانه مازال من الممكن تحييد هذه الزيادة المتزايدة في السيولة النقدية الدولية . وفي الواقع فان اتفاقية « بريتون ـ وودز » كانت قد توقعت :

١ ـ تغييرا موحدا لسعر تعادل العملات ، أي زيادة سعر الذهب (الفقرة السابعة من المادة الرابعة من الاتفاقية) . فالاقتراح الذي كان قد تقدم به الاقتصادي الفرنسي جاك رويف Jacques Bueff (٩) كان متضمنا في الاتفاقية المذكورة . على أن عقبات كثيرة وضعت لعرقلة امكانية الاخذ بمثل هذا الاقتراح ، ولاشك أن هذه العقبات والانتقادات كانت

(٨) كان مفترضا بصورة ضمنية من قبل كينز ووايت وبقية الاعضاء المفاوضين في اتفاقية « بريتون ـ وودز » أن تمارس الدول الاعضاء سياسات نقدية مناسبة » . ومن الطبيعي انه لم يكن لهذا النظام ان يعيش طويلا الا على أساس تطبيق هذا الشرط . انظر ص ١٥ من كتاب :

R. Dehem : De l'étalon-sterling à l'étalon-dollar. Calman Lévy. Paris 1972.

(٩) توفي في الربع الثاني من عام ١٩٧٨ — المترجم

ستزول لو تم تطبيقه بصورة منتظمة . لكن المهم أن الولايات المتحدة لم تقبل بهذا الاقتراح بأي شكل من الاشكال(١٠) .

٢ — العودة للاخذ بنظام الرقابة على تحركات رؤوس الاموال . وفي الواقع فاننا اذا عدنا مجددا لاتفاقية « بريتون — وودز » فاننا نجد انها أعطت الموافقة على قابلية تحويل الموجودات من العملات التي تم الحصول عليها بموجب التعامل والمعاملات الجارية (الفقرة الرابعة من المادة الثامنة) ، وانها سمحت للدول الاعضاء « بممارسة مختلف اشكال المراقبة الضرورية من أجل تنظيم تحركات رؤوس الاموال على الصعيد الدولي » . (الفقرة الثالثة من المادة السادسة) . ولكن ارادة الولايات المتحدة كانت ترمي الى تحرير مختلف أشكال المعاملات والتسويات علی الصعيد الدولي وبالتالي فان تحركات رؤوس الاموال لم تخضع أبدا للرقابة الدولية(١١) .

لا يمكن تصور امكانيـــة استمرار نظـام قاعدة الدولار القابل للتحويل الى ذهب في ظـل مثل هذه الاوضاع والظروف . وهكذا فان البناء الذي شيدته اتفاقية « بريتون — وودز » بدأ يتاكل شيئا فشيئا : فمن ناحية نجد أن مبدأ قابلية تحويل الدولار الى ذهب أصبح موضع تساؤل ، ومن ناحية ثانية فان مبدأ ثبات أسعار صرف العملات فيما بينها أصبح اقل فاقل احتراما ، شانه شان موضوع التحويل .

١ — تراجع مبدا قابلية تحويل الدولار الى ذهب

ان التزامات الولايات المتحدة بالدولار تجاه بقية العالم بلغت مستوى احتياطيها من المعدن الثمين ، أي ١٩٫٥ مليار ، منذ عام ١٩٥٩ . وهذا وضع منذر بالخطر ، ولكن الذي يخفف منه هو أنه لم يكن يتوجب على الولايات المتحدة تحويل هذه الدولارات كافة بسبب

---

(١٠) كانت القرارات في الصندوق النقدي الدولي تتخذ في السابق بأغلبية ٥٠ ٪ متضمنة البلدان التي تتجاوز حصصها ١٠ ٪ (أي الولايات المتحدة وبريطانيا) . على أنه منذ عام ١٩٦٩ أصبحت الاغلبية المطلوبة لاتخاذ القرارات هي ٨٥ ٪ من أصل مجموع الحصص (كانت حصة الولايات المتحدة في ذلك الوقت ٢٢٪ ، وأوروبا السداسية (نسبة لعدد البلدان الاعضاء في السوق الاوروبية المشتركة) ١٦٫٧ ٪ من مجموع الاصوات .

(١١) كان يمكن للولايات المتحدة التحجج بهذه القاعدة لترفض تحويل الدولارات التي قدمتها لها فرنسا خلال الفترة ١٩٦٥ — ١٩٦٨ . ولكن مثل هذا الرفض كان سيكون له وقع سيء من الناحية النفسانية .

كون جزء منها بحوزة القطاع الخاص (المصارف التجارية أو المؤسسات الاجنبية غير الرسمية) . على أنه في عام ١٩٦٤ بلغت التزامات الولايات المتحدة تجاه المصارف المركزية فقط لبقية دول العالم ، وهي كلها قابلة للتحويل ، مستوى احتياطيها من الذهب ، أي درءه١ مليار دولار . واعتبارا من هذا الوقت يمكن القول أنه من الناحية الواقعية ، لم يعد الدولار قابلا للتحويل .

لم يكن من الممكن تجنب نتائج هذا الواقع الجديد . ولكن الولايات المتحدة الامريكية حاولت اتباع بعض الطرق التي كان من شانها ان ادت الى ان تؤخر او تخفف من نتائجه :

أ ـ فقد احدث « مجمع الذهب » بالاشتراك مع ست دول اوروبية . عمدت السلطات البريطانية بموجب هذا الاتفاق الى عرض الذهب في سوق الذهب في لندن بغاية تجنب ارتفاع سعره . وفي الوقت نفسه كانت تطلب من الولايات المتحدة تحويل هذه الدولارات ، حصيلة بيع الذهب ، الى ذهب من أجل أن تعيد تركيب احتياطياتها . وفي عام ١٩٦٠ ، التزمت الدول الاوروبية المشار الها بتموين سو ق لندن بالمعدن الثمين بنسبة ٥٠ ٪ من المبيعات البريطانية منه ، وبذلك فان الولايات المتحدة لم تعد تلتزم بتحويل ما يقدم لها من عملتها الا بنسبة النصف .

ب ـ أحدثت سوق مزدوجة لسعر الذهب في ١٧ آذار ـ مارس ١٩٦٨ . فقد قررت المصارف المركزية الاعضاء في مجمع الذهب المذكور الا تتدخل في السوق ، أي قررت الا تقوم بعرض أو بيع الذهب ، بل ان يترك سعر هذا المعدن يتشكل بصورة حرة وفقا للعرض والطلب ، ولو ادى الى زيادة سعره على السعر الرسمي الذي هو ٣٥ دولارا للاونسة الواحدة . كما انها قررت الا تبيع الذهب الى المصارف المركزية على أساس السعر المتشكل في الاسواق الحرة . وبهذه الطريقة تمكنت الولايات المتحدة من تخفيف الطلب على تحويل عملتها (١٢) .

بعد احداث هذه السوق واتخاذ القرارات المشار اليها ، عمدت الولايات المتحدة الامريكية الى الضغط على افريقيا الجنوبية من اجل ان تبيع الذهب الذي تنتجه في السوق الحرة

---

(١٢) ان هذه الدولارات التي ترفض الولايات المتحدة تحويلها الى ذهب قد تشكلت لدى المصارف المركزية نتيجة لبيع الذهب في الاسواق الحرة وحوزتها ، مقابل ذلك ، دولارات كان يمتلكها القطاع الخاص . وهذا ما يفسر ان اتفاق ١٧ آذار ـ مارس لعام ١٩٦٨ المشار اليه ظل يعتبر انه من الممكن تحويل الدولارات « الرسمية » ؛ بينما الغى مفعول قابلية التحويل بالنسبة للدولارات التي يمتلكها « القطاع الخاص » .

لزيادة عرضه وبالتالي تخفيض سعره ، وذلك عوضا عن بيعه للمصارف المركزية التي ستزيد من احتياطياتها المعدنية . وكذلك عارضت الولايات المتحدة أن تبيع أفريقيا الجنوبية الذهب الى الصندوق النقدي الدولي وذلك حتى تم التوصل الى اتفاق في ٢٣ كانون أول ــ ديسمبر ١٩٦٩ (١٣) . ومن ثم خطت الولايات المتحدة خطوة اضافية من أجل التخفيف أو التقليل من الدور الرسمي أو النقدي للذهب بسعيها للتوصل الى احداث حقوق السحب الخاصة التي ستكون العملة الدولية في المستقبل .

وكان لا يجب وضع هذا الاصلاح موضع التطبيق ــ وهو الذي استوجب الاخذ به ادخال أول تعديل على اتفاقية « بريتون ــ وودز » ــ الا في حال احترام بعض الشروط المحددة بدقة . فيجب بصورة خاصة أن تستعيد موازين المدفوعات توازنها ، وأن تتحسن أو « تستعيد صحتها » الاوضاع النقدية الدولية . وطبعا كان المقصود بذلك وبصورة أساسية ميزان مدفوعات الولايات المتحدة الامريكية ، وفقا للاتفاقات الجديدة المعدلة ، ولآراء الذين اشتركوا في وضع هذه الاتفاقات ، ولرأي مندوبي الولايات المتحدة ذاتها حين أشاروا الى شعورهم بضرورة « تحقيق تحسين أساسي في ميزان مدفوعات الولايات المتحدة » (١٤) .

كلنا يعرف ما آل اليه هذا الامل وهذا الوعد . فميزان العمليات الجارية الامريكي الـذي حقق فائضا بمقدار مليارى دولار عام ١٩٦٧ قد انقلب الى وضع عجز بمقدار ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٨ وأكثر من مليار عام ١٩٦٩ . وهكذا تتابع تزايد العجز ضمن اطار من استحالة التنبؤ به أو تصور امكانية حدوثه : عشر مليارات في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٢ و ٣٠ مليار عام ١٩٧١ . وعندما بدأت تستفيد الدول الاعضاء في الصندوق من التخصيص أو التوزيع الاول من حقوق السحب الخاصة (٩٫٣ مليار دولار خلال ثلاث سنوات) ، زادت مقتنيات المصارف المركزية في العالم بمقدار خمسين مليار دولار اضافية .

وقد تفاقم عجز ميزان مدفوعات الولايات المتحدة لدرجة اضطرت معها سلطات هذا البلد الى أن تعلن في ١٥ آب ــ أغسطس من عام ١٩٧١ عن الالغاء المؤقت لقابلية تحويل الدولار

---

(١٣) تؤثر أفريقيا الجنوبية في سعر السوق الحرة والذهب عندما تبيع انتاجها منـه في هذه السـوق . فاذا تملت ذلك فان سعر الذهب لا يرتفع ، وبذلك تحافظ الولايات المتحدة على قيمة مخزونها من الذهب .

(١٤) يمكن للقارىء أن يتوسع في موضوع الاحصاءات عن تطور ميزان المدفوعات الامريكي ، بالعودة الى الصفحة ١٦٢ من كتابي :
Le dollar, monnaie internationale Ed. Albatros, Paris 1975 .

الى ذهب . عمد الصندوق النقدي الدولي خلال السنوات التي تلت الى اقتراح عدد من المشاريع الاصلاحية بغاية اعادة قابلية الدولار للتحويل الى الذهب الى وضعها السابق . ولكن قابلية التحويل هذه قد دخلت عالم النسيان بعد فترة من الزمن . وبذلك تبين ان قابلية تحويل العملة الامريكية الى ذهب لم تكن أكثر من قرار تتخذه ايجابا أم سلبا حكومة الولايات المتحدة الامريكية . ولكن الموضوع لـم يقف عند هذا الحـد . فالولايات المتحدة التي أوقفت تحويل عملتها الى ذهب ، كان عليها تامين تحويلها الى عملات أخرى . ومن أجل تحقيق عملية التحويل هذه ، لابد للدولار من أن يكون ثابتا . ولكن الولايات المتحدة لم تتحمل مسؤولية تامين ثبات عملتها لا قبل ١٥ آب ـ اغسطس من عام ١٩٧١ ولا بعد هذا التاريخ ، بل القت العبء على العملات الاخرى لتعمل على تثبيت أسـعار صرف عملاتها بالنسبة للدولار ... وذلك حتى الوقت الذي تتمكن فيه هذه البلدان من تحرير نفسها من هذا الالتزام(١٥) .

٢ ـ تراجع ثبات قيمة العملات بالنسبة لبعضها البعض :

من المعروف أن اتفاقية « بريتون ـ وودز » نصت على احداث نظام من أسعار الصرف الثابتة ، بحيث لا يمكن لاية عملة ان يزيد سعر صرفها أو ينقص عن ١ ٪ من أسعار صرف بقية العملات . يمكن القول ان هذا النظام سار سيرة حسنة(١٦) ، بحيث اتبعت المصارف المركزية اسلوبا في التعامل اخذت تثبت بموجبه عملاتها بالنسبة للدولار وليس بالنسبة لبعضها البعض . وهكذا أصبحت العملة الامريكية أداة التدخل الرئيسية والمفضلة في

---

(١٥) حللت مآل القرار الامريكي بوقف تحويل الدولار الى ذهب المشار اليه في بحثي :
Le système de Bretton-Woods et la pratique monétaire internationale. Revue des sciences financière. Janvier-mars1977.

(١٦) غالبا ما خرقت الدول الاعضاء التزاماتها فيما يتعلق بأسعار تعادل عملاتها ، وذلك بعدم الاعلان عن سعر التعادل ، أو بتغيير سعر التعادل دون احترام الشروط المنصوص عليها ، وباستعمال أسعار صرف متعددة . انظر تفصيل ذلك في الصفحات ١٨٨ ـ ١١٩ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ ، ١٣١ ـ ١٣٢ من
D. Carreau : Le Fonds Monetaire International, A. Colin, Paris 1970.

أسواق صرف العملات(١٧) ، الامر الذي كان من شأنه تقوية دور الدولار كعملة عالمية .

هذا ، وان الفارق بين سعري عملتين يمكن أن يبلغ ٢ ٪ فيما لو كان سعر الاولى بلغ حده الاقصى وسعر الثانية بلغ حده الادنى بالنسبة للدولار . كما أنه يمكن لهذا الفارق أن يبلغ ٤ ٪ خلال بعض الفترات بسبب اختلاف مركز أو وضع العملتين بالنسبة لبعضهما البعض . ولاشك أن هذه العلاقة تعكس صورة نقدية غير سليمة . وانه بغاية التخفيف من اثر هذا الوضع غير السليم ، قررت الدول الست الاعضاء في السوق الاوروبية المشتركة العمل على التخفيف التدريجي للحد الاقصى لفارق سعر الصرف بين عملاتها والدولار : وهكذا حددت هذا الفارق بنسبة ٧٥ر. ٪ في نهاية عام ١٩٥٨ ، أي لدى احداث « الاتفاق النقدي الاوروبي » ، وبنسبة ٦ر. ٪ في ١٥ حزيران – يونيو من عام ١٩٧١ ضمن اطار « مشروع وارنر » المتعلق بالوحدة النقدية الاوروبية(١٨) .

نصت اتفاقية « بريتون – وودز » أيضا على الشروط التي يمكن لبلد بموجبها ان يغير من تعادل سعر عملته : وهي حين تعرض ميزان مدفوعاته لخلل أساسي(١٩) ، ويجب ابلاغ الصندوق النقدي الدولي بقرار الدولة بتغيير قيمة تعادل عملتها ، ولا بد من أخذ موافقة الصندوق اذا كانت نسبة التعديل تزيد عن ١٠ ٪ . وسار هذا النظام سيرته الحسنة تقريبا ، رغم أن الاتفاقية المذكورة لم تضع تعريفا لمفهوم الخلل الاساسي أو الجوهري(٢٠) ،

---

(١٧) ولكن الولايات المتحدة لم تكن ملتزمة بالتدخل مادامت عملتها قابلة للتحويل الى الذهب ، فتدخلها يكون عمليا اذن بهذا المعدن . على انه منذ القرار الذي اتخذه الرئيس نيكسون في ١٥ آب – اغسطس عام ١٩٧١ القاضي بالالغاء الموقت لقابلية التحويل هذه ، فقد أصبح يتوجب على الولايات المتحدة التدخل في أسواق صرف العملات والدفاع عن سعر تعادل عملتها .

(١٨) يمكن للقارىء الراغب في زيادة تفصيل عن مشروع « وارنر » ، العودة الى البحث الذي نشره مترجم هذا المقال في مجلة « مصر المعاصرة » العدد ٣٤٧ ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(١٨) يمكن للقارىء الراغب في زيادة تفصيل عن مشروع « وارنر » ، العودة الى البحث العودة الى مقال الدكتور الاطرش المشار اليه . كذلك الى كتاب مترجم هذه الصفحات المشار اليه أعلاه .

(٢٠) ان المدراء التنفيذيين الذين يعود اليهم حق تفسير اتفاقية الصندوق النقدي الدولي لم يضعوا تعريفا للخلل الاساسي ، ولكن جوابهم كان ايجابيا وموافقا على الطلب – التساؤل التالي الذي قدمته انكلترا عام ١٩٤٦ والذي تقول فيه هل « تعتبر من أصل التدابير الضرورية لاصلاح خلل أساسي ، تلك التدابير اللازمة لحماية دولة عضو من بطالة مستديمة أو مزمنة ناتجة عن ضغوط على ميزان مدفوعاتها » ؟

وأن بعض البلدان لم تحترم دوما القاعدة المذكورة . ولكن هذا التصرف من قبل بعض البلدان كان من باب الاستثناء . واكثر الامثلة ورودا في معرض الكلام بصدده هو تصرف فرنسا التي طبق الصندوق بحقها عقوبة منعها من استخدام موارده خلال الفترة ١٩٤٨ ــ ١٩٥٥ بسبب عدم احترامها للقاعدة المشار اليها .

ازداد تعقيد الامور بازدياد عجز ميزان مدفوعات الولايات المتحدة الامريكية . فكميــة الدولارات المتوفرة خارج الولايات المتحدة أخذت تشكل كتلة من رؤوس الاموال الممكن انتقالها بسرعة كبيرة من بلد لآخر ، اي تحويلها من عملة لاخرى . وتزايدت حركة انتقال رؤوس الاموال هذه ، وتزايدت معها حركة المضاربات النقدية ، لدرجة انها باستمرارية توسعها في تموين وتغذية أسواق الصرف قد أدت الى تغيرات وتذبذبات حادة في أسعار صرف بعض العملات فيما بينها وبالنسبة للدولار ، الامر الذي اوجد نوعا من الخطـر شبه الثابت والمستمر على أغلب العملات .

ان تداول عملة الولايات المتحدة خارج هذا البلد لا يتعلق فقط بعجز ميزان مدفوعاتها ، بل أيضا بظاهرة الاوروـدولار euro-dollars . ان سبب صبغ هذه الدولارات بالصفة الاوروبية يعود الى أن مصرف التسويات الدولية Banques des règlements internationaux بمركز لديه بصورة منتظمة العمليات بالدولار العائدة للمصارف التجارية المقيمة في ثماني بلدان أوروبية ، درج ممثلوها الرسميون أن يجتمعوا شهريا في مدينة « بال » في سويسرا . على أن مصارف أخرى في كندا واليابان والفلبين والكويت.. تتعامل يوميا بالدولار ، ويكون هذا التعامل على نوعين(٢١) :

١ ــ يمكن للمصارف الاجنبية أن تقرض وتستقرض فيما بينها بالدولارات ، وتتم هذه العمليات بتسجيلها في حساب المطاليب على المصارف الامريكية حيث تنتهي بتحويل مقدار المال المقرض او المستقرض من حساب لآخر . فيمكن اذن للدولارات أن تتداول خـارج الولايات المتحدة بسهولة كبيرة وسرعة زائدة . ففي غضون اليوم الواحد يمكـن لمصرف فرنسي أن يقرض دولارات لمصرف الماني الذي يقرضها بدوره لمصرف سويسري حيث يقرضها

---

(٢١) حول موضوع سوق « الاورو ــ دولار » وعملياتها ، انظر مقالي :
« La multiplication européenne des dollras. » Revue Banque. Novembre-décembre. Paris 1976.

هذا الاخير الى مصرف انكليزي ... وهكذا . أن هذه العمليات تزيد من حجم حركة رؤوس الاموال وتزيد ، بالتالي ، من طابع المضاربة .

٢ ـ يمكن للمصارف الاجنبية أن تسلف بعض المشاريع التي تحتاج الى الدولارات بغاية استعمالها . وفي مثل هذا الوضع لاتكون هناك زيادة في سرعة تداول الدولارات الموجودة او المتوفرة ، بل زيادة في كمية أو مقدار الدولارات المتوفرة خارج الولايات المتحدة ... دولارات ستباع بدورها في اسواق الصرف ، الامر الذي يمن شانه زيادة عدم استقرار أسعار العملات .

في عام ١٩٧٠ لاحظ المحللون ازدياد عجز ميزان المدفوعات الامريكي وازدياد خلق الدولارات في سوق « الاورو ـ دولار » من قبل المصارف غير الامريكية . تاسيسا على هـذا الوضع لم يعد نظام ثبات أسعار الصرف الذي نصت عليه اتفاقية « بريتون ـ وودز » بقـادر على المقاومة . وتتابعت منذ ذلك الوقت مجموعة من الاحداث :

زيد الفارق الاقصى بين حدي سعر تعادل العملات فيما بينها ـ عمليا بين كل عملة والدولار الى ٢٫٢٥ ٪ في ١٨ كانون أول / ديسمبر ١٩٧١ .

خفض دولار الولايات المتحدة الامريكية اول مرة بنسبة ٨٫٦ ٪ في أيار / مايو ١٩٧٢ ، وبنسبة ١١٫١ ٪ في شهر شباط / فبراير من العام التالي .

ـ رفع سعر المارك والفلوران الهولندي والكورون النرويجي والشلن النمساوي . كذلك رفع سعر المارك عدد من المرات الاخرى .

ـ عومت اليابان عملتها في أول عام ١٩٧٤ .

ـ قررت انكلترا في ٢٣ حزيران / يونيو من عام ١٩٧٢ تعويم الجنيه الاسترليني ، وتبعتها في ذلك ايطاليا عام ١٩٧٣ ، ثم جرى تعويم البيزو الاسباني والشلن النمساوي . وعوم الفرنك الفرنسي بدوره خلال الفترة ١٩ كانون الثاني / يناير ١٩٧٤ حتى ١٠ تموز / يوليو ١٩٧٥ ، ثم اعتبارا من ١٥ آذار / مارس ١٩٧٦ .

ولا شك أن عدم استقرار أسعار صرف العملات الاوروبية ليس في صالح هذه البلدان . وحاولت بلدان السوق الاوروبية الاتفاق على تضييق هوامش التذبذبات في أسعار صرف عملاتها فيما بينها قبل أن تقرر احـداث عملة مشتركة اوروبية (٢٢) ، وذلـك عن طريق

(٢٢) كانت هذه هي النقطة الاساسية في المشروع الذي قدمه ريمون بار (رئيس وزراء فرنسا حاليا) الى اللجنة النقدية في السوق الاوروبية المشتركة في ٢٤ كانون ثاني / يناير ١٩٧٠ . ولكن الازمة النقدية التي حصلت في أيار / مايو ١٩٧١ عرقلت امكانية تضييق الهوامش التي كانت ستطبق في الربع الاول من عام ١٩٧١ . أما نظام « الافعى » فقد أحدث في ٢٤ نيسان / ابريل عام ١٩٧٢ .

أحداث نظام « الافعى » التي تتلوى داخل النفق ، وتعكس هذه الصورة حدود تذبذب أسعار صرف هذه العملات . ولكن أغلب هذه العملات سرعان ماخرج تباعا من هذا النفق. ولا شك أن عدم الاستقرار هذا في أسعار العملات الاوروبية ، والذي مازال مستمرا ، قد عرقل بناء أوروبا السوق الاوروبية المشتركة (٢٣) .

٣ ـ في الطريق الى اصلاح النظام النقدي الدولي :

ان البلدان الاعضاء في الصندوق النقدي الدولي لم تنتظر الاعلان عن عدم القابلية الموقتة لتحويل الدولار الى ذهب في ١٥ آب / اغسطس ١٩٧١ من أجل أن تتدارس وسائل اصلاح النظام النقدي الدولي . فمشاريع الاصلاح تتابعت منذ عام ١٩٦٠. (٢٤) . وكان آخر هذه المشاريع ما جرى تطبيقه في أوائل عام ١٩٧٠. تحت اسم « حقوق السحب الخاصة » التي ستميز نظاما نقديا جديدا (٢٥) . ولكن قرار الولايات المتحدة الامريكية بجعل الدولار غير قابل للتحويل بشكل موقت قد ادخل تغييرا في النظرة الى الامور بحيث أصبح البعض يرى أنه لابد من اصلاح جذري للنظام النقدي الدولي . ولم يكن هناك من شك في أنه من الممكن الاخذ بهذا الاصلاح في وقت عاجل .

وعلى هذا الاساس طلب مجلس حكام أو محافظي الصندوق النقدي الدولي من مجلس المدراء التنفيذيين لهذه المؤسسة وضع تقرير عن اصلاح النظام النقدي الدولي . فقدم هذا التقرير الذي تضمن سبل الاصلاح(٢٦) الى الاجتماع السنوي لمجلس المحافظين في أيلول / سبتمبر ١٩٧٢ . وكان المجلس المذكور قد ألف في ٢٦ تموز / يوليو من عام ١٩٧٢ « لجنة لدراسة موضوع اصلاح النظام النقدي الدولي والشؤون المتعلقة به » تتشكل

---

(٢٣) بخصوص هذا الموضوع والاصطلاحات الواردة فيه ، يرجى الرجوع الى البحث الذي نشره مترجم هذه الاسطر في مجلة « مصر المعاصرة » العدد ، ٢٤٧ القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٢٤) يمكن أخذ فكرة عن هذه المشاريع بالرجوع الى كتاب مترجم هذه الصفحات : النظام النقدي الدولي . دمشق ١٩٧١ ، ص ٤٧ ـ ٦٧ .

(٢٥) انظر دراسة مفصلة عن « نظام النقد الدولي وحقوق السحب الخاصة » بقلم مترجم هذه الصفحات ، منشور في مجلة « مصر المعاصرة » يناير ١٩٧٠ ، العدد ٣٣٩ ، القاهرة .

(٢٦) كتب المعلق الاقتصادي لجريدة « لوموند » السيد « بول فابرا » أن هذا التقرير عسير الفهم على المختصين وغير المختصين .

من ٢٠ ممثلا عن مجموعة الدول الاعضاء في الصندوق برتبة وزير او حاكم (محافظ) المصرف المركزي ، وترأس هذه اللجنة التي سميت « بلجنة العشرين » ، في ذلك الوقت « علي واردانا » وزير مالية أندونوسيا . كذلك تم تشكيل لجنة أخرى مرتبطة بالاولى هي « لجنة النواب » ، ترأسها موظف كبير في الخزانة البريطانية هو « جرمي مورس »(٢٧). كلفت اللجنة الاخيرة بدراسة الوسائل ، وتقديم الاقتراحات ، من أجل ايجاد نظام نقدي دولي جديد خلال السنتين التاليتين لتاسيسها . ولكن الذي حدث خلال هذه الفترة والذي أدى الى ادخال تغيير أو اضطراب اساسي في العلاقات الاقتصادية الدولية هو الارتفاع المفاجيء والحاد لاسعار النفط وعدد من المواد الاولية الاخرى في آخر عام ١٩٧٣ .

ففي أغلب بلدان العالم الغربي كان هناك اتجاه نحو ارتفاع الاسعار يشغل بال المسؤولين. ولكن هذا الاتجاه قد تحول الى موجة عارمة وغير مالوفة من التضخم . وفي الوقت ذاته وجدت غالبية البلدان الصناعية ان نشاط الدورة الاقتصادية قد تباطأ لديها وان موجة من الركود الاقتصادي أخذت تعم . وفي ظل هذه الظروف رأينا ان العملات يعاد تقييمها سواء بتخفيض بعضها أو رفع قيمة البعض الآخر . وهكذا فان عدم استقرارها لم تعد له من حدود . وتضاءل الحديث عن اعادة الدولار لان يكون قابلا للتحويل ، اذ أن عدم قابليته لذلك اصبحت نهائية .

لم تكن هناك من امكانية اذن للتفاوض والاتفاق على الاخذ بنظام نقدي دولي جديد خلال فترة سنتين . ومع ذلك فان « لجنة النواب » المذكورة تابعت عملها ووضعت الخطوط العامة والاساسية لاصلاح النظام النقدي الدولي ضمنتها في مشروعها الاولي الذي قدم للمسؤولين خلال الاجتماع السنوي للصندوق النقدي الدولي في نيروبي عام ١٩٧٣ . واتفقت « لجنة العشرين » أنها ستنظر في المشروع المذكور ، وأنه من الممكن التوصل الى اتفاق بشأنه قبل نهاية شهر تموز / يوليو عام ١٩٧٤ . وفي ١٤ حزيران / يونيو من العام المذكور قدم مشروع الاصلاح ووافق المدراء التنفيذيون في الصندوق على الاخذ بالاجراءات الانتقالية المقترحة(٢٨) :

---

(٢٧) مثل مجموعة الدول العربية الشرق اوسطية في اللجنة الاولى محافظ البنك المركزي العراقي (الدكتور عبد الحسن زلزلة فالدكتور فوزي القيسي) ؛ وفي اللجنة الثانية الدكتور محمد الاطرش نائب حاكم مصرف سورية المركزي في ذلك الوقت . **المترجم .**

(٢٨) لزيادة في التفصيل يرجى العودة الى بحث :

J. Wolff : L'Europe et les paiements internationaux

المنشور في العدد الثامن ، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ، من مجلة : Le monde moderne.

ـ احداث ما سمي « بالتسهيلات النفطيـة » لتمكين البلدان غير المنتجة للنفط والتي تعرضت موازين مدفوعاتها لصعوبات من جراء ارتفاع سعره ، من مواجهة وتحمل عبء هذا الارتفاع .

ـ اتباع طريقة جديدة في تقييم حقوق السحب الخاصة بالاعتماد على « سلة من العملات ».

ـ الاخذ « بتوجيهات عامة من أجل ادارة معدلات الصرف العائمة » ريثما يتم الاتفاق على الاخذ بنظام نهائي .

هذا وفي الاجتماع السنوي للصندوق الذي تم في واشنطن في ايلول / سبتمبر مـن عام ١٩٧٤ تمت الموافقة على اقتراح لجنة العشرين بالاستعاضة عن اللجنتين المذكورتين بلجنة جديدة سميت « باللجنة الانتقالية » ، وهي لا تختلف في تشكيلها عن « لجنة العشرين » المذكورة أعلاه . وكانت مهمتها متابعة دراسة وضع نظام نقدي دولي جديد ، وبالتركيز خاصـة :

ـ على امكانية زيادة التسهيلات التي تحصل عليها البلدان النامية من الصندوق عن طريق وضع « التسهيلات موسعة » موضع التطبيق .

ـ امكانية الربط بين حقوق السحب الخاصة وحاجات التنمية في البلدان النامية .

وتجاه المقاومة الشديدة التي واجهتها الفكرة الاخيرة ، فقد ألفت لجنة اخرى لدراسة مختلف الاحتمالات لزيادة موارد البلدان النامية ونقل الموارد الحقيقية لصالحها مـن البلدان المتقدمة . وهكذا فقد تم الاتفاق على تشكيل لجنتين :

١ ـ « اللجنة الانتقالية » لمتابعة الامور المتعلقة بالنظام النقدي الدولي وتطويره(٢٩) .

٢ ـ « لجنة التنمية » لدراسة وسائل نقل الموارد الحقيقية للبلدان النامية(٣٠) .

وفي الاجتماع الذي حصل خلال الفترة ٧ ـ ١٠ كانون ثاني / يناير عام ١٩٧٦ في جامايكا توصلت « اللجنة الانتقالية » الى وضع أسس الاصلاح التي ستشكل الاساس لنظام نقدي دولي جديد . أما الموافقة على التعديل الثاني للاتفاقية فسيتم من قبل الدول الاعضاء

---

(٢٩) اقترح أن تصبح هذه اللجنة لجنة دائمة تتمتع بحق اتخاذ القرارات بعد تعديل الاتفاقيـة .

(٣٠) يمثل مجموعة البلدان الشرق أوسطية في لجنة التنمية السـيد عبد اللطيف الحمد . (المترجم) .

وفقا لقوانينها المحلية . وفي الاول من نيسان / ابريل عام ١٩٧٨ حصلت الاتفاقية المعدلة(٣١) على الاغلبية المطلوبة ، أي ٨٠٪ من الاصوات ، واعتبرت نافذة المفعول منذ ذلك التاريخ . وهكذا اصبح نهائيا الاصلاح النقدي الدولي الذي بدأت المحادثات بشأنه منذ نهاية عام ١٩٧١ .

ب ـ مضمون اصلاح النظام النقدي الدولي

بالطبع ، تمت خلال الفترة المذكورة اجتماعات « اللجنة الانتقالية » ولجنة الـ ٢٤ التي تمثل مصالح البلدان النامية ، وكذلك الاجتماعات السنوية للصندوق النقدي الدولي . ولكن الموضوع لا يتقرر في مثل هذه الاجتماعات . انما يتقرر خلال اجتماعات « الكبار » من أصل مجموعة العشرة الذين يمثلون البلدان الصناعية . وهكذا اجتمع مندوبو الدول الكبرى ليضعوا خطوط الاتفاق على ما كانوا قد اختلفوا عليه الاختلاف كله .

ففي تشرين ثاني / نوفمبر من عام ١٩٧٣ اجتمع وزراء مالية الولايات المتحدة وانكلترا والمانيا وفرنسا واليابان . وفي نيسان / ابريل من عام ١٩٧٤ اجتمع وزراء الدول التسع الاعضاء في السوق الاوروبية المشتركة . وفي كانون أول / ديسمبر من عام ١٩٧٤ اجتمع الرئيس الفرنسي جسكار ديستان مع الرئيس الامريكي فورد . وفي الشهر المذكور ذاته من عام ١٩٧٥ اجتمع في « رامبوييه » في فرنسا مندوبو الولايات المتحدة وانكلترا والمانيا وفرنسا وايطاليا واليابان . وما زالت هذه الاجتماعات مستمرة من وقت لآخر .

كان أهم ما في هذه الاجتماعات الحوار حول الخلاف بين وجهة النظر الفرنسية وتلك الامريكية حول طريقة وهدف اصلاح النظام النقدي الدولي . واتفق المختلفون . وهكذا ولد النظام النقدي الجديد في اجتماع « جامايكا » المذكور . سنحلل هذا النظام الجديد وفق الطريقة ذاتها التي اتبعناها في تحليل النظام السابق ، أي بتحليل المبادىء الثلاث التالية :

---

(٣١) ادخل التعديل الاول على اتفاقية « بريتون ـ وودز » عام ١٩٦٩ حيث تم الاتفاق على احداث حقوق السحب الخاصة .

١ ـ عمليات الصندوق النقدي الدولي

ذكرنا أنه بموجب أحكام المادة الخامسة من اتفاقية « بريتون ـ وودز » يمكن لكل عضو في الصندوق أن يشتري من عملة عضو آخر مقابل عملته . ويمكن لهذا العضو أن يمارس هذا الحق بحدود نسبة ٢٥٪ من حصته سنويا ودون أي شرط (وهذا ما يسمى بالسحب على الشطر الذهبي) ، وبالتشاور مع الصندوق للحصول تدريجيا على أربعة سحوبات اخرى ، تشاور الغاية منه الاتفاق حول بعض التدابير الواجب اتخاذها داخل البلد الساحب والتي تتصاعد في شدتها في الانتقال من السحب الاول للثاني ... وذلك بهدف التوصل الى تحقيق اعادة توازن ميزان مدفوعات البلد المعني[٣٢] .

تضمن اصلاح أو تطوير النظام النقدي الدولي زيادة عمليات الدول الاعضاء في الصندوق مع هذه المؤسسة من حيث زيادة « حقوق السحب » التي تحصل عليها منه :

أ ـ التسهيلات أو السحوبات النفطية

أدى ارتفاع سعر النفط في نهاية عام ١٩٧٣ الى تعرض موازين مدفوعات بعض البلدان الى عجوز مختلفة في درجة حدتها . والاستعانة بالاستقراض من أجل الحد أو تخفيف هذا العجز هي محدودة بمقادير الديون المعقودة سابقا ، كما أن زيادة الاعتماد على رؤوس الاموال الخاصة الخارجية من شأنه زيادة الخلل النقدي الدولي . لذلك فان « لجنة العشرين » تدارست في بداية عام ١٩٧٤ كيف يمكن للصندوق أن يعمل على اعادة تدوير حركة الاموال النفطية . وطبعا تم التوصل الى طريقة بدأ الاخذ بها في ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٧٤ . وبموجب هذه الآلية النفطية يمكن للصندوق أن يقترض عملات البلدان التي تكون موازين مدفوعاتها في حالة فائض ، وتمكين البلدان التي تكون موازين مدفوعاتها في حالة عجز من السحب على الصندوق بحدود ٧٥٪ من حصة كل منها عام ١٩٧٤ ، و ١٢٥٪ من حصة كل منها عام ١٩٧٥ . وبالمقابل ، يتوجب تسديد هذه السحوبات بعد ثلاث

(٣٢) تمثل السحوبات العائدة للشطر الذهبي (الشريحة) الاول بالذهب الذي دفعه العضو للصندوق كجزء من حصته (٢٥٪ من الحصة تدفع بالذهب ، يسدد الباقي بالعملة المحلية) . تدعى السحوبات الاخرى بالسحب على الشطر التسليفي (أو الشريحة الائتمانية) . انظر تفصيل ذلك في كتاب المترجم لهذه الصفحات ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ، النظام النقدي الدولي ، دمشق ١٩٧١ .

سنوات على ثماني دفعات نصف سنوية متساوية . وتستطيع البلدان الدائنة استعادة قروضها قبل تسديدها من قبل البلدان المدينة ، ذلك انه اذا انقلب وضع ميزان مدفوعات بعضها من الفائض الى العجز ، فيمكن التنازل عن الدين لصالح بلد ثالث . وكان الصندوق قد حصل على ثلاث مليارات من الدولارات عام ١٩٧٤ لتمويل هذه العملية ، كما حصل على ٣ر٩ مليار عام ١٩٧٥ لتحقيق الهدف ذاته . وهكذا فانه استقرض من ١٧ دولة عضو ليقرض ٥٥ دولة عضو . وشكلت هذه السحوبات النفطية أكثر من ثلث زيادة أسعار النفط بالنسبة الى البلدان المستوردة . وانتهى العمل بهذه التسهيلات النفطية عام ١٩٧٦ على اعتبار انها أحدثت على أساس موقت .

ب ـ السحوبات الموسعة

قرر الصندوق النقدي الدولي في ١٥ أيلول / سبتمبر من عام ١٩٧٤ تقديم مساعدات مالية خاصة للبلدان الاعضاء التي عليها أن تواجه خللا شديدا في اقتصادها بسبب عدم مرونة البنية الهيكلية لاقتصادها ، أو بسبب خلل شديد في الاسعار ، أو بسبب عدم تمكنها من اتباع سياسة فعالة في مجال التنمية بسبب أوضاع موازين مدفوعاتها . يمكن لهذه البلدان ، خلال ثلاث سنوات ، أن تسحب على الصندوق في حدود ١٤٠٪ من حصصها . أما عن أمد التسديد ، فانه لا يستحق الا بعد تحسن أحوالها ، ولكن بحد أقصى مقداره ثماني سنوات بعد كل عملية سحب . ومن أجل التمكن من الاستفادة من هذه « التسهيلات الموسعة » ، على البلد أن يتفق مع الصندوق على برنامج تتحدد فيه بصورة دقيقة السياسة الاقتصادية الواجبة الاتباع من أجل تصحيح الاوضاع . كما أن تقييما لنتائج هذا البرنامج يجري كل عام للاطلاع على مدى التقدم الحاصل .

ج ـ توسيع التمويل التعويضي(٣٢)

أحدث الصندوق النقدي الدولي عام ١٩٦٣ نظام المساعدة المالية الاضافية التي تسحب بشكل شبه آلي ، أي بحد أدنى من الشروط ، من أجل تعويض تدهور شديد وغير متنبأ به لحصيلة الصادرات . وبذلك يكون البلد العضو مؤهلا للحصول على سحوبات اضافية

---

(٣٢) أنظر في ذلك مقال الدكتور محمد الاطرش : دراسة حول بعض المشاريع لزيادة السيولة الدولية ، مجلة الابحاث ، بيروت ١٩٦٦ . (المترجم) .

يمكن أن تبلغ ٥٠٪ من حصته ، تستخدم على مدى سنتين . وجرى توسيع أو زيادة مقدار هذا التسهيل المالي في ٢٩ كانون أول / ديسمبر من عام ١٩٧٥ . وهكذا فان البلد العضو الذي يتفق مع الصندوق على شروط محددة يمكن أن يسحب في سنة واحدة ٥٠٪ من حصته تحت بند التمويل التعويضي ، ويمكن زيادة هذه النسبة حتى ٧٥٪ .

د ـ زيادة نسب الشطور التسليفية

درست « اللجنة الانتقالية » في اجتماعها في كانون الثاني / يناير في جامايكا امكانية توسيع حجوم أو زيادة نسب الشطور (أو الشرائح) التسليفية على أساس حقوق السحب على الصندوق من قبل الدول الاعضاء وكانت للبلدان النامية أو المتخلفة رغبة في أن تكون زيادة حقوق السحب غير المشروطة أكبر من زيادة حقوق السحب التي تتزايد الشروط على منحها وفقـا لنوعها . ولكن اللجنة المذكورة لم تاخذ بهذا الرأي وقررت أن تزداد بشكل موحد الشطور التسليفية الاربع في حق السحب وبنسبة قدرها ٤٥٪ وهكذا فان كل شطر (أو شريحة) في حق السحب قد ازداد من ٢٥ ٪ الى ٣٦٫٢٥٪ على أساس حصة الدولة العضو .وقرر مجلس المدراء التنفيذيين تطبيق هذه القاعدة على أساس الحصص القائمة في ذلك الوقت ، على أن يتم تعديلها تبعا للزيادة المقبلة للحصص .(٣٤)

انه من الصعب التحديد بدقة مقدار الزيادة في الاقراض التي قررها الاصلاح والتـي سيمنحها الصندوق النقدي الدولي للدول الاعضاء . ذلك أن هذه الحقوق في السحب ليست مستقلة عن بعضها ، بل هي تتراكم ضمن حدود وعلى اساس من الحسابات المعقدة . على انه ليس هناك من شك في أن الصندوق زاد بشكل محسوس مساعداته المالية للدول اعضاء فيه ، وخاصة لصالح البلدان النامية أو المتخلفة . وفيما يتعلق بزيادة الحصص التي كانت موضع دراسة ، فان البلدان النفطية ستحصل على زيادة في حصصها تتراوح بين ٥ ـ ١٠٪ ، في حين أن حصص البلدان المتقدمة ستهبط بالنسبة نفسها . أما البلدان النامية غير المصدرة للنفط فستبقى حصصها محددة بـ ٢١٪ . ولم تتمكن هذه البلدان الاخيرة من ترجيح اقتراحها بخلق وحدات جديدة من حقوق السحب

---

(٣٤) حدد مقدار الحصص بمقدار سبعة مليارات وسبعة مئة مليون دولار لدى احداث اتفاقية « بريتون ـ وودز » . ثم زيدت الى ٢٩٢٠٠ مليارا : لتبلغ وفقا للزيادة الاخيرة ٣٩ مليار دولار .

الخاصة لا يتم توزيعها تبعا لحصص الدول الاعضاء في الصندوق ، الامر الذي حقق ميزات للبلدان الغنية ، ولكن تبعا لحاجات الدول الاعضاء ، الامر الذي يمكن له أن يحقق ميزات للبلدان الفقيرة .

٢ ــ النظام الجديد للذهب والتخلي عن مبدأ قابلية التحويل

أدى الاصلاح الحالي للنظام النقدي الدولي الى ازالة الدور الرسمي والتقليدي للذهب في النظام المذكور ، وبالتالي الى تقليص امكانيات قابلية تحويل مختلف العملات الى هذا المعدن الثمين . واذا كانت الدول الاوروبية تمكنت من اقناع الولايات المتحدة بعدم اخراج المعدن الاصفر نهائيا من اطار النظام النقدي الدولي الجديد ، فانه اتفق بالمقابل على زوال الدور الذي خصص له في اتفاقية « بريتون وودز » .

أ ــ التعامل ضمن نطاق المصارف المركزية

لا تسمح قواعد الصندوق النقدي الدولي للمصارف المركزية في الدول الاعضاء بشراء الذهب من السوق الحرة باعلى من سعره الرسمي ــ الامر الذي يؤدي الى تزايد أسعاره ــ ، كما لا تسمح ببيعه باقل من السعر الرسمي أيضا ــ الامر الذي يزيد من انخفاض أسعاره ــ وهكذا فانه عندما ازداد سعر الاونسة الصافية من الذهب عن ٣٥ دولار في أسواق الذهب ، فان المصارف المركزية تدخلت في هذه الاسواق بائعة ، ولم تتمكن من بدء عملية الشراء الا بعد ما عاد سعر الاونسة من المعدن الثمين الى ٣٥ دولارا . وكانت المضاربة في الاسعار شديدة الحدة لدرجة أنه في ١٧ اذار ــ مارس من عام ١٩٦٨ اتفقت أهم المصارف المركزية على عدم تموين السوق الحرة ، أي الا تتدخل بائعة للمعدن الثمين . وكان من نتيجة ذلك ، ومنذ ذلك الوقت ، أن ازداد السعر الحر للذهب بالعديد من المرات على سعره الرسمي . واستمرت المصارف المركزية في سياسة عدم التدخل لابائعة ولا مشترية .

ولكن المصارف المركزية الهامة قررت ايقاف العمل بقرارها السابق المذكور والعودة في ١٣ تشرين ثاني ــ نوفمبر ١٩٧٣ ، للتدخل وبيع الذهب في السوق الحرة . وقررت الولايات المتحدة بدورها السماح لرعاياها باقتناء الذهب ، وللخزانة الامريكية ببيع

جزء من موجوداتها من هذا المعدن في مناقصات ، والسماح بقيام سوق حرة للذهب ـ وذلك لاول مرة منذ عام ١٩٣٤ ـ بحيث تتمكن المصارف الفيدرالية (اي المصرف المركزي للولايات المتحدة) من بيع بعض ما في حوزتها من المعدن المذكور (٢٥) . ولكن اذا كان قد سمح للمصارف المركزية ببيع الذهب بسعر السوق الحرة ، فلم يكن من المسموح لها بان تتدخل في هذه السوق مشترية ، وذلك حتى تاريخ دخول التعديل الجديد لاتفاقية الصندوق الذي اصبح نافذ المفعول اعتبارا من اليوم الاول من الشهر الرابع من عام ١٩٧٨ . وخلال الفترة السابقة للتاريخ المذكور ، وافقت المصارف المركزية لمجموعة الدول العشر أن تحد من الزيادة الاجمالية لموجوداتها من الذهب خلال فترة سنتين . يمكن ان تتبادل او تتعامل بالذهب فيما بينها ، ولكنها لن تتدخل في السوق مشترية بسعر السوق . كما وافقت هذه المصارف على ان تقدم تقريرا ربعيا عن عملياتها وتعاملها بالذهب لمصرف التسويات الدولية ، وذلك لكي تتجنب ان تكون تحت رقابته (٢٦) .

ب ـ السعر الرسمي للذهب

منذ ان اصبح سعر الذهب في السوق الحرة أربع أو خمس أمثال سعره الرسمي الذي كان يعادل ٣٥ دولارا ، ثم ٣٨ر٢٢ دولارا للاونسة الواحدة من الذهب الخالص ، فان السعر الرسمي هذا لم يعد منطقيا ومبررا . لذلك فان غالبية البلدان الاوروبية طالبت الولايات المتحدة أن تتبنى سعرا أكثر واقعية . وهكذا تم الاتفاق في شهر نيسان ـ ابريل من عام ١٩٧٤ على تبني سعر أقرب الى سعر السوق الحرة ، وذلك من أجل .

ـ ضمان القروض بالعملات الاجنبية فيما بين المصارف المركزية الاوروبية(٢٧) .

---

(٢٥) لم يبد الشعب الامريكي حماسة لاقتناء الذهب في البداية . ففي المناقصة التي تمت في ٦ كانون ثاني ـ يناير من عام ١٩٧٥ ، بيعت كمية ٢٣ طنا من أصل ٦٢ طنا كانت موضوع المناقصة .

(٢٦) يشتري مصرف التسويات الدولية الذهب لحساب المصارف المركزية الاوروبية ، والصندوق النقدي الدولي يتجاهل هذه العملية .

(٢٧) وهكذا فان ايطاليا اقترضت مليباري دولار من المانيا في شهر آب ـ أغسطس عام ١٩٧٤ مقابل ضمان بالذهب على أساس سعر الاونسة ١٢٠ دولار (كان السعر في السوق الحرة في ذلك الوقت حوالي ١٥٠ دولار) .

ـ تسديد القروض فيما بين هذه المصارف ضمن اطار الاتفاق على تضييق هوامش تذبذب أسعار السوق الذهبية(٣٨) .

ـ لتصنيف بند احتياطياتها المعدنية في الطرف الدائن في جداول محاسبتها ، وذلك تبعا لتعريف كل مصرف مركزي من المصارف المذكورة لهذا البند (٣٩) .

هذا وتم الاتفاق على طلب كل من المانيا وانكلترا وهولند بان يكون التعامل بالذهب على سبيل الاستثناء والا تتم تسوية أرصدة موازين المدفوعات بالذهب ، الامر الذي من شانه أن يؤدي الى عودة اوروبا بشكل مالي الى قاعدة الذهب . ولم توافق الولايات المتحدة على الاتفاق الاوروبي لان بلدان هـذه المنطقة من العالم قد التزمت بعد تحديد سعر رسمي للذهب تسوى على أساسه المعاملات الرسمية كافة . وبتعبير آخر ، لا يحق للمصارف المركزية الاوروبية التداخل في السوق من أجل تثبيت سعر الذهب . بل عليها أن تتبنى سعر السوق وتتعامل بموجبه .

جـ ـ معاملات الصندوق النقدي الدولي

ولكن من غير الممكن للذهب أن يفقد دوره الرسمي فعلا اذا كانت مازالت في حوزة الصندوق النقدي الدولي كمية كبيرة من هذا المعدن(٤٠) . لذلك فان قرارا اتخذ في اجتماع «جامايكا» المشار اليه أعلاه بان يقوم الصندوق النقدي الدولي باعادة سدس مخزونه من الذهب (٢٥ مليون اونسة) الى الدول الاعضاء ، وبذلك يكون أعاد اليها جزءا من الذهب الذي دفعته لدى انتسابها لعضوية الصندوق . اما السدس الآخر فيجري بيعه في السوق

---

(٣٨) رفضت ايطاليا أن تدفع بالذهب حتى يجري اتفاق على سعر جديد للذهب يختلف عن السعر الرسمي ٢٢ر٤٢ دلاور .

(٣٩) اعتبارا من أول كانون ثاني ـ يناير عام ١٩٧٥ عمدت فرنسا في جدول ميزانية مصرفها المركزي الى تقييم سعر موجوداتها من الذهب بسعر قريب من السعر الوسطي لسوق الذهب في باريس خلال الربيع السابق . وسجل الفارق في بند المطاليب (او الخصوم) تحت عنوان « احتياط اعادة التقييم » .

(٤٠) يتشكل الذهب الذي في حوزة الصندوق أساسا من مجموع نسب الـ ٢٥ ٪ التي تدفعها الدول من أصل حصصها لديه بالذهب ، أي ما يعادل ٧٧٠ر٤ طنا او ٤٧٧ر٦ مليار دولار في ٢٠ نيسان ـ ابريل ١٩٧٦ .

الحرة على أساس المزاد ، ويخصص الفائض من فارق السعر لمساعدة البلدان النامية او المتخلفة : مباشرة باستعادتها حصصها من الذهب ، وبصورة غير مباشرة عن طريق احداث « الصندوق الائتماني » Trust Fund, Fonds fiduciaire الـذي سيتم تمويله من حصيلة بيع الحصص بالذهب العائدة للبلدان المتقدمة . ويؤمن هذا الصندوق، الذي يغذى أيضا بقروض من قبل بعض الدول الغنية ، تسهيلات مالية بسعر فائدة منخفض جدا (٥ر. ٪) للبلدان الاقل نموا من البلدان النامية . هذا ويلاحظ ان الصندوق النقدي الدولي لم ينتظر حتى تعديل اتفاقية « بريتون ــ وودز » من أجل بيع الذهب بالمزاد ، بل لجأ الى ذلك قبل أن يصبح التعديل قانونيا وأعلن عن بيع الذهب بالمزاد كل ستة أسابيع ومن ثم كل شهر(٤١) .

وبناء على ما تقدم يتوجب على الصندوق أن يبيع ٥٠ مليون اونسة من الذهب (١٥٥٥ طنا) . على أن المادة الخامسة من الاتفاقية المعدلة تذهب لابعد من ذلك حين سمحت للصندوق ان يتابع عمليات بيع الذهب اذا وافقت أغلبية ٨٥ ٪ من أصوات الدول الاعضاء على ذلك . وهكذا يصبح من الممكن بيع الكميات المتبقية من الذهب اما بالسعر الرسمي للبلدان الاعضاء تبعا لحصصها ، أو بسعر السوق للبلدان الاعضاء أيضا أو لمؤسسات اخرى . وفي هذه الحالة الاخيرة ، يوضع فائض ــ القيمة الناجم عن فارق السعر بين السوق الحرة والسعر الرسمي في « حساب خاص » ريثما يتم استعماله لصالح البلدان الاقل نموا من البلدان النامية . ومن تحصيل الحاصل الاشارة الى أنه ليس من حق الصندوق أن يضع سعرا محددا للذهب ، شأنه في ذلك شأن المصارف المركزية . أي أن عليه أن يتبع حركة سعر الذهب في السوق الحرة وليس توجيهها ، هذا اذا استبعدنا كلمة مراقبتها (٤٢) .

ومن أجل أن يفقد الذهب صفته الرسمية ، لم يعد يحق للصندوق النقدي الدولي أن يتابع بصورة نظامية التعامل بالذهب . وقد تم تعديل نظام الصندوق على هذا الاساس:

---

(٤١) في حين أنه يمتنع على الصندوق قانونا القيام بعملية البيع في السوق الحرة قبل الموافقة على تعديل الاتفاقية ودخولها حيز التنفيذ . (دخلت حيز التنفيذ في أول الشهر الرابع من عام ١٩٧٨) .

(٤٢) بموجب البند ١٢/د من المادة الخامسة يمكن لبلد عضو أن يدفع للصندوق بالذهب مقابل حصوله على عملات أجنبية ، أو سحوبات على الصندوق ، أو تسوية فوائد على التزاماته تجاه هذه المؤسسة ، وذلك على أساس السعر الحر للذهب .

لا يحق للصندوق أن يبيع ذهبا لبلد ما اذا كان يريد عملتها ، بل يمكنه فقط أن يبيعها « حقو قسحب خاصة » . بالاضافة الى ذلك فانه كلما جرت زيادة في الحصص ، فان ٢٥ ٪ من هـذه الزيادة كانت تدفعها الدول الاعضاء بالذهب بموجب احكـام الاتفاقيـة الاصلية أي « بريتون — وودز » ، أما بعد تعديل الاتفاقية فان دفعها يتم « بحقوق سحب خاصة » ، حيث يحددالصندوق العملات التي تتشكل منها وحدات هذه الحقوق ، كمـا يمكن أن يتم بالعملة الوطنية .

٣ — التخلي عن مبدأ ثبات سعر الصرف : النظام الجديد لاسعار العملات فيما بينها .

أشير الى أن اتفاقية « بريتون — وودز » كانت قد وضعت أسس نظام نقدي دولي يقوم على مبدأ ثبات أسعار الصرف ، مع السماح بتذبذبات كل عملية بنسبة لاتزيد عن ١ ٪ صعودا أو هبوطا عن سعر التعادل ، ومع السماح ايضا بتغيير سعر التعادل ذاته بابلاغ الصندوق من قبل البلد العضو الراغب في التعديل اذا كانت النسبة في التعديل تزيد عن النسبة المذكورة . ولكن ذلك كله سار في طريق التغيير ، وتمكنت الولايات المتحـدة الامريكية خلال مراحل المفاوضات بشأن اصلاح النظام النقدي الدولي من تثبيت الامر الواقع الذي ساد منذ سنوات في أسواق أسعار الصرف بالحدود المذكورة أعلاه . وهكذا فانه بموجب الاتفاقات الجديدة أصبحت كل دولة أكثر حرية في تحديد اسعار عملتهـا بالنسبة الى العملات الاخرى ، وبالتالي وفي الوقت ذاته أقل تقيدا واحتراما للقواعـد النقدية الدولية التي كانت متفقا عليها .

أ — النظام الحالي

اشار المدراء التنفيذيون للصندوق النقدي الدولي خلال مناقشات اصلاح النظام النقدي الدولي الى أن الغاية الاساسية من النظام المذكور هي قدرته على تامين تسهيل حركة تبادل السلع والخدمات وتنقل رؤوس الاموال بين الدول(٤٣) . وأن الهدف الرئيسي للنظام

(٤٣) حددت المادة الاولى من اتفاقية بريتون — وودز أهداف الصندوق بالاشارة الى ضرورة « انعاش وزيادة حجم التجارة الدولية بصورة متناسقة » ، وهـذا يشمل تبادل السلع والخدمات وليس رؤوس الاموال . ويذهب التعديل الجديد للاتفاقية لابعد من ذلك بغاية زيادة نطاق حرية المبادلات .

أيضاً هو تأمين الشروط الضرورية للاستقرار الاقتصادي المالي . وبالتأكيد فان كلمتي الحرية والاستقرار هما التعبيران الرئيسيان في صلب النظام الجديد .

ـ فبموجب المادة الرابعة بصيغتها الجديدة يلتزم كل بلد عضو بالتعاون مع الصندوق وبقية الدول الاعضاء بالسعي لتحقيق نظام مستقر وثابت لاسعار الصرف . ويمكن التوصل الى وضع من الاستقرار أو عن طريق الثبات هذا من خلال السياسات الاقتصادية والنقدية والمالية اللازمة حيث يكون عامل الثبات أو الاستقرار هذا نتيجة طبيعية . ولكنه ، اي مبدأ ثبات واستقرار اسعار الصرف ، لا يشكل نقطة الانطلاق التي تلتزم بها كل دولة عضو في الصندوق ، بل أصبح الهدف ، أو نقطة الوصول التي يجب السعي لبلوغها (٤٤) .

على أن المركز الذي احتله المفهوم الجديد للحرية الممنوحة للدول الاعضاء في هذا المجال قد منحها درجة كبيرة من المرونة في مدى احترامها لالتزاماتها . فالمادة الرابعة من النص المعدل للاتفاقية تنص على أن « الوضع الخاص بكل بلد عضو سيؤخذ بالتأكيد بعين الاعتبار » . وأنه يتطلب من البلد العضو فقط « أن يعمل على توجيه سياسته » ، وأن « يسعى لتحقيق الاستقرار » ، وان « يتجنب التلاعب باسعار الصرف » ، وأن عليه ان يسعى لتحقيق « ثبات معقول للاسعار » . أنه لا يمكن الاستنباط من هذه الاحكام انها تتضمن طابع الالزام أو الاجبار .

وبتجاوز هذه الاحكام العامة ، تذهب الاتفاقية المعدلة الى أنه يتوجب على الدول الاعضاء اتخاذ ترتيبات معينة فيما يتعلق بشؤون أسعار الصرف ، ولكن درجة حرية الدول الاعضاء في هذا المجال هي أيضاً واسعة . اذ تكتفي الاتفاقية المعدلة بالتركيز على أحكام معينة وقبول بقية الاحكام . وهكذا يمكن لبلد عضو أن يختار تعريف وتثبيت سعر عملته بالنسبة الى حقوق السحب الخاصة ، بالنسبة الى عملة أخرى لدولة عضو ، بالنسبة الى مجموعة من عملات الدول الاعضاء ... أو ان يختار تعويم عملته بصورة حرة في أسواق الصرف للعملات الاجنبية . وكل ما هو مطلوب من هذا البلد أن تكون السياسة التي يتبعها في هذا المجال متوافقة مع أهداف الصندوق النقدي الدولي . وكل ما هو محظر عليه ينحصر بعدم قياس عملته أو ربطها بالذهب . على أن هذا البلد عليه الالتزام بتطبيق النظام الذي يختاره بعد ان تتم عملية الاختيار . ذلك أن حرية الخيار لا تعني حرية

(٤٤) اشار لذلك تقرير مصرف التسويات الدولية في تقريره عن عام ١٩٧٦ ص ١٢١ .

التصرف بعد الاختيار(٤٥) . وعلى هذا الاساس فانه يتوجب على كل بلد أن يشعر الصندوق خلال ثلاثين يوما من الموافقة والتصديق على التعديلات على الاتفاقيـــة بالاحكام التي اختارها(٤٦) ، كما يتوجب عليه أن يشعره « دون تأخير » بالتعديلات كافة التي يوافق أما عن تامين تسيير وتطبيق أحكام الاتفاقية المعدلة أو النظام النقدي الدولي الجديد فانه منوط بالصندوق النقدي الدولي . وبذلك عليه :

ـ أن يمارس « رقابة شديدة » على سياسة أسعار الصرف التي تمارسها الدول الاعضاء، ويتوجب على هذه البلدان أن تتعاون مع الصندوق بأن تقدم له المعلومات الضرورية ، وأن تتشاور معه لدراسة سياساتها في مجال اسعار الصرف . على أن سير التعامـــل هو الذي يحدد الشروط التي سيمارس الصندوق على أساسها الرقابة المذكورة . وهذه الشروط ، بشكلها الذي ستكون عليه ، ستحدد مدى فاعلية النظام النقدي الدولي الجديد(٤٧) .

ـ وضع المبادىء التي من شأنها ارشاد الدول الاعضاء في ممارستها ورسمها لسياسات الصرف بالعملات الاجنبية التي تسكها . على انه لابد لدى وضع هذه المبادىء مـن أن يؤخذ بعين الاعتبار احترام السياسة الداخلية لكل بلد ، وكذلك وضعه الخاص. وكـان مدير الصندوق قد أعلن انه من الممكن تعديل أو تغيير هذه المبادىء من وقت لآخر ، وذلك لجعل النظام النقدي الدولي الجديد يتكيف ويتطور مع تغير الظروف والاوضاع .

ان هذا التكيف مع تغير الظروف والاوضاع هو الذي كان وراء مضمون التعديلات الجديدة للاتفاقية من أجل استبدال نظم أسعار التعادل بالنظام الحالي .

---

(٤٥) كما أشار لذلك مدير الصندوق النقدي الدولي في المؤتمر الصحفي الذي عقـده في ٢٢ حزيران ـ يونيو عام ١٩٧٦ . أنظر نشرة الصندوق ، ص ١٨١ ؛ ٢٨ حزيران ـ يونيو ١٩٧٦ .

(٤٦) الامر الذي يعني أنه لن يكون هناك سعر تعادل لدى وضع التعديل للاتفاقية موضع التطبيق ... وذلك بانتظار الموافقة الرسمية لكل بلـد على السعر الجديد الـذي سيبلغه للصندوق .

(٤٧) وذلك مع الاخذ الاعتبار الالتزام بقاعدة « الشروط الخاصة » بكل بلد عضو

ب ـ نظام أسعار التعادل

تسمح المادة الرابعة الجديدة من تعديل اتفاقية « بريتون ـ وودز » للصندوق النقدي الدولي أن يضع « نظاما عاما لترتيبات شؤون الصرف يقوم على أساس اسعار التعادل الثابتة ولكن القابلة للتعديل » . وبناء عليه تقوم الدول الاعضاء بوضع تعريفات لاسعار تعادل عملاتها(٤٨) وتلتزم ـ عن طريق تدخل مصارفها المركزية ـ بالحفاظ على تذبذبات أسعار الصرف ضمن حدود معينة . ولاشك أن هذا النظام يختلف اختلافا كبيرا عن النظام الذي كان متبعا في ظل اتفاقية « بريتون ـ وودز » قبل تعديلها الاخير .

ـ والنظام الجديد أكثر مرونة . فمن جهة ، ليس هناك الزام على أي بلد عضو الانتساب لهذا النظام الجديد ووضع سعر تعادل لعملته . ومن جهة ثانية ، فان حدود التذبذبات لاسعار الصرف المسموح بها لن تكون محدودة بنسبة ١ ٪ كما في الاتفاقية قبل التعديل ، ولكن بنسبة ٤،٥٪ زيادة أو نقصا عن سعر التعادل المعلن ، كما أنه يمكن تغيير هذه النسبة الاخيرة بأغلبية ٨٥ ٪ من أصوات البلدان الاعضاء . واخيرا ، يمكن لاي دولة عضو ان تغير سعر تعادل عملتها في اي وقت ، ليس فقط من اجل تصحيح خلل أساسي او جوهري في ميزان مدفوعاتها ، كما كان عليه الامر في ظل الاتفاقية قبل التعديل وكما هو مذكور أعلاه ، بل ايضا من أجل تجنب حدوث مثل هذا الخلل . ايعني هذا أن تخفيض العملات سيصبح ظاهرة متكررة ؟ الجواب هو النفي لان النظام سيخضع لدرجة اكبر من الرقابة .

ـ سيكون النظام النقدي الدولي الجديد أكثر خضوعا للرقابة لان الصندوق النقدي الدولي سيكون المرجع في اعطاء موافقته بخصوص اختيار سعر التعادل الاصلي أو الاول ، كما أنه لابد من استشارته قبل ادخال اي تعديل على سعر التعادل المعلن ، وبالتالي لابد من اخذ موافقته من اجل الاعلان من قبل اي دولة عضو عن سعر تعادل جديد تختاره . يضاف الى ذلك أنه يمكن للصندوق أن يعارض ، بأغلبية ٨٥ ٪ من الاصوات ، الغاء

(٤٨) للبلدان الاعضاء أن تحدد سعر التعادل بالنسبة الى عملة أخرى من العملات ، بحقوق السحب الخاصة ... ولكن ليس بالذهب الذي أصبح من المحظر اعتباره القياس أو المعيار لتحديد أسعار تعادل العملات .

سعر تعادل من شأنه أن يعيد وضع سياسة صرف البلد الى أحكام النظام السابق(٤٩) . واذا كان لا يحق للصندوق أن يقترح تغيير سعر تعادل عملة بلد من البلدان الاعضاء ، فانه يتوجب عليه « الا يشجع المحافظة على سعر تعادل غير واقعي من قبل دولة عضو » .

ان الاخذ بمثل هذا النظام النقدي الدولي الجديد ، الذي لابد لاقراره من توفر أغلبية ٨٥ ٪ من الاصوات في الصندوق ، يتطلب أن يتحقق نوع من الاستقرار في الاقتصاد الدولي ، يصاحبه تطور مقبول في الاسعار وفي معدلات التنمية في البلدان الاعضاء . وكذلك لابد ، لكي يأخذ النظام الجديد مجراه ، من ان تكون البلدان الاعضاء اتفقت بشأن سير عملية تصحيح أو تسوية موازين مدفوعاتها ، وبشأن الطرق والاشكال التي تتدخل فيها مصارفها المركزية في أسواق الصرف ، واخيرا بشأن كيفية معالجة موضوع الارصدة . فمن المعروف أنه في ظل نظام ثبات أسعار التعادل ، تتعرض موازين المدفوعات لان يظهر فيها رصيد لابد وأن يكون موضوع تسوية في يوم من الايام . أي أنه لا يمكن تحقيق نوع من الاستقرار في اسعار صرف العملات دون أن تصاحب ذلك قابلية في التحويل .

ولكن العودة الى مثل هذا النظام شبه مستحيلة . فالولايات المتحدة الامريكية ، التي بدون تصويتها لاتتحقق أغلبية ٨٥٪ ، ليست على استعداد للحديث عن أي التزام بخصوص العودة الى نظام قابلية التحويل ، هذا النظام الذي يعتمد الاخذ به على أن تعمل بـــه الولايات المتحدة بالدرجة الاولى . لذلك فان مسؤولي البلد المذكور يعتبرون من المقتنعين، وبالتالي الداعين ، لنظام أسعار الصرف المتغيرة . وكان وزير الخزانة الامريكي قد صرح عام ١٩٧٥ أن تحديد قيمة الدولار يجب أن يتحدد فقط على أساس قوى السوق ، أي العرض والطلب ، وليس على أساس تدخلات رسمية تحكمية . كما انه طور هذا المفهوم في خطابه السنوي بمناسبة الاجتماع الدوري للصندوق في عام ١٩٧٦ في « مانيلا » مشيرا الى انه يجب الا ينظر الى قوى السوق على أنها عدو تجب مقاومته باي ثمن ، بل علـى انها انعكاس ضروري وصادق للشروط والاوضاع المتغيرة للاقتصاد الدولي .

وجملة القول ليس هناك من أمل حاليا وفي الغد بالعودة الى نظام ثبات اسعار الصرف .حقا ان اهمية قواعد الثبات أو الاستقرار في أسعار الصرف هي كاهمية قواعد قابلية التحويل

---

(٤٩) لا يمكن لبلد عضو أن يحصل على موارد من الصندوق اذا لم يطلب ذلك واذا لم يحصل على موافقته . واذا اتخذ قرار بأغلبية ٨٥ ٪ من الاصوات ، يمكن ، بعد فترة معقولة ، تعليق عضوية العضو أو خروج هذا العضو من الصندوق .

من اجل وصف اي نظام نقدي دولي . ولكن الاصلاح النقدي الاخير قد أزال موضوع قابلية التحويل نهائيا . لذلك فان السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو اذا كان قد تجم فعلا نظام نقدي دولي جديد يستحق هذه التسمية بعد التعديل الاخير لاتفاقية « بريتون ــ وودز » في جامايكا(٥٠) .

خلاصــة :

رغم أن العمل على اصلاح النظام النقدي الدولي قد امتد وبصورة كثيفة لفترة خمس سنوات خلت ، فلا يمكن القول ان هذا الاصلاح يشكل نجاحا . ذلك ان النظام الجديد رمى الى صبغ صفة الشرعية على الممارسات الفعلية القائمة والحلول التي اقترحتلواجهة الانهيار التدريجي لنظام او اتفاقية « بريتون ــ وودز » التي وضعت عام ١٩٤٤ . كذلك فانه لم توضع أية قاعدة محددة لكيفية سير العمليات الاساسية التي يصعب تصور وجود علاقات مالية دولية متناسقة دونها . بل انه لم يجر البحث عن فلسفة مشتركة لتأمين حد أدنى من التناسق بين البلدان الاعضاء في الصندوق والنظام الاصلاحي الجديد . فالفروقات بين وجهات نظر هذه البلدان بشأن التوصل للنظام النقدي الدولي الموافق مازالت متناقضة . ذلك أن النظام الجديد الذي تم التوصل اليه ليس في الحقيقة الا تآلف وجهات نظر مصلحية . فالولايات المتحدة حصلت على ما تريد وهو مرونة اسعار الصرف ، وبلدان اوروبا الغربية حصلت على ما ترغب فيه وهو عدم التخلي كلية عن الذهب ، وبلدان العالم الثالث وضعت أمام مرحلة انتظار قيام الصندوق النقدي الدولي بتخصيص بعض « القوائم » المالية الاضافية لصالحها . ومن المهم الاشارة في كل الاحوال الى ان الولايات المتحدة الامريكية حصلت على ما تريد أكثر من اي بلد آخر .

وجملة القول لم يقدم أي حل اساسي بشأن اصلاح النظام النقدي الدولي :

ــ لم يؤخذ مجددا بنظام استقرار اسعار الصرف ، حتى ولو كان ذلك بشكل مرن . وعلى هذا فان النظام الحالي هو نظام عدم ثبات او استقرار هذه الاسعار . مــن المؤكـد أن

(٥٠) كتب الدكتور محمد الاطرش في بحثه المذكور في بداية هذه الصفحات : انتصرت في جامايكا روح الواقعية وليست روح الاصلاح . كذلك يمكن للقارىء أن يرجع لمحاضرة مترجم هذه الصفحات التي القيت بالفرنسية في الاكاديمية الدبلوماسية في فيينا في الخامس من حزيران ــ يونيو ١٩٧٨ ، حيث تعبر عن النتيجة المذكورة ذاتها .

البلدان الصناعية العشر قد اتفقت فيما بينها على الطرق التي تتدخل على أساسها مصارفها المركزية في أسواق الصرف بغاية « مجابهة فوضى الاسواق أو التذبذبات غير الانضباطية لاسعار الصرف » . ولكن الترجمة العملية لهذا الاتفاق والتعابير المستعملة خلقت صعوبات جديدة بحيث أن الولايات المتحدة لم تخف موقفها من أن مثل هذا الاتفاق لن يؤدي الى ادخال أي تغيير اساسي أو رئيسي على سياستها في مجال التدخل المحدود لمصرفها المركزي(٥١) وطبعا يجب فهم هذا الموقف من حيث عدم العودة لنظام ثبات أسعار التعادل أو استقرارها في ضوء الاصوات التي تملكها الولايات المتحدة في الصندوق النقدي الدولي ، أي أنها تملك حق النقض أو « الفيتو » .

ـ كذلك فان قابلية تحويل العملات الى بعضها لم يعد بالامر الاكيد(٥٢) ، مع انه كان هدفا أساسيا للاصلاح في السنوات الاولى من بدء التشاور بشانه . وكانت قد قدمت مشاريع متعددة من أجل « تسوية الارصدة بالدولارات » ، اي قابلية تحويلها بعد أمد محدد . ولكن مثل هذه المشاريع رفضت أصلا وتفصيلا . وتراجعت البلدان الاوروبية عن مواقفها لدرجة أنها وافقت على عدم الاصرار على دور الذهب ، كما ان مصارفها المركزية وعدت بعدم التعامل بالذهب على أساس السوق الحرة مدة عامين . ولكن هل امتنعت الولايات المتحدة عن استعمال ضغطها بعد مرور السنتين ؟

ان فقدان العاملين المذكورين والاساسيين لمسيرة نظام نقدي دولي صحيح قد زيد عليهما عامل ثالث لعدم ضمان مستقبل سليم للعلاقات المالية الدولية ، وهو انه لم توضع أية قاعدة لتنظيم خلق السيولة النقدية الدولية(٥٣) . فقد تم رفض مشروع ربط حقوق السحب الخاصة بحاجات التنمية في البلدان النامية(٥٤) . ولكن الآلية القائمة استمرت :

---

(٥١) اشار لذلك تقرير مصرف التسويات الدولية في الصفحة ١٣٢ من تقريره عن عام ١٩٧٦ .

(٥٢) ان البلد الذي يمتلك عملات اجنبية يمكن له أن يبيعها في اسواق الصرف حيث تتذبذب الاسعار بصورة مستمرة . أن تبديل ولو جزء من الموجودات بالدولار أو الاسترليني في هذه الاسواق يؤدي الى انخفاض سعر صرفها .

(٥٣) كتب السيد في مجلة ص ١٠ ـ ١٣ ، ايلول / سبتمبر ١٩٧٦ ، « اننا أبعد ما تكون اليوم من أي وقت مضى عن مبدأ الرقابة الدولية على السيولة الدولية » .

(٥٤) عارضت الولايات المتحدة مبدأ اقامة « صلة » بين حقوق السحب الخاصة وحاجات التنمية في البلدان النامية . لم يؤيدها الا بعض البلدان الصناعية الغربية في هذا الرفض.

فقد استمر الدولار في أن يكون العملة العالمية الحقيقية . وهذه الدولارات التي يجري دورانها في العالم ترتبط بتعامل الولايات المتحدة مع العالم ، أي أنها تمثل مقدار عجز ميزان المدفوعات لهذا البلد ، بالاضافة لمقادير التسهيلات المالية بالدولار التي تسلفها المصارف غير الامريكية ، والتي هي في الغالب فروع للمصارف الام في الولايات المتحدة .

قام النظام الاقتصادي والنقدي الذي نادت وأخذت به الولايات المتحدة الامريكية ، والذي انتشر شيئا فشيئا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في العالم الغربي ، على اساس الحرية في التعامل . ولا نقاش أن للتعامل الحر ميزاته . ولكن له أيضا عيوبه في حال المبالغة في استخدامه . وهكذا مثلا فانه في مجال العلاقات الاقتصادية الدولية وسير مبادلات السلع فان المبالغة في الاخذ بنظام الحرية تؤدي الى جعل قانون الطرف الاقوى هو القانون السائد . ففي مجال العلاقات الدولية حيث تكون الدول هي الاطراف المعنية ، نجد أن المبالغة في الاخذ بنظام الحرية في التعامل تخدم مصالح البعض على حساب الآخرين . وقد تجلى ذلك بوضوح في الاجتماع الذي عقد في باريس عن التعاون الاقتصادي الدولي (أو ما يسمى بحوار الشمال مع الجنوب) : فقد فشلت المفاوضات جزئيا بسبب رفض الدول الغنية بوضع بعض الحدود أو القيود على قواعد اقتصاد السوق أو اقتصاد أسواق البلدان الرأسمالية .

وما يصعب التسليم به على الصعيد الاقتصادي يصعب التسليم به بدرجة أكبر على الصعيد النقدي . فهل هناك من حاجة الى تكرار القول أن العملة هي السلطة . وأحدثت المؤسسات المالية في كل بلد لتمارس هذه السلطة طبقا للمصلحة العامة أو القومية ، وذلك ضمن الحدود التي تجعل من النقد الاداة المفروضة على الحياة الاقتصادية . ولكننا نجد أنفسنا اليوم في عالم يمارس فيه بلد واحد هذه السلطة دون اية ضمانة من الممكن جعلها تأخذ بعين الاعتبار مصالح بقية البلدان ، كما انه ليس هناك ما يمنع أن تصبح هذه العملة العالمية التي هي دولار الولايات المتحدة الامريكية أداة في خدمة الاقتصاد القومي للبلد الذي تعود اليه . وبالعودة الى « اجتماع باريس » المذكور نجد أن اطراف التفاوض لم يتمكنوا من الاتفاق حول أكثر القضايا المالية المطروحة ، سواء ما تعلق منها باستخدام الفائض من العائدات النفطية ، أو مديونية بلدان العالم الثالث ، او التدابير اللازمة لمحاربة التضخم .

وهذا ما يجعلنا من المتشككين تجاه فرص النجاح المتاحة أمام النظام الاقتصادي الدولي الجديد : فلن يكون هناك من توازن في العلاقات الاقتصادية الدولية اذا لم يكن هناك من

توازن في العلاقات النقدية . ولهذا لابد من تنظيم عملية خلق العملة العالمية ، أي لابد من مراقبة اصدارها والحد منه . ودون هذا الشرط لا استمرار ولا حياة لاي نظام . ثم ما الذي هدم أركان نظام او اتفاقية « بريتون ـ وودز » ، ألم يكن التجاوز الكبير في زيادة السيولة النقدية الدولية ؟ ومع ذلك نجد أن الاصلاح الذي تم والذي أتينا على تحليله لم يتناول أسباب فشل هذا النظام كما لم يعالج نتائج اخفاقه . ان البلدان تعرف مصالحها . لذلك وجدنا أن معظمها في الاجتماع السنوي للصندوق في « مانيلا » عام ١٩٧٦ قد عارض بشدة هذا « الغياب الكامل » للمقتضيات والاحكام اللازمة لفرض رقابة على حجم السيولة النقدية الدولية(٥٥) . ان الاصلاح النقدي الدولي الذي أتينا على تحليله عمل بشكل فعال ونشيط منذ ست سنوات . ولكن النظام النقدي الدولي الحقيقي مـا زال ذلك الذي نتصوره ... والذي يجب أن يوافق عليه جميع أطراف المجموعة الدولية .

الوجه الجديد للصندوق النقدي الدولي(٥٦)

كان الهدف من الاجتماع الذي عقد في « بريتون ـ وودز » في تموز / يوليو من عام ١٩٤٤ بين ٤٤ دولة وضع قواعد تنظيم العلاقات الاقتصادية والنقدية الدولية فور انتهاء الحرب . ان النظام النقدي الدولي الجديد لن يرتكز على مبدأ قابلية التحويل الكاملة للعملات الى ذهب ، كما أنه لن يقوم على أساس مبدأ الثبات الآلي لاسعار صرف العملات فيما بينها . فلا بد اذن من تنظيم هذه العملية وتلك . ولا بد ايضا من احداث مؤسسة جديدة ليتأمن عن طريقها احترام الدول التي ستصبح أعضاء فيها للقواعد التي ستوضع . كذلك سيكون بوسع هذه المؤسسة في الوقت ذاته تقديم تسهيلات مالية من شأنها ادخال بعض المرونة

---

(٥٥) انظر مقالي :

« L'Assemblée génèrale du Fonds monetaire international. Manille, octobre 1976. » Revue Tiers monde, avril-juin 1977.

(٥٦) بمناسبة الزيادة السادسة للحصص في الصندوق النقدي الدولي ، ناقش النواب في فرنسا موضوع زيادة حصة فرنسا والطريقة التي تم على أساسها اصلاح النظام النقدي الدولي . وكتب بهذه المناسبة السيد ميشيل لولار التعليق الحالي في جريدة « الموند » الفرنسية بتاريخ ٢٥ نيسان / ابريل ١٩٧٨ . وقد رأيت ضم تعليقه الى هذا المقال الذي أثبت على ترجمته .

على العلاقات المالية الدولية . وعلى هذا الاساس سيكون لكل بلد حصته ليصبح عضوا في هذه المؤسسة . ولكن كيف تحدد هذه الحصة ؟ وضعت الادارة الامريكية في ذلك الوقت صيغة لتحدد على أساسها هذه الحصة ٢٪ من الدخل القومي للبلد المعني ، ٥٪ من موجوداته من الذهب والدولار ، ١٠٪ من التبدلات القصوى لصادراته السنوية ، ١٠٪ من متوسط وارداته . ويمكن تغيير المجموع الحاصل على أساس الاخذ بعين الاعتبار العلاقة بين صادرات البلد ودخله القومي .

على أنه بعد مفاوضات ومشاورات ما زالت بعض عناصرها مجهولة ، حددت حصة الولايات المتحدة بمقدار ٢٧٥٠ مليون دولار ، وبريطانيا بمقدار ١٣٠٠ مليون دولار ، والاتحاد السوفييتي بمقدار ١٣٠٠ مليون ، وحصة الصين بمقدار ٥٥٠ مليون دولار ، وحصة فرنسا (التي احتلت المرتبة الخامسة) بمقدار ٤٥٠ مليون دولار ، وحصة الهند وبرمانيا بمقدار ٤٠٠ مليون دولار ، وحصة كندا بمقدار ٣٠٠ مليون دولار ، وحصة هولندا بمقدار ٢٧٥ مليون دولار ، وحصة بلجيكا بمقدار ٢٢٥ مليون دولار . أما مجموع اكتتاب الاربع والاربعين دولة فقد بلغ ٨٨٠٠ مليون دولار .

قدم مشروعان متعارضان في المؤتمر الذي عقد في « بريتون ــ وودز »(٥٧) . مشروع الاقتصادي الانكليزي « كينز » القاضي بأنه يمكن لكل بلد أن يسحب بحدود حصته على حسابه المفتوح له لدى الصندوق النقدي الدولي تبعا لحاجاته . أما مشروع الموظف في الخزانة الامريكية ، السيد « وايت » ــ وكان مشروعه أساس المناقشات ــ فيقضي أنه يتوجب على كل بلد في باديء الامر أن يدفع للصندوق : ٢٥٪ من حصته بالذهب ، وذلك على شكل سندات تحرر لحساب الصندوق لدى المصرف المركزي للبلد المعني(٥٨) . ومن ثم يمكن لكل بلد أصبح عضوا أن « يسحب » على الصندوق النقدي الدولي ، أي أن يحصل على عملات أجنبية مقابل عملته . من حيث المبدأ ، تكون هذه الحقوق في السحب محدودة

---

(٥٧) ينظر في ذلك كتاب المترجم المشار اليه سابقا عن « النظام النقدي الدولي » دمشق ١٩٧١ .

(٥٨) بحسب مشروع « كينز » ، يكون لكل بلد حساب لدى الصندوق ، تماما كما لاي مؤسسة حساب لدى المصرف الذي تتعامل معه . أما بحسب مشروع « وايت » ، فان للصندوق حسابا لدى البلد العضو ، غالبا ما يكون مصرفها المركزي .

ب ٢٥٪ من حصته كل سنة على مدى سنوات خمس متتالية . ولكن حقوق سحب اضافية احدثت لدى الصندوق في مناسبات مختلفة . وهي ممنوحة لامد محدود وبفائدة . وحسب اللغة المستعملة في الصندوق ، يقال ان بلدا عضوا يجب أن يعيد شراء سحوباته ، أي ان يقدم عملات أجنبية مقابل عملته ، وان يدفع أيضا العمولات المستحقة . هناك صلة وثيقة بين اعادة الشراء ومقدار العمولات وحصة البلد المعني .

ولمقدار الحصص أهمية خاصة في اطار ادارة الصندوق . فالبلدان الخمس التي تملك أكبر الحصص تسمي مدراءها التنفيذين . وبقية المدراء ـ كان عددهم سبعة ، ثم رفع الى عشرين ـ يجري انتخابهم من بقية الدول الاعضاء مجتمعين في مجموعات أو فئات على اساس الاصوات التي يملكونها(٥٩) . ولكل دولة حاكم (محافظ) لدى الصندوق يصوت باسم حكومته في الاجتماع العام أو بالمراسلة . وتحسب اصوات كل بلد على أساس حصته : فلكل ... ١٠٠ دولار من الحصة ، مقابل هو ٢٥٠ صوتا زائدا صوتا واحدا . وعلى هذا الاساس حصلت الولايات المتحدة لدى اجتماع « بريتون ـ وودز » على ٣١،٤٢٥٪ من اصل مجموع الحصص ، ولكن حقها التصويتي بلغ فقط ٢٨،٠٢٪ ، وحصلت فرنسا على ٥،١١٪ من أصل مجموع الحصص ، وعلى ٤،٨٠٪ كحق تصويتي ... أما بناما وليبيريا فكانت حصتهما اضعف الحصص ٠،٠٠٦٪ من اصل مجموع الحصص و ٠،٢٦٪ كحق تصويتي .

لم يوقع الاتحاد السوفييتي على اتفاق « بريتون ـ وودز » غداة انتهائه . وبذلك فقد ازدادت نسب حصص بقية الدول الاعضاء ، وكذلك حقوقها التصويتية . كذلك كان الامر عندما انسحبت من الصندوق كل من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وكوبا . وبالمقابل ، فان طلبات انتساب لعضوية الصندوق تقدم كل سنة من بعض البلدان . ففي ١٨ كانون ثاني / يناير من هذا العام انتسبت جزر « مالديف » للعضوية ، وبذلك اصبح عدد الدول الاعضاء ١٣٣ دولة . وما زالت الصيغة المشار اليها اعلاه والتي وضعت عام ١٩٤٤ هي الاساس ، مع تعديلات طفيفة ، في حساب حصة البلد طالب الانتساب . وكل انتساب جديد يخفض آليا نسبة حصص وأصوات بقية البلدان الاعضاء . وحدث أن طلب احد البلدان الاعضاء أن تخفض حصته : فعلت ذلك « الهندوراس » عام ١٩٤٨ . ولكن الارجح أن يطلب البلد العضو زيادة حصته . وهذا ما فعلته وحصلت عليه فرنسا عام ١٩٤٧ ، ولكن حددت الزيادة بمقدار ٧٥ مليون دولار فقط حتى لا تتجاوز حصتها حصة الصين التي مثلت فيما

---

(٥٩) يصوت المدير المنتخب اجماليا ، أي لا يحق له تجزئة صوته تبعا للبلدان التي انتخبته.

بعد « بتايوان » أو الصين الوطنية . وطلبات زيادة الحصص كانت تقدم خاصة من قبل البلدان قليلة الحصص . وهكذا فان المسؤولين عن ادارة الصندوق وافقوا عام ١٩٥٦ على زيادة الحصص الصغيرة زيادة محسوسة ، مع تخصيص لكل بلد حصته كحد أدنى ، هي اليوم ١٥ مليون دولار . واذا كان هذا الوضع ما زال نافذ الاجراء . فان البلدان أصحاب الحصص القليلة ، وكذلك المنتسبين الجدد ، لم يطلبوا الاستفادة منه ، اذ ما زالت أكثر من ثلاثين دولة حصتها أقل من ١٥ مليون . وحصة جزر « المالديف » هي حتى اليوم أصغر الحصص : ٠٠٠ر٧٠٠ وحدة حقوق سحب خاصة .

على أن البلدان تحصل على زيادة في حصصها لدى اعادة النظر العامة في الحصص . فبحسب اتفاقية « بريتون ــ وودز » يعمد الصندوق الى اعادة النظر في الحصص كل فترة خمس سنوات على الاكثر ، كما يقترح اعادة النظر هذه على مجلس الحكام (المحافظين) . ولكن لم تحدث اية زيادة في عام ١٩٥٠ ولا في عام ١٩٥٥ . وكان لابد من انتظار عام ١٩٦٠ لتجري زيادة عامة في الحصص بنسبة ٥٠٪ . وتزداد هذه الحصص مجددا بنسبة ٢٥٪ بعد خمس سنوات . وفي عام ١٩٧٠ جرى التصويت على رفع الحصص بنسبة ٣٦٪ ، الامر الذي زاد مقدار الحصص لتبلغ ٢٩٢٢٠ مليون وحدة حقوق سحب خاصة (اي بين ٢٥ ــ ٣٦ مليار دولار) .

واعادة النظر السادسة بهدف زيادة الحصص والتي أقرت في فرنسا في الوقت الحاضر كان يجب أن تتم عام ١٩٧٥ . وجرى بحثها في الوقت ذاته الذي جرى فيه بحث موضوع اصلاح النظام النقدي الدولي الذي أدى الى الاخذ بالتعديل الثاني لاتفاق « بريتون ــ وودز » .

أقر الصندوق النقدي الدولي زيادة في الحصص بنسبة ٣٣٦٢٪ من اصل مجموع الحصص، أي أن مقدار الحصص ازداد ليبلغ ٣٩ مليار وحدة حقوق سحب خاصة أو ٤٧،٥ مليار دولار تقريبا . ولم يكن لهذه الزيادة أن تدخل حيز التنفيذ قبل الموافقة على التعديل الثاني للاتفاقية الذي أصبح نافذ المفعول في الاول من نيسان / ابريل ١٩٧٨ . وفي انتظار التاريخ المذكور ، اتفق في الاجتماع الذي عقد في جامايكا في كانون الثاني / يناير عام ١٩٧٦ على أن تزداد موقتا وعمليا الشطور أو الشرائح التسليفية لزيادة حق كل دولة عضو في السحب على الصندوق ، كما لو أن الزيادة في الحصص قد اقرت قانونا في الاجتماع المذكور .

وعلى الدول الاعضاء الموافقة على رفع الحصص العائدة لها حتى تاريخ الاول من أيار / مايو من العام الجاري . كما أنه عليها خلال ستين يوما من تاريخ موافقتها أو من التاريخ المذكور

دفع مقدار الزيادة للصندوق . ولاول مرة منذ عام ١٩٤٤ نجد ان الـ ٢٥٪ من أصل الزيادة لن تدفع بالذهب ، ولكن بحقوق السحب الخاصة ، او عملات يحددها الصندوق ، او حتى بالعملة الوطنية (٦٠) . وكذلك فانه لاول مرة منذ التاريخ المذكور نجد أن الزيادة ذات طابع انتقائي . فحصة بريطانيا زيدت قليلا كمقدار وهبطت كثيرا من حيث النسب : من ٩٫٦٥٪ الى ٧٫٤٥٪ . والزيادة التي حصلت عليها الولايات المتحدة من حيث المقدار أقل من مجموع الزيادات ، ولكن نسبة حصتها من أصل مجموع الحصص هبطت من ٢٣٪ الى ٢١٫٥٪ . ولكن الانعكاس كان أشد على عدد الاصوات : اذ هبطت بمناسبة الزيادة السادسة للحصص نسبة أصوات الولايات المتحدة من ٢٠٫٤٦٦٪ الى ١٩٫٤٩٠٪ . ولكنها لاتفقد بموجب ذلك حقها في الاعتراض وتوقيف أي قرار مهم حيث زيدت نسبة الاصوات للحصول على الاغلبية الضرورية للقرارات المهمة من ٨٠٪ الى ٨٥٪ . والقرارات المهمة هي تلك التي تتعلق بالسياسات والترتيبات الخاصة باسعار الصرف ، وعمليات بيع الذهب التي يجريها الصندوق ، وزيادة وتخصيص حقوق السحب الخاصة .

وجملة القول فان حصة الدول الصناعية هبطت بنسبة ٥٪ لصالح البلدان المصدرة للنفط التي ازدادت بالمقابل حصصها من ٥٪ الى ١٠٪ . فبالنسبة لما كانت عليه الحصص بموجب آخر زيادة لها في عام ١٩٧٠ ، ازدادت حصة ايران والكويت ثلاثة أمثال ونصف ما كانت عليه في التاريخ المذكور وازدادت حصة المملكة العربية السعودية ٤٫٥ مثلا(٦١) ، وليبيا واتحاد الامارات العربية ثمانية أمثال تقريبا . أما أوضاع حصص بقية بلدان العالم الثالث فلم يطرأ عليها تغيير مهم . فقد تحسن وضع البرازيل وكوريا ، بينما تقلصت حصتا الارجنتين والهند . ولكن هذه التغيرات ضئيلة ولا أثر لها . والصين هو

---

(٦٠) يقضي قرار مجلس الحكام (المحافظين) لدى الصندوق بصدد الزيادة السادسة للحصص أنه يمكن للدولة العضو ان تدفع كامل الزيادة في حصتها بعملتها الوطنية . ويمكنها ايضا ان تختار ان تدفع ٢٥٪ من أصل الزيادة بوحدات من حقوق السحب الخاصة أو عملات اخرى للدول الاعضاء يحددها الصندوق بالاتفاق مع هذه الدول ، ويسدد رصيد هذه الزيادة بالعملة الوطنية . (المترجم) .

(٦١) ستتمكن المملكة العربية السعودية ، بصفتها ثاني مقرض مالي للصندوق بعد الولايات المتحدة الامريكية ، من تسمية مدير لها في مجلس ادارة الصندوق اعتبارا من تشرين أول / أكتوبر عام ١٩٧٨ ، ولمدة سنتين . (المترجم)

البلد الوحيد الذي تدهور وضعه أكثر من غيره . فقد احتل بموجب اتفاق « بريتون ـ وودز » المرتبة الرابعة في مقدار الحصص كما هو مذكور أعلاه ، ولكن مساهمته أو حصته لم تزد منذ ذلك الوقت ، أي أن نسبتها كانت تهبط كلما جرت زيادة في الحصص . على أن « تايوان » التي تملك ١٫٤١٪ من أصل مجموع الحصص تقف بمصاف اسبانيا وقبل أندونسيا والمكسيك أو السويد .

ووضع الصين كبلد لم تتغير حصته هو وضع فريد . ولا يربح أي بلد عضو شيئا اذا رفض زيادة مساهمته في الصندوق . فهو لا يدفع بالعملات الاجنبية او بحقوق السحب الخاصة أو حتى بعملته الوطنية الا ٢٥٪ اذا قبل مبدأ الزيادة ، ولكنه يستطيع أن يسحب نسبة ١٢٥٪ من حصته ، ويمكن لهذه النسبة أن تبلغ ٣٢٧٫٥٪ من هذه الحصة بسبب التسهيلات المالية الجديدة في الصندوق . أما بالنسبة للدول النامية ، فهذا الحد الاقصى يمكن أن يبلغ ٤٥٥٪ وبالنسبة لفرنسا ، فمقابل دفع مبلغ اضافي بمقدار ١٣٠ مليون دولار (١٫٢٥٪ من احتياطياتها) ، تزداد حقوقها في السحب من ٤٫٢ مليار الى ٥٫٣ مليار دولار . والاهم من ذلك أنها تحافظ على مركزها في الصندوق . أي انها اذا لم توافق على الزيادة فلن تخسر حقها بتسمية مدير في مجلس المدراء التنفيذيين ، ولكن سيهبط مركزها من المرتبة الرابعة للخامسة ، وذلك بانتظار الزيادة القادمة التي هي قيد التحضير والتي يمكن أن تحصل بعد سنتين .

هناك معارضون لكيفية اصلاح النظام النقدي الدولي في فرنسا . ولكن الموافقة على الزيادة والمحافظة على المركز الذي يحتله هذا البلد داخل الصندوق هو من الامور المهمة لكي يسمع صوته . ومنذ قيام اتفاق « بريتون ـ وودز » ، كان صوت فرنسا يعبر أحيانا عن موقف التعقل في مجال العلاقات النقدية الدولية .

	بعد الزيادة السادسة للحصص			قبل الزيادة السادسة للحصص		
	الحصة	٪من الحصص	٪من الاصوات	الحصة	٪من الحصص	٪من الاصوات
الولايات المتحدة	٦٧٠٠	٢٢ر٩٣	٢٠ر٦٦	٨٤٠٥	٢١ر٥٣	١٩ر٩٠
بريطانيا	٢٨٠٠	٩ر٥٨	٨ر٦٨	٢٩٢٥	٧ر٤٩	٦ر٩٦
المانيا	١٦٠٠	٥ر٤٨	٤ر٩٩	٢١٥٦	٥ر٥٢	٥ر١٥
فرنسا	١٥٠٠	٥ر١٣	٤ر٦٩	١٩١٩	٤ر٩٢	٤ر٥٩
اليابان	١٢٠٠	٤ر١١	٣ر٧٦	١٦٥٩	٤ر٢٥	٣ر٩٨
مجموعة السوق الاوروبية المشتركة	٨٦٥١	٢٩ر٦١	٢٧ر٣٧	١٠٥٧٤	٢٧ر٠٨	٢٥ر٤٩
نادي العشرة	١٧٥٧٥	٦٠ر١٥	٥٤ر٧٧	٢١٩٤٩	٥٦ر٢٢	٥٢ر٤٠
البلدان الصناعية	٢١١٠٠	٧٢ر٢٣	٦٦ر٩١	٢٦٤٦٣	٦٧ر٧٨	٦٤ر٠٦
البلدان النفطية	١٤٢١	٤ر٩٨	٥ر٣٩	٣٧٨٦	٩ر٧٠	٩ر٦٤
بلدان العالم الثالث	٦٦٩٩	٢٢ر٧٩	٢٧ر٨٠	٨٧٩١	٢٢ر٥٢	٢٦ر٣٠
المجموع	٢٩٢٢٠	١٠٠	١٠٠	٣٩٠٤٠	١٠٠	١٠٠

بمناسبة اليوم العالمي لمحو الامية – ٨ ايلول

قراءة في واقع حركة محو الامية في سورية (١٩٧٢ ــ ١٩٧٩)

سميح عيسى

يرتبط التخلف الاقتصادي والاجتماعي والفكري ويستمد بقاءه ـ في كل مجتمع ـ من عوامل عديدة تجيء الامية في مقدمتها . وتبقى جميع الجهود المبذولة للقضاء على هذا التخلف مخفقة مالم ترتبط بالقضاء على الامية .

فالامية عبودية الفكر وانخفاض مستوى العيش ، وتدن في الدخل القومي ، وحرمان الفرد والمجتمع من ابسط الحقوق .

من هنا تعتبر مشكلة الامية السرطان الحقيقي بأذرعه اللامحدودة ، التي تمتد وتتغلغل في اعماق الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية وايضا الصحية ، فتتحدى بذلك كل عوامل البناء والنمو والتقدم .

لذا كان من الطبيعي جدا ان يتفق وزراء التربية والتعليم في مؤتمرهم العالمي الذي عقد خصيصا ـ تحت شعار محو الامية ـ في طهران يوم ٨ ايلول عام ١٩٦٥ ، على اهمية التعاون الدولي في مجال محو الامية ، وبذل ماتستطيعه كل دولة من فكر وجهد وتنظيم ومال لمواجهة مشكلة

الامية مواجهة حاسمة وفعالة بغية القضاء عليها خلال فترة زمنية محددة .

وفي ضوء ماتقدم ، قد يكون من المناسب والقطر العربي السوري يحتفل مع دول العالم باليوم العالمي لمحو الامية (يوم ٨ أيلول) الحديث عن عمليات محو الامية في القطر بين عام ١٩٧٢ وعام ١٩٧٨ — وهي الفترة التي حددها القانون رقم ٧ للقضاء على الامية نهائيا .

★ ★ ★

ثمة تساؤلات تفرض نفسها وعام ١٩٧٩ يكاد يعبر ساحة الزمن .
— وماذا الان ؟!

— لقد انتهى العمل حكما بالقانون رقم ٧ بانتهاء عام ١٩٧٨ ، فهل نفذت الجهات المعنية (من وزارات ومؤسسات ومنظمات شعبية واتحادات) مسؤولياتها وواجباتها كما حددها القانون رقم ٧ ، وقرارات المجلس الاعلى لمحو الامية (السلطة العليا المسؤولة عن محو الامية في القطر) وخطط محو الامية ؟!

— وهل استنفدت كل الجهات اخر الفرص للتنفيذ ام انها في سبيل وضع اللمسات الاخيرة بعد القضاء على آخر معقل من معاقل الامية ؟!
— أبعد المنال أمام القطر في تحرير اخر امي كما حدد القانون ؟

— هل رجعت عمليات محو الامية في تخبطها الى ما كانت عليه قبل اقرار القانون رقم ٧ ؟

— وهل صحيح أن كل ماجرى في سنوات تنفيذ القانون ما كان سوى نوع من التنظيم والترتيب ، ووعي اكبر بأبعاد المشكلة ، اما التطبيق العملي فظل في اضيق الحدود ؟

وبعبارة اخرى : هل كانت عمليات محو الامية في سنوات نفاذ القانون ، مضطربة وقاصرة ، تأخذ من الخطط المرحلية — لكل عام على حدة — بطرف وتهمل أطرافا أخرى ، وتظل الجهة المسؤولة الوحيدة عمليا عن

التنفيذ مديرية محو الامية التي لاحول لها ولاقوة الا المراوحة ضمن امكانات مادية وبشرية وفنية محدودة ؟

ثم هل كانت اجتماعات المجلس الاعلى لمحو الامية منتظمة ومتتالية تنظر وتناقش ، وتذلل الصعوبات ، وتتخذ القرارات الحاسمة بغية تحقيق الهدف الكبير القضاء على الامية ؟!

قبل الاجابة على مجموعة التساؤلات السالفة الذكر ، لاباس من القاء بعض الاضواء على مراحل تنفيذ القانون رقم ٧ والخطة المعتمدة من قبل المجلس الاعلى لمحو الامية :

ـ استنادا للقانون رقم ٧ ، فقد حددت الفترة الزمنية اللازمة لتحرير جميع المواطنين الاميين في القطر بمدة ٦ سنوات موزعة على أربع مراحل اعتبارا من عام ١٩٧٢ .

آ ـ **مرحلة اعدادية** : ومدتها سنة واحدة ، ويتم فيها رسم السياسة العامة لمحو الامية ووضع الاسس والقواعد والنظم والتوعية بعملية محو الامية ، وتحديد فئات واصناف الاميين والمعلمين ، واعداد وطباعة كتب ونشرات ودوريات محو الامية .

ب ـ **مرحلة التجريب والبدء** : ومدة هذه المرحلة سنة واحدة ، ويتم فيها اقامة دورات تدريبية للمعلمين والمشرفين والمكلفين بالاسهام في عملية محو الامية ، واختيار وتنفيذ مشاريع انتقائية مركزه حسب اولويات القطاعات الهامة بحيث تهدف الى تحرير حوالي (٤٠٠) الف امي .

ج ـ **مرحلة التوسع** : ومدة هذه المرحلة ثلاث سنوات ، ويجري فيها التوسع في المشاريع الانتقائية المركزة ، وتعميم حملة محو الامية على جميع ارجاء القطر بحيث تشمل مليون امي تقريبا .

د ـ **مرحلة التصفية** : ومدتها سنة واحدة ، ويجري فيها تصفية جميع الجيوب التي لاتزال فيها بقايا امية .

اما خطة عمل محو الامية لعام ۱۹۷۳ – ۱۹۷٤ .. التي وافق عليها المجلس الاعلى لمحو الامية بتاريخ ۱۹۷۳/۳/۲۷ فقد استهدفت :

– تعليم جميع الاميين العاملين في القطاعين الصناعيين العام والخاص في محافظات القطر كافة (ويبلغ عدد هؤلاء استنادا للبيانات المتوفرة من المكتب المركزي للاحصاء في ضوء نتائج تعداد عام ۱۹۷۰ حوالي ۷٤۳۳۲ اميا وامية) .

– تعليم جميع الاميين العاملين في قطاع الخدمات الملحقة بالدولة (كالعاملين في الطرق ومؤسسات الكهرباء والمياه – الخ) والبالغ عددهم حوالي ۳۰۱٦٥ اميا وامية .

– تعليم الاميين في منطقة الغاب باعتبارها منطقة تعتمد على المكننة واساليب الزراعة الحديثة ، ويبلغ عددهم حوالي ۱٥ الف امي وامية

– اعداد الترتيبات اللازمة للشروع بتعليم الاميين في منطقة سد الفرات وبخاصة في التعاونيات والقرى النموذجية التي سيجري فيها تطبيق الزراعة الحديثة .

– طباعة ٥ر۱ مليون ونصف مليون نسخة من كتب محو الامية في مطابع الدولة لتغطية الخطة .

– تدريب ۲۷٥۸ عنصرا للتعليم في صفوف محو الامية في محافظات القطر كافة .

★ ★ ★

والآن ... من يمعن النظر في خارطة الامية للقطر العربي السوري ، بالوانها وخطوطها وبياناتها ، يجد على الفور ان الامية بنوعيها الابجدي والحضاري لاتزال بخير . وان اعدادا كبيرة من السكان العاملين في مختلف الانشطة الاقتصادية والاجتماعية المشمولين بخطة عام ۱۹۷۳ وما بعدها مازالوا محرومين من ادوات المعرفة ومصادرها ، ومن فهم تركيب كلمات لغتهم في عصر العلم والمعرفة ..

وبمعنى اخر : يظهر بكل وضوح ان مشكلة الامية ظلت قائمة تراوح في مكانها وتستعصي على الحل .. حيث مضى عام ١٩٧٣ ثم عام ١٩٧٤ وبقية الاعوام دون أن ترى الامية مصرعها الكامل او حتى الحد الادنى من العمل الجاد .

– فاذا عرفنا بالاستناد الى البيانات الرسمية الموجودة لدى وزارة الثقافة ، ان عدد العناصر الذين اتبعوا دورات تدريبية فعلا لتعليم الاميين في جميع المحافظات كان ٥٣٦ عنصرا من اصل ٢٧٥٨ عنصرا بموجب خطة محو الامية لعامي ١٩٧٣ – ١٩٧٤ المقررة من قبل المجلس الاعلى .

– وأن عدد الصفوف المفتتحة بلغت ٣٥٠ صفا من عدد ٢٠٧٣ صفا المقرر افتتاحها أيضا في عامي ١٩٧٣ ١٩٧٤ .

– واذا اخذنا بعين الاعتبار ان عام ١٩٧٥ شهد افتتاح ٤٣٨ صفا توزعت في محافظات القطر كافة ، وضمت ١٠٩٨١ دارسا ودراسه ، وان عام ١٩٧٦ شهد افتتاح ٦٨٢ صفا ضمت ١١٦٧٥ دارسا ودارسة ، وان عام ١٩٧٧ وعام ١٩٧٨ لم يشهدا افتتاح اكثر من ٨٠٠ صف .

– واذا ادركنا ان نسبة لا تزيد عن ٤٠٪ كانت حصيلة المتحررين من الامية فيها ، وان تلك الصفوف لم تغط القطاعات المعنية بخطة عام ١٩٧٣ ١٩٧٤ « أو خطة عام ١٩٧٥ التي هي صورة طبق الاصل عن خطة ١٩٧٤، أو خطة ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، والتي تعتبر ايضا امتدادا لخطط الاعوام السابقة » إلا بصورة جزئية .

فاننا نستنتج اضافة الى ما سبق التالي :

١ – ان القانون كان في واد والتطبيق في واد آخر .

٢ – استنفدت جميع الجهات العاملة في حقل محو الامية والتربية والتعليم آخر الفرص لتحرير جميع المواطنين الاميين في مدة ٦ سنوات ، وتطبيق الزامية التعليم الابتدائي على جميع الاطفال الذين هم في سن الالزام ، كما حدد القانون رقم ٧ لعام ١٩٧٢ .

٣ ـ حتى انه وبكل بساطة لم تستطع جميع الجهود المبذولة رسميا وشعبيا تنفيذ قرارات المجلس الاعلى لمحو الامية المتضمنة الخطط الجزئية للاعوام ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ١٩٧٦ .. الخ ، التي أكدت محو امية العاملين في القطاع الصناعي العام والخاص وقطاع الخدمات ومنطقة الغاب .

٤ ـ **كانت عمليات محو الامية في سنوات تنفيذ القانون مضطربة وقاصرة،** تأخذ من الخطط المرحلية ـ لكل عام على حدة ـ بطرف وتهمل اطرافا اخرى ، وبالتالي فان **اجتماعات المجلس الاعلى لمحو الامية كانت غير منتظمة** مما ساهم في ذلك الاضطراب والقصور والابقاء على ما كانت عليه حركة محو الامية قبل صدور القانون . حيث تؤكد الوثائق الرسمية ان عام ١٩٧٤ يمضي بكامله ولا يعقد المجلس الاعلى اي اجتماع لبحث الدروس المستفادة من خطة عام ١٩٧٣ .

وفي عام ١٩٧٥ يتخذ المجلس قرارا بتمديد خطة ٧٣ ـ ٧٤ وسد بعض الثغرات المحدودة .

غير أن عام ١٩٧٦ يمضي بكامله ايضا دون أن يعقد المجلس اي اجتماع لتتبع تنفيذ قراراته ، ولا يتحقق من خطة عام ١٩٧٥ ، الا النذر القليل . وفي اواخر عام ١٩٧٦ تقوم وزارة الثقافة والارشاد القومي بدراسة محاولة القضاء على الامية عبر سنوات الماضي ، وتتعرف على مواطن الضعف فيها ، وتضع مشروع تنظيم جديد وقواعد جديدة للعمل بغية تدارك النواقص وسد الثغرات وتدفع كل ذلك الى المجلس الاعلى لمحو الامية . وعندها لا نستغرب اذا عقد المجلس اجتماعا في عام ١٩٧٧ والقانون على ابواب الانتهاء في محاولة لاقرار خطة عمل جديدة واتخاذ مجموعة من القرارات المتعددة قد لا تكون مناقضة للقرارات التي اقرها سابقا حيث ركزت فيما ركزت على محو امية الصغار والعاملين في القطاعات المنتجة وغيرها .

٥ ــ أن المجلس الاعلى لمحو الامية سواء في عدم تتبعه لعمليات محو الامية او بالانقطاعات الطويلة التي كانت تحدث بين اجتماعاته ، أو عدم معالجته الفورية للمشكلات الطارئة التي تحتاج الى حل سريع . يضاف الى ذلك اغفال اهمية محو الامية بالنسبة الى النشاطات الاخرى في محافظات القطر ، وعدم قيام الجهات المسؤولة والهيئات والمنظمات الرسمية وغير الرسمية بمهامها على الوجه المطلوب ، ووجود بعض الهنات والعثرات في صلب القانون ومواده وفي الخطط ومنطلقاتها . هذه كلها تعتبر من الاسباب الرئيسية التي حالت دون الارتقاء بعمليات محو الامية نحو الافضل على طريق تحقيق الهدف الكبير .

هنا ربما يسأل سائل ويقول : وماذا بعد ؟! اذا كان هذا هو واقع حركة محو الامية « تخطيطا وتنفيذا ومتابعة » خلال سنوات نفاذ القانون رقم ٧ ؟

ترى ألم تقم الجهات المسؤولة رسميا عن محو الامية بدراسة هذا الواقع وتحليله وتقويمه ووضع الحلول المناسبة ؟ أم أن حركة محو الامية لا تزال في عام ١٩٧٩ تئن وتراوح في موقعها التقليدي الهامشي ، وتدور في فلك مجموعة من القرارت والتعليمات والطرق والاساليب التقليدية غير العلمية وغير الجماهيرية ؟!

وبالتالي فان مشكلة الامية ستبقى قائمة بكل أبعادها ، وفي ذمة الزمن والروتين .

لو حاولنا رصد واقع حركة محو الامية في القطر في ضوء مجموعة الحقائق والقناعات والتساؤلات السالفة الذكر ونحن نعبر الربع الاخير من عام ٩٧٩ لوجدنا بكل وضوح الصورة القاتمة لهذا الواقع :

واقع حركة محو الامية في القطر العربي السوري في عام ١٩٧٩ :

١ ــ في أعقاب فشل جميع الجهود المبذولة (رسميا وشعبيا) للقضاء على الامية ، فان الاقتناع قائم الآن لدى جميع المعنيين بما يمارسه التخلف الثقافي بشموليته ، والامية على وجه التحديد ــ من اثر سلبي في مجال

التنمية والتقدم ، بما يسلم اليه الانسان من اغتراب حضاري وفكري وسياسي ، يرافقه حجب لدوافع المشاركة الايجابية فيه مع مجتمعه . **ولكن القناعة شيء ، والممارسة أو التطبيق شيء آخر .**

٢ ـ ان **الاقتناع قائم أيضا بأن محو الامية ظاهرة فردية واجتماعية واقتصادية وهي ليست من شأن المتعلم أو الامي فقط .** أو من مسؤولية وزارة الثقافة او منظمة شعبية ما « كما كان عليه الحال ولا يزال » بل هي من هموم المجتمع ككل ومن مسؤولية المجتمع بكل تنظيماته الرسمية والشعبية .

وبمعنى آخر : ان عمليات محو الامية متعددة ومتشعبة ومتكاملة ، وان تحقيق اهدافها لا يقتصر على استصدار القانون رقم ٧ ، وعلى تكوين المجلس الاعلى لمحو الامية ولجان محو الامية المركزية والفرعية في المحافظات والمناطق ، والابقاء على مديرية محو الامية في وزارة الثقافة (التي لا تضم أكثر من ٥ عناصر) وبعض العناصر المتفرغة في قيادات المنظمات الشعبية والاتحادات والنقابات العمالية والمهنية .. لقيادة عمليات محو الامية تخطيطا وادارة وتنظيما .

وانما يعتمد بالدرجة الاولى على قرار سياسي صادر عن القيادة السياسية العليا في القطر ، يحدد انجاز مهمة محو الامية خلال فترة زمنية محددة ، ويكون شكلا ومضمونا في مستوى حجم المشكلة وأبعادها .

ومن ثم على تشريع علمي ثوري واضح المعالم والاحكام ، وعلى جهاز قيادي مركزي جماهيري متكامل قادر على الالزام والالتزام يرتبط بأصحاب القرار السياسي . ويضم في تكوينه الكفاءات والخبرات القيادية والفنية والادارية ، ويمتلك الامكانات المادية المطلوبة ليستطيع بالتعاون مع الاجهزة القيادية الفرعية والجهات العاملة الرسمية وغير الرسمية في جميع المحافظات اعداد وتنفيذ ومتابعة وتقويم خطة محو الامية العامة والخطط المرحلية في اطار التشريع الناظم للعمل وتوجيهات وقرارات السلطة السياسية .

ولكن ، حتى تاريخه لم يتم اي تقويم علمي وجاد لحركة محو الامية فـي الماضي ، وبالتالي لم يصدر بعد القرار السياسي الخاص بمحو الامية الذي ينهي جميع الاشكال والطرق والاساليب التقليدية المتبعة في الميدان ، كما لم يصدر التشريع البديل عن القانون رقم ٧ ، ولم تتكون الاجهزة القيادية المركزية والفرعية البديلة ايضا عن مديرية محو الامية والجهات الاخرى القاصرة ماديا وفنيا واداريا .

٣ ــ حتى انه وبكل بساطة **لم يتم اعادة النظر في القانون رقـم ٧ لتلافي ثغراته ونواقصه** ، الامر الذي ابقاه خلال سنوات نفاذه وحتى الآن في المجال النظري ، وبعيدا كليا عن ميدان التطبيق العملي ، وبالتالي قاصرا عن مواجهة المشكلة مواجهة حاسمة .

ومن الثغرات والغموض والسلبيات الواردة في القانون ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ ما يلي :

أ ــ نصت المادة (٢) من القانون « على أن تلتزم وزارة التربية بدءا من تاريخ نفاذ هذا القانون بتطبيق التعليم الالزامي على جميع الاطفال الذين بلغوا سن الالزام كل سنة » ؟ دون احاطة كاملة بالظروف والامكانات والاحتياجات المادية والفنية اللازمة لتطبيق هذه المادة قبل اقرارها .
كما انه لم ينص القانون على مدة التنفيذ ولم يقسمها الى مراحل وبرامج سنوية ، يصبح في نهايتها تطبيق التعليم الالزامي شاملا جميع الاطفـال الذين بلغوا سن الالزام .

ب ــ نصت المادة /٤/ من القانون على أن « تلتزم وزارة الدفاع بتعليم الاميين من المدعوين الى خدمة العلم قبل انتهاء خدمتهم الالزامية » .
ولم تنص صراحة على عدم انهاء خدمة الاميين المدعوين الى خدمة العلم قبل تحررهم من الامية ولم تحدد ايضا الضوابط والاسس والقواعـد اللازمة ، وتركت الموضوع عاما دون تحديد دقيق .

جـ ــ يفتقر القانون الى وجود فصل خاص بالحوافز المادية والمعنوية : بينما افرد فصلا خاصا بالعقوبات التي فيها من الغموض الشيء الكثير .

د ــ واخيرا صدر القانون دون صدور اي لائحة تنفيذية تشير الى كيفية تطبيق مواده .

٤ ــ لم ياخذ التخطيط بعد لمحو الامية في القطر الشكل المطلوب والصفة العلمية المواكبة للمفهوم المتطور لحركة محو الامية بحيث يتكامل التخطيط لمحو الامية مع بقية الانشطة والخطط الاقتصادية والاجتماعية والتربوية، ويتحقق التفاعل والتلاقي والشمول في قيادة عمليات محو الامية . ويظهر هذا بوضوح في القاء مسؤولية اعداد مشروعات خطط محو الامية وغيرها في الماضي والحاضر على عاتق مديرية محو الامية في وزارة الثقافة التي لا حول لها ولا قوة ، مما افسح المجال لان تكون تلك الخطط قاصرة ، ولان تقوم ايضا كل جهة تعمل في حقل محو الامية « الاتحاد العام النسائي ــ الجمعيات ــ اتحاد نقابات العمال ــ الخ » بوضع خططها الخاصة . وبالتالي اصبحت قضية مواجهة المشكلة مواجهة وطنية وقومية متكاملة شعارا ليس إلا ، وتارجحت عمليات التنفيذ والمتابعة والتقويم بين الروتين والضياع والهامشية ، وعندها لا نستغرب حصاد السنوات الماضية في ميدان محو الامية .

٥ ــ لاتزال الموازنات المخصصة لحركة محو الامية ضئيلة وعاجزة عن مواجهة المشكلة مواجهة حاسمة ، فالاعتمادات المالية المخصصة معظمها رسمية متواضعة وطرق رصدها وانفاقها لا يعتمد على قواعد ومعايير صحيحه .

وتدل ايضا البحوث في هذا المجال على أن لكل جهة رسمية وشعبية عاملة في حقل محو الامية موازنتها الخاصة القليلة والبعيدة عن التكامل مع الموازنات الاخرى .

٦ ــ لم تزل خطط الدراسة والكتب الدراسية والوسائل والمعينات الخاصة بمحو الامية هي هي كما كانت عليه بعد صدور القانون ، وذلك بسبب عدم تقويمها وفق اسس وقواعد متطوره حضاريه .

٧ ـ لم تعبأ بعد ـ ولوبشكل معقول ـ الامكانات البشرية والمادية والرسمية والشعبية في ميدان تنفيذ عمليات محو الامية .

٨ ـ لا تزال اشكال وطرق واساليب التنسيق بين مختلف الجهات العاملة في حقل محو الامية تقليدية نظرية لا تتجاوز اللقاءات والحوارات الشكلية البعيدة عن كل الاهداف المطلوبة في هذا المجال . ولعل هذا يعود الى كثير من المسائل اهمها : عدم وجود خطة مقررة للتنسيق تتسم بالوضوح والمسؤولية ، والى ترك كل ذلك للروتين ... واللامسؤولية .

★ ★ ★

والآن .. اذا كان هذا هو واقع حركة محو الامية في القطر بعد سقوط القانون رقم ٧ وفشل جميع الجهود حتى تاريخه ، **ترى ما العمل المطلوب لمواجهة هذا الواقع ؟ وما هي الطرق والوسائل الكفيلة بالارتقاء بهذا الواقع الى مستوى المسؤولية ، والى العمل الجاد والافضل في ميدان محو الامية ؟ ومن ثم القضاء على الامية ؟!** ايمانا بأن مشكلة الامية هي مشكلة قومية ومن مسؤولية المجتمع ككل ، وتحتاج الى معالجة موضوعية علمية، وفق أسس وقواعد صحيحة، جديدة وبعيدة عن الصفة الرسمية والمظهرية والشكلية .

ونظرا لان الجهات المعنية بمحو الامية وتعليم الكبار على صعيد القطر تعاني ـ من خلال واقعها الحالي ـ من تبعية ادارية تقيد حركتها وتقلل من قدرتها على اخذ زمام المبادرة وبذل الجهود على مستوى واسع مما يفسح المجال للتعقيدات والمعوقات المتنوعة ان تتسلل الى انشطة محو الامية وتحيلها الى صفة رسمية .

وايمانا أيضا بأن تلك الجهات تعاني حقيقة من العجز في توفر قيادات عليا خاصة بها من حيث التخصص والخبرة والقدرة على الابتكار واتخاذ القرارات الحاسمة، كما تعاني من عدم توفر الادارات والاقسام المتخصصة اللازمة للاحاطة بعمليات محو الامية وتعليم الكبار في جميع المجالات « استراتيجية وقيادة وتنظيما وتخطيطا ... الخ) . وبعد استيعاب

جميع الامور الواردة لدى الحديث عن واقع حركة محو الامية في القطر ..
وفي ضوء تجارب الشعوب التي عانت من مشكلة الامية طويلا وانتهت منها بالاساليب الجادة الفعالة « تجربة الاتحاد السوفييتي – تجربة كوبا » .

اعتقد ان الطريق الصحيحة الكفيلة بالقضاء على الامية هي في :

١ – استصدار القرار السياسي « المنوه به سابقا » الخاص بمحو الامية وتعليم الكبار .

٢ – استصدار تشريع موضوعي وعلمي خاص بمحو الامية وتعليم الكبار ، يترجم مضمون القرار السياسي « نصا وروحا ومعنى » .

٣ – تكوين القيادة المطلوبة لقيادة حركة محو الامية نحو الاهداف المرسومة « المجالس ، واللجان ، والاجهزة القيادية المتنوعة » ذات الصفة الاستقلالية تماما والمرتبطة مباشرة بأصحاب القرار السياسي ، بما يمكنها من حشد وجذب قيادات وعناصر رشيدة ومتخصصة ونشطة وواعية فنيا واداريا وعلميا للعمل على تنفيذ قرارات وتوجيهات القيادة السياسية ومواد التشريع واحكامه ، وتحقيق التنسيق والتكامل بين جميع الجهات المعنية .

٤ – رصد وحشد الامكانات المادية والبشرية المطلوبة في مستوى حجم المشكلة وابعادها .

٥ – مراعاة ان تتضمن خطة محو الامية الشاملة او المرحلية الامورالتالية التي أكدتها جميع الدروس المستفادة من عمليات محو الامية في الماضي على صعيد القطر ، ومن تجارب الشعوب التي عانت من الامية وانتهت منها :

آ – تحديد حجم مشكلة الامية وأبعادها ومنعكساتها .

ب – مسح واقع الجهود في محو الامية (رسميا وشعبيا) وتقويمها .

ج – تكامل جهود محو الامية مع حركة التنمية الشاملة ، ومع تطوير التربية والتعليم .

د ـ تركيز جهود محو الامية وتعليم الكبار على قطاعات انتاجية وجغرافية خاصـــة

هـ ـ تطوير طرق واساليب التنسيق بين الاجهـزة والهيئات والجهات العاملة في حقل محو الامية .

و ـ تطوير الهيئات والاجهزة والجهـات العاملـة في الميدان في اطار الاهداف المرسومة .

ز ـ تنمية مصادر تمويل عمليات محو الامية وحسن استثمارها .

ح ـ استخدام الاساليب والتقنيـات الجديدة في صلب عمليـة محو الامية ، وتطوير محتوى وطرائق التعليم بما يتمشى مع احتياجات المتعلم ومطالب التطور في المجتمع .

ط ـ اسهام جميع اصناف المتعلمين من مختلف القطاعات الرسميـة والشعبية بالتعليم في صفوف محو الاميـة وفق قواعد واسس صحيحة .

ي ـ زيادة فاعلية المنظمات الشعبية في عمليات محو الامية وعلى جميع الاصعدة « تخطيطا وتنظيما وادارة وتنفيذا ومتابعة وتقويما » .

ك ـ الاهتمام والتركيز على البحوث والدراسات الخاصة بمحو الامية ، وتوثيق التعاون وتبادل الخبرات دوليا وعربيا في ميدان محو الامية بهدف اغناء حركة محو الامية ورفع سوية العمل كما ونوعا .

★ ★ ★

واخيرا يبقى السؤال الكبير :

ترى متى تحتفل جماهير القطـر العربي السوري بيوم مصرع الاميـة الابجدية والحضارية ؟!

الرواية العربية
هل هي تراث واحد ؟

هيلاري كيلباتريك
ترجمة توفيق الاسدي

هل توجد رواية عربية ؟ والى اي مدى يمكن اعتبار ان الروايات المكتوبة بالعربية تنتمي الى تراث كتابي واحد ؟ الى اي حد يمكن لنقد الروايات المصرية أن يطبق على الروايات السورية أو اللبنانية مثلا ؟ هل الاختلافات ما بينها تنبع من التنويعات العرضية حول الثيمات المشتركة ؟ او هل يمكن ارجاعها الى نزعة تتواجد في مختلف البلدان نحو اكتشاف مساحات متميزة من التجربة او اساليب واشكال ملائمة بعينها ؟

تواردت هذه الاسئلة في ذهني بينما كنت بصدد دراسة الرواية المصرية ، فقد كان ممكنا — على نحو بين — النظر الى تطور هذا الجنس الادبي هناك بمعزل عن الكتابات النثرية في الاقطار الاخرى الناطقة بالعربية ؛ ومع ذلك فان علاقة وثيقة بينها قد جرت الاشارة اليها في بعض الكتابات النقدية . ورغم أن المقتطف التالي من مقدمة الدكتور « جونسون دايفير » لمجموعة من القصص القصيرة لايشير الى الرواية بالذات ، الا انها يبدو لي وكأنه يعكس موقفا عاما تجاه الكتابة النثرية العربية :

« لقد نظرت الى العالم العربي كوحدة ثقافية وهو كذلك بالفعل ، وهذه القصص هي نتاج لتلك الثقافة . ورغم انها قد تكون موضع اهتمام عام القارىء غير العربي ، الا انه ليس من المهم الا قليلا « ان يكون احد الكتاب قد ولد في سوريا والاخر في السودان .. المهم والقاسم المشترك بين كل واحد من الكتاب في هذه المجموعة ، هو ان كل قصة قد كتبت باللغة العربية الكلاسيكية ، وهو العامل الذي تعتمد عليه الوحدة اللغوية الفريده للعالم العربي » (١) .

وربما كان هذا هو الموقف الذي نجده كامنا في تفسير القصة القصيرة العربية كما ورد في مقدمة كتاب « الكتابة العربية اليوم » (٢) ، فكل أمثلته مقتبسة من الاعمال الادبية المصرية عدا قسم صغير يدور حول الثيمات ، رغم أن القصص القصيرة من مناطق اخرى من العالم العربي تشكل نصف المجموعة وتاريخ شكل القصة القصيرة هناك مختلف . ان مسألة الاصل وتأثيره المحتمل في الكتاب امر يتم تجاوزه في صمت . كما ان عنوان دراسة عبد المحسن طه بدر حول تطور الرواية المصرية « تطور الرواية العربية في مصر » (٣) يشير الى الارضية المشتركة لتطور الرواية في مصر ومناطق اخرى من العالم العربي ، رغم ان هذه القضية لم تطرح ابدا في سياق الدراسة .

وهناك مجموعة اخرى من الكتابات تبرر تركيزها الصريح على اقليم واحد مثلا يثبت يحيى حقي في كتابه « فجر القصة المصرية »(٤) ان الحركات الادبية في مصر في السنوات الاولى من هذا القرن كان لها شخصيتها المستقلة فقد كانت روابطها مع أوربا على وجه الحصر . وكذلك يعكس عنوانان لكتابين صادرين في سلسلة نشرتها مؤسسة الدراسات العليا التابعة للجامعة العربية في القاهرة وهما « الفن القصصي في لبنان »(٥) و « القصة في سوريا » (٦) هذا الموقف نفسه ، رغم انهما يذكران بوجود معرفة بالاعمال الادبية المصرية والعربية الاخرى في الدوائر الادبية لهذين البلدين ولكن المعالجة الاقليمية الصريحة لهذه الدراسات مسلم بها .

هذا وقد تتواجد كلتا النزعتين النقديتين ، اي الافتراض بأن اللغة المشتركة هي انعكاس لوحدة عميقة ، والميل الى قصر البحث على اقليم واحد في العالم الناطق بالعربية وذلك على نحو منفصل او في آن معا ، لكن الذي لم اكتشفه هو وجود اي تقييم لهاتيــن الطريقتين او اي محاولة لتحليل اهمية اللغة كعامل موحد . وعلى كل حال ، هناك امثلة عديدة عن آداب مستقلة كتبت باللغة نفسها ، والادبان الانكليزي والاميركي من أول الامثلة التي تخطر لي . هذا وليس صعبا اقتراح اسباب لهذه الناحية المغفلة من النقد . ان للقومية العربية يدا في ذلك ، وكذلك الصعوبات العملية التي تسببها مشكلات توزيع الكتاب وان يكن هذا أقل وضوحا . يجد المصري صعوبة في الحصول على كتب تنشر في المناطق الاخرى الا ان كانت من تاليف أوسع الكتاب شهرة كسهيل ادريس ونزار قباني . ان دار النشر الصغيرة في بيروت أو القاهرة لن تجد مجالا لايصال كتبهـا الى الاسواق العربية الاخرى ، وهذا ينطبق اكثر على دمشق أو بغداد .

والآن ، مع وجود عدد كبير من الروايات المكتوبة بالعربية ، فانه من الممكن ــ بل من الضروري على نحو متزايد ــ اخذ العلاقة بين المدارس الاقليمية في الكتابة بعين الاعتبار . هذا ويؤمل ان يؤدي بحث هذا الموضوع الى وعي أعظم للاشكال التي اتخذها هذا الجنس الادبي في البلدان العربية ، والى تحفيز تطوره وتوفير منظور لنقده . وقد سبق وظهرت محاولات لدراسة الثيمات التي تظهر في مختلف البلدان(٧) ولرسم تطور الرواية في مصر والمشرق (٨) في صفحات قليلة هنــاك عدد مــن الدراسات التي تتقصى بزوغ فجر الرواية في مصر ولبنان وسورية والعراق (٩) ، وهذا تمهيد ضروري لدراسة أوسع للرواية العربية . ان المشكلة الاعظم التي تواجه اي شخص يأخذ على عاتقه مثل هذه الدراسة هي مشكلة توفر المادة ، وهذه مشكلة جدية خارج الشرق الاوسط على نحو خاص . وفي هذا البلد (اي انكلترا ــ (المترجــم) فان الروايات والمصادر الثانويــة الخاصة بمصر ولبنان متوفرة الى حد لا بأس به ، ولكن اذا تحرك المرء اكثر باتجاه الشرق ، فان المجموعات تصبح اكثر ندرة وخاصة المصادر العراقيــة .

وبسبب هذه الصعوبة بالذات لا ادّعي اني سأقوم هنا بأكثر من مجرد اقتراح بعض خطوط المعالجة لموضوع يستحق دراسة مطولة وشاملة .
لقد شهد عام ١٩٦٧) نشر رواية « ميرامار » لنجيب محفوظ في مصر « وخمسة اصوات » للعراقي غائب طعمة فرمان في بيروت . وفي وقت سابق الى حدما نشرت الروائية اللبنانية اميلي نصر الله روايتها « طيور ايلول » . اما اشهر هذه الروايات فهي اولاهم دون شك ، والاشخاص الذين لم يقرؤوا الرواية ربما شاهدوا الفيلم . وهذه الرواية وهي الاخيرة في سلسلة من الروايات التي كتبها نجيب محفوظ بـ « اسلوبه الجديد » ما بين عامي (١٩٥٩ — ١٩٦٧) ، عبارة عن حكاية رمزية ذات مغزى اخلاقي Parable تدور حول الوضع السياسي في مصر اذ ينزل خمسة اشخاص يمثلون النزعات السياسية المختلفة في بنسيون في الاسكندرية تديره عجوز يونانية ، هي تجسيد للماضي الفاسد وتبعيته للنفوذ الاجنبي . اما الخادم « زهرة » ذات الاصل الفلاحي فتمثل المواطن المصري الحقيقي ، وهي بالذات من يرمز الى المستقبل مع مزيج من البراءة والاعتماد على الذات . الشكل في هذه الحكاية الرمزية السياسية مقتصد ويعتمد كثيرا على الحوار ، ولاشك ان هذا احد اسباب نجاحها سينمائيا كما ان تقنية وصف الحوادث نفسها من خلال وجهة نظر اكثر من شخصية واحدة تستعمل لتوضيح الشخصيات المختلفة .
اما اكثر اخطاء الرواية خطورة فهو شدة قربها من الريبورتاج : فالشخصيات انماط ، والقضايا التي تشغلهم من النوع العابر . وبالفعل، فان احداث (١٩٦٧) كانت كافية لجعل مادة الموضوع باطلة الطراز ، بينما كان التفاؤل الحذر للمؤلف بالنسبة الى المستقبل غير متناسب مع الورطة المأساوية التي وجد بلده نفسه واقعا فيها .

اما الرواية التالية « خمسة اصوات » فهي الرواية الثانية(١١) لكاتب يعيش في موسكو منذ (١٩٦٠) (١٢) . تجري حوادث الرواية في بغداد في بداية الخمسينات وهي تصف محاولات اربعة من المثقفين لتحرير انفسهم من امرين : المجتمع المحافظ لمدينة بغداد الذي لم تكن قد لمسته

حتى ذلك الحين يد العصر وميلهم الى هجر النضال ومن ثم التكيف . السياسة تلعب دورا حيث ان معارضة الديكتاتورية مظهر واحد من مظاهر النضال من اجل الاصلاح الاجتماعي ، وفي النهاية يغرق اجراء حكومي ، هو اغلاق الصحيفة ، بين الاصدقاء الاربعة : فاحدهم يضطر الى مغادرة البلاد ليكسب عيشه بينما يحضّر الآخرون انفسهم للبقاء في الوطن حتى نهاية العاصفة . لكن جزءا هاما بالقدر نفسه من اجزاء الرواية هو محاولة جعل الصوت « الخامس » يواجه مسؤولياته العائلية . فقد زوجه ابوه وهو بعد صغير السن من فتاة لا يشعر نحوها بأية عاطفة، فما كان منه سوى ان اهملها واهمل اطفاله منذ ان مات والده . وبما انه الضحية والمجرم في الوقت نفسه ، فانه غير قادر على التغير ويغرق في الشراب والعزلة . السياسة ـ كما يظهرها المؤلف ـ ليست سوى مجرد جزء فحسب من عقدة كاملة ، كما لا نجد محاولة لرسم خطوط الكفاف الخاصة بالحياة السياسية العراقية .

ان ايقاع هذه الرواية اكثر بطأ من ايقاع رواية محفوظ، كما ان الشخصيات قد رسمت على نحو اقل وضوحا ، بل انه ليس من السهل تمييزها في البداية . اما التقنية فهي تعتمد على السرد الذي يقوم به « الشخص الثالث » ، ولكن الشخصيات الخمس تمنح اقساما منفصلة بحيث ان الحوادث المتشابكة يتم وصفها من زوايا مختلفة ، وهذا يمثل تطورا هاما، رغم ان المؤلف لم يحرز تمكنا كاملا من هذه التقنية . وعلى الرغم من ذلك فان استحضار الحياة في بغداد والتباين ما بين السلوك التقليدي لعائلات هؤلاء المثقفين وبين آمالهم ومحاولاتهم الخاصة ، يتم نقلهما بمهارة وبعمق أكثر مما كان ممكنا الوصول اليه بالطريقة السردية البسيطة . ويمكننا التأكيد على مظهرين من مظاهر اسلوب الكاتب : استعماله الحكيم للمفردات والتعابير العراقية العامية واستعماله المترع بالخيال للصور المجازية .

اما رواية إميلي نصر الله « طيور ايلول » فقد حازت على جائزة ادبية في لبنان . وهنا نجد فتاة لبنانية قروية ، تعلمت واستقرت في المدينة

تستعمل انتقامها ألتدريجي من عائلتها ومجتمع قريتها كاطار قصصي تصف من خلاله حوادث من حيوات أصدقائها ، وخاصة حكايات حبهم الفاشلة وزواجاتهم المرتبة سلفا . الثيمات المتشابكة للرواية بسيطة : اما تأثيرها فنابع من الطريقة التي ترتبط فيها عواطف الشخصيات بالطبيعة وما حول القرية من مشاهد طبيعية ، والفصول المتقلبة وايقاع العمل في الحقول . النبرة غنائية ، ولكن جرى فرض انضباط كاف على المادة لمنع الرومانتيكية المتأصلة في الموضوع من ان تطفى .

هذه الروايات الثلاث التي اخترناها جزافا من الفترة نفسها تظهر لنا تنوع الشكل والموضوع والاسلوب في الرواية العربية المعاصرة. والاختلافات ليست عميقة فحسب : فالمرء لا يستطيع أن يستبدل اسماء شوارع بغداد في رواية « خمسة اصوات » بأسماء أخرى من القاهرة ويقنع القارىء بأن هذه رواية مصرية . فالتباين الشديد بين المجتمع والمثقف التقدمي ـ يذكرنا بالروايات المصرية التي كتبت في اواخر الاربعينات ، ولكن ليس بالوضع السياسي . كما أن تأثير استحضار المدينة ـ وخاصة الاحياء الفقيرة فيها ـ فريدة من نوعه . كما أن « ميرامار » و « طيور ايلول » تعكسان أيضا مظاهر خاصة بالبلدين اللذين انتجاهما . هل تعتبر هذه الروايات نموذجية بالنسبة الى التراث التي تمثله كل منها على حده ، وما الذي شكل تطورها ؟

العامل الاول التاريخي . فالظروف المحيطة بظهور وتطور الرواية في مصر معروفة تماما الآن(١٣) والآراء قد أجمعت على ان رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل(١٤) هي أول رواية حقيقية واصيلة تكتب في مصر . لقد تشرب هيكل ، عضو حلقة الجريدة وتلميذ أحمد لطفي السيد ، فكر معلمه الاصلاحي الليبرالي المشوب بالدينوية وغير المتأثر بنداءات الوحدة الاسلامية . لقد كان هيكل والروائيون من بعده ضمن التيار الرئيسي للتطور الفكري في مصر ، وهذا التيار ـ قبل الحرب العالمية الثانية ـ لم يكشف اهتمام بالتطورات الموازية في المشرق أو بالقومية العربية .

كان الادباء المصريون يميلون الى يكونوا ذاتيين ، وهو موقف شجعته الدعوات الى ادب ممصر خلال العشرينات والثلاثينات (١٥) ونتيجة لذلك فمن معرفتهم بما كان يكتب في بقية العالم العربي كانت قليلة(١٦) ، وكانت التأثيرات التي مورست عليهم اوربية : فرنسية اولا ثم انكليزية فروسية(١٧) .

بعد « زينب » لم تستأنف كتابة الروايات حتى نهاية العشرينات ، ولكن منذ ذلك الحين كان الانتاج مستمرا ، والا من قبل « جيل ٨٩ » كطه حسين وتوفيق الحكيم وآخرين ، وكذلك معاصرهم طاهر لاشين من « المدرسة الجديدة » ، ومن ثم من قبل واقعيي الاربعينات وعلى رأسهم محفوظ . وبعد ثورة (١٩٥٢)منح الكاتبات الواقعيان الاشتراكيان عبد الرحمن الشرقاوي ويوسف ادريس الرواية اتجاها جديدا ، وبعد ذلك عاد بعض الكتاب الشباب الى تصوير للريف اقل اتجاها نحو السياسة هذا الانتاج المتواصل منح الرواية المصرية مكانة فريدة في العالم العربي .

وفي المناطق الاخرى كانت الرواية ابطأ في تقدمها نحو الرسوخ . فالحياة الثقافية في سوريا ولبنان عانت من تأثير الهجرة التي بدأت منذ عام (١٨٦٠) وما بعده ، وبالفعل فان اهم الاسهامات التي قدمها الادباء السوريون للادب العربي قبل الحرب العالمية الثانية تمت اما في مصر او في الامريكيتين . هذا وقد قدمت الثقافة الفرنسية مع وصول جيوش الانتداب ، كما ان الجهود الحثيثة المبذولة من قبل الفرنسيين لنشرها قد ادت الى عزلة معينة لهذين البلدين عن بقية العالم العربي ، وخاصة سوريا(١٨) . ان نشر رواية « الرغيف » لتوفيق يوسف عواد عام (١٩٣٩) قد سجل اول محاولة هامة في مجال الشكل ، ولكن الرواية لم تتدرج كتابتها الا في الخمسينات والستينات مع روايات سهيل ادريس وجميل جبر وليلى بعلبكي وليلى عسيران واميلي نصر الله في لبنان ، وحنا مينه وهاني الراهب وحليم بركات ومطاع صفدي في سوريا . اما في العراق فقد اختلفت الاوضاع اذ ان المقاطعات العراقية التي كانت جزءا من

الامبراطورية العثمانية معزولة جغرافيا وثقافيا عن التأثيرات الاجنبية . وهكذا نجد أن « الرواية الايقاظية » لسليمان فيضي وهي المعادل العراقي لرواية « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي قد ظهرت عام (١٩١٩) اي بعد (١٢) عاما من ظهور نموذجها الاولي . ولكن هذا التأخر النسبي سرعان ما فقد أهميته ، فقد ظهرت مدرسة واقعية في الكتابة تطالب بالحاح بالاصلاح الاجتماعي والسياسي وذلك مع اعمال ذي النون ايوب التي نشرت قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، واستمرت على نحو اشد صقلا مع كتابات فؤاد التكرلي وغائب طعمه فرمان وشاكر خصباك .

ومن هذا المخطط السريع يمكننا ملاحظة انه بينما وجد تراث متواصل للرواية المصرية منذ العشرينات فان بلدان الشرق قد تأخرت عنها في تبني الشكل الروائي كما ان التراث الروائي هناك لم يكن متواصلا ، هذا بالاضافة الى ان الحجم خارج مصر كان اقل مما هو في مصر ، والسبب هو انه ليس هناك من روائي عربي جدي كتب باستمرارية نجيب محفوظ، رغم ان اعتبارات عدد السكان امر يجب اخذه بعين الاعتبار . ان لمصر من السكان ضعف ما للبنان وسوريا والاردن والعراق مجتمعة ، والادب يمكن ان يتأثر بمثل هذه الحسابات . ولكن يبدو لي ان الانطباع بأن معظم الروايات قد انتجت في مصر أمر يجب تصحيحه ، فحتى نهاية الخمسينات كان هذا صحيحا ، ولكن منذ ذلك الحين بدأ الكتاب اللبنانيون والسوريون والعراقيون بكتابة الروايات بينما اتجه المصريون نحو كتابة الدراما اكثر من الرواية . وبالفعل فان الكتاب الشباب هناك الذين قاموا بنشر روايات كعبد الحكيم قاسم ومحمد القعيد قد يمثلون بداية مثل هذه النزعة ، ولكن الامر لا يتعدى الآن اكثر من ذلك .

ما هي الصفات المشتركة بين كل هذه الروايات المكتوبة في مختلف انحاء العالم العربي ؟ أولا وقبل كل شيء هي جميعا مكتوبة باللغة نفسها ، وبالفعل فان هذا في نظر البعض العامل الموحّد رقم واحد . ولكن حتى في هذا الخصوص يظهر لدينا اختلاف في الطريقة ، فالروائيون الاقدم وبعض الشباب يميلون الى استعمال اللغة الادبية فقط ، ولاسباب مختلفة هذا

هو اساس وحدة العالم العربي ، وهو يتيح ألفهم السهل خارج حدود بلد المؤلف واقليمه . والتخلي عن ذلك هو التخلي عن لغة القرآن والاقرار بالاختلافات الاقليمية والمكانية وحتى احتمال عدم الفهم فاللغة العامية غير مناسبة للتعبير عن افكار بعينها(١٩) . ولكن يمكننا ان نلاحظ سلفا في كتابات يحيى حقي(٢٠) موقفا آخر يتمثل في استعمال كلمات من اللغة العامية حين لا يوجد تعبير في اللغة العربية الادبيــة يتمتع بالنكهة نفسـها او ينقل الظل المطلوب من المعنى . هذه النزعة ظاهرة في الحوار على نحو خاص ، حيث الاغراء بتسجيل لغة الشخصية دون « ترجمتها » الى اللغة الادبية اقوى منه في المقاطع الوصفية . ان تبني الكلمات والتعابير العامية يمكن ان يكون نادرا ولكنه لدى الكتاب الذين بدأوا بالنشر خلال الخمسينات وما بعدها قد اصبح شائعا على نحو متزايد . ولدى استعمال تقنية « تيار الشعور » فانه يمكن للعامية ان تستعمل كأساس للروايــة كلها(٢١) . والقضية هنا ليست قضية اسلوب فحسب ، ولكنها تتعلق بالقناعات الســياسية ، ونحــن نجد الكتاب ذوي القناعات الاشتراكية يدعمون استعمال العامية .

ان استعمال اللغة المحكية يمنح الرواية نكهة محليــة حتما ، فاسماء الاشياء المتعلقة بمنطقة بعينها ، وخاصة الاطعمة كالفول والتبولة ، تعطي لونا محليا وبعدا جديدا لواقعية الرواية . اما الحوار بالعامية فيتميز ببساطة ومباشرة لا يمكن للغة الادبية ان تحققهما ببساطة ، وقد تعكس ايضا الكلام التكراري الايقاعي الذي توحيه العاطفة القوية ، وبذا نصل الى لغة الشعر الشعبي(٢٢) . وهناك ميل الى استخدام العامية على نحو اكثر حين تتكلم الشخصيات الاقل تعليما وذلك توخيا للصدق . ومهما تكن المبادىء الكامنة خلف استعمال العامية فهي طريقة فعالة لتمييز روايات البلد الواحد عن روايات البلد الآخر ، وبما ان الشخصيات تعرف نفسها من خلال الكلام ، فان استعمال لهجة معينة يرسخ أصول هــذه الشخصيات دون شك .

يميل الكتاب المصريون الى الاعتماد على لهجتهم المحلية اكثر من غيرهم من الكتاب العـرب ، حيث ان هناك اعتقادا شائعا بأن العامية المصرية مفهومة في كل انحاء العالم العربي . وعلى العكس من ذلك فان المصريين غير مطلعين الا قليلا على اللهجات العربية الاخرى ، كما ان القليل من الكتاب مستعدون لحرمان انفسهم من السوق المصرية على اساس عدم الفهم . وقد يؤدي هذا الى نتائج غريبة : فالرواية الاولى لليلى عسيران « لن نموت غدا » (٢٢) مؤلفة من جزئين ، الاول تقع حوادثه في لبنـان حيث تتحدث الشخصيات فيه باللغة العربية الادبية ، والثاني في مصر حيث تتحدث الشخصيات باللهجة المصرية عدا البطلة اللبنانية . هـذه الطريقة ، التي يبدو كأن لها تبريرا سياسيا ، تحمل منطقا تجاريا الى حد كبير .

ان استعمال اللهجة ليس ضروريا ـ على اية حال ـ لنقل الصفة المحلية للرواية ، واعمال نجيب محفوظ تدعم هذا الراي : فبدون الابتعاد عن اللغة العربية يستطيع هذا ان يخلق جوا مصريا خالصا . ان تأثير اللهجة يتجلى في نقل الحاحية الانفعال وللتوكيد على الخلفية الاقليمية ـ واحيانا الطبقية ـ للشخصية ، انها لاتستطيع خلق تراث اقليمي ، بل يمكنها ان تقويه .

هناك مظهر لغوي آخر يجب اخذه في الاعتبار هنا . ان التمييز الاسلوبي المهيمن في النثر العربي الحديث هو ما بين اللغة العربية الادبية والعامية، ولكن ضمن النطاق الادبي هناك تمييز آخر تمكن ملاحظته . الاسلوب مسالة شخصية عادة ، ولا يمكن للمرء ان يشير الى بلد ما كموطن لاسلوب بعينه (٢٤) . ولكن هناك على اية حال استثناء واحد لهذه القاعدة : تراث النثر الشعري ، الذي استهله الكتاب المسيحيون اللبنانيون والسوريون، والذي وجد أفضل تعبير له في كتابات جبران ، مازال حيا في لبنان . فكتاب كاميلي نصر الله مثلا يستعملونه لوصف جبال وقرى لبنان ذات الجمال الرومانتيكي الذي يستطيع هذا الاسلوب تصويره . كما يمكننا اعتبار هذا الاسلوب كطابع لمدرسة اقليمية متميزة .

منذ بداية القرن التاسع عشر خضع الشرق الاوسط ومازال لتغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية عميقة ، ومنذ الحرب العالمية الاولى على الاخص اصبحت هذه التغييرات ملموسة في المجتمع . ان انتشار التعليم على الطريقة الاوربية وتطور وسائل الاتصال الجاهيرية ، وتحقيق الاستقلال الوطني ، وتحرر المراة ، والاهمية المتناقصة للدين في المجتمع والتساؤلات الموازية حول معنى الحياة ، ورفض المتعلمين قبول سلطة التقاليد وتبنيهم لايديولوجيات تنادي بالكفاح لتحقيق رخاء أوسع وحرية أعظم ، كل هذه الامور قد مر بها العالم العربي(٢٥) . في بعض المناطق قطع التغيير شوطا طويلا ، بينما يبدو انه لم يبدأ بعد الا بالكاد في مناطق اخرى كشبه الجزيرة العربية مثلا ، ولكن النتيجة كانت هي ترك العالم العربي كما قال حليم بركات : « نصفه في القرن العشرين ونصفه الآخر في فترة ما قبل العصر الحجري »(٢٦) .

هذه هي خلفية الروائي العربي ، ومن الواضح ان التجربة العامة التي يشاطره اياها زملاؤه من الكتاب في كل انحاء العالم العربي هي تجربة واحدة . وهكذا يمكننا تمييز ثيمات مشتركة تليها المشاكل المعاصرة للمجتمع : مازق المثقف ، النضال من اجل قبول الدور الجديد للمراة ، الكفاح ضد الفقر والجهود المبذولة لتاسيس نظام سياسي عادل ، البحث عن هدف في الحياة حيث ان الاطار القديم للمعتقدات والعادات قد تحطم . ولكن كما ان التعميمات حول التجربة التاريخية الاخيرة للعالم العربي لا بد أن تحدد ضمن حالات فردية ، فان هذه الثيمات العامة يمكن أن تبدو كأن لها تنويعات اقليمية . وسوف اعود الى بعض هذه التنويعات الآن .

من اسهل ما يمكن تمييزه هو المكانة التي يتحلى بها الدين في الروايات المصرية وربما العراقية من ناحية ، والسورية واللبنانية من ناحية اخرى. اننا نجد ان الكتاب المصريين هم دائما من المسلمين ـ تقريبا ـ وهم يكتبون مع تسليم بخلفيتهم الدينيـة ، حتى ولو اقروا ضمنا ان دور الاسلام مقتصر على تنظيم الحياة الخاصة للفرد ، واولئك منهم الذين يهتمون بالاصلاح السياسي والاجتماعي يتجاهلون الدين كلية احيانا . وفي الوقت

نفسه فانهم يدينون أوضح تجلياته كالممارسات الغيبية وجهل القادة الدينيين ودور الدين كـ « أفيون للشعوب » . يشكل الاقباط ١٢ ٪ من سكان مصر ولكنهم لا يلاقون اهتماما مساويا لهذه النسبة في الروايات. فحين يكون الكاتب قبطيا فانه ينقل شخصياته الى بيئة مسلمة(٣٧) ، كما أن العلاقات ما بين المجموعتين من السكان نادرا ما تعالج . ليس عجيبا أن يبدو الدين في لبنان ــ ذات النظام الفريد من تعدد الطوائف ــ في ضوء مختلف . وفي سوريا رغم أن المسيحيين أقلية الا انهم يتحلون بمركز مرموق في الحياة الثقافية ، فان الوضع مشابه(٣٨) . وهنا ، فان ما يشدد عليه هو الاذى الذي سببته الانقسامات الطائفية للوحدة الوطنية ، وكذلك القيود المفروضة على الفرد بسبب موالاته الاجبارية لطائفة بعينها والتي هو عضو فيها بحكم ولادته . والاختبار يكون حين يود شخصان من طائفتين مختلفتين الزواج ، ويواجهان المعارضة العتيقة المعروفة من قبل الآباء . هذا وفي رواية « ستة أيام » لحليم بركات فان الصدام بين العاشقين من جهة والام التقليدية من جهة أخرى يستعمل كرمز للصراع بين التقاليد وروح التغيير . ان « الرواية التربوية » Bildungsroman (أو التي تتحدث عن شخصية ما بما يخالف التقاليد المهودة في الوســط الذي يعيش فيه البطل (المترجم) التي تصف انفصال البطل عن خلفيته التقليدية وطقوسها الدينية ، يتم اظهاره على نحو أقل اتقانا مما في مصر ، ولكن حين يعالج هذا الموضوع في رواية « الخندق الغميق » لسهيل ادريس مثلا ، لا يطرح الدين كمكان لتفريخ الخرافات ، ولكن كجزء أساسي وهام في عملية صون المجتمع المحافظ . من الممكن طبعا ان نجد في لبنان او سوريا كتابا لا يولون الدين اهتماما كبيرا ، وكذلك في مصر . وحين تثــار هذه المسألة ، على كل حال ، فانها تتخذ شكلا مختلفا ، كما ان المسيحيين يعالجون هذه المسألة من وجهة نظرهم كجماعة .

وهناك تنويع آخر نجده في السياسة : واذا ما اخذنا في الاعتبار انواع الانظمة السياسية العربية فهذا امر طبيعي ، ولكن التطورات التاريخية تلعب دورا هاما أيضا . ان الروايات المصرية في الاربعينات تصور الكفاح السياسي بلغة ضرورة تدمير الارستقراطية الفاسدة . وبالنســبة الى هذه

الروايات فان المصلح المثالي هو المثقف الليبرالي المتنور ذو القناعات الاشتراكية. هذا وتبدو افكار غالب طعمة فرمان السياسية مشابهة لهذا. وهناك موقف آخر من السياسة هو موقف الكاتب الذي يؤيد برنامجا سياسيا محددا والذي يستعمل كتبه ليبشر به . وهنا ، يخطر لنا اسم عبد الرحمن الشرقاوي مع تصويره المتميز للفلاحين المصريين النشيطين سياسيا ، ولكن هذا لا يختلف عن الموقف الذي تتخذه رواية « الحقد الاسود »(٢٩) للعراقي شاكر خصباك . وفي هذه الرواية ، على الرغم من ان الحدث يقع بأكمله في السجن الا ان المقابلة ما بين الطرف الذي على حق ، مع مبادئه التضامنية والمجيدة ، وبين مضطهديه القساة ، هي الثيمة الاساسية للرواية وتشكل هجوما واضحا على نظام قاسم . وهناك امكانية ثالثة للكاتب هي ان يقبل الخطوط العريضة لبرنامج سياسي وذلك ليشعر انه حر في مناقشة القضايا دون العودة الى ذلك البرنامج باستمرار. وهذا هو الحال مع مطاع صفدي(٣٠) وعبد السلام العجيلي(٣١) ، وربما كان هذا مميزا لحزب البعث في سوريا حيث البرنامج السياسي اقل صرامة منه في الانظمة الاخرى . لا يمكن للمرء ان يتخيل وزيرا مصريا للثقافة يعالج النشاطات السياسية لبطل روايته بتلك الفروسية التي لعبد السلام العجيلي .

ان الوضع في مصر منذ الثورة قد جعل من المستحيل بالنسبة الى الكتاب التعبير عن وجهات نظرهم السياسية بصراحة ، كما ان اعمال محفوظ الرمزية منذ عام (١٩٥٩) تتناقض بحدة مع كتاباته قبل عام (١٩٥٢) . وبالنسبة اليه ، كما هو الحال بالنسبة الى يوسف ادريس وبعض الكتاب الشباب ، فان السياسة الآن موضوع غير قابل للنقاش . وبالتباين مع هذا فان سهيل ادريس في روايته الاقرب الى السيرة الذاتية التي يصف فيها مهنة محرر المجلة الادبية (٣٢) تقدم لنا تحليلا معقولا لمختلف النزعات السياسية وتبرر سياسة الاستقلال وعدم الانحياز التي اختارها . هذا ومن المتوقع ان تقوم رواية لبنانية برسم اكمل الصور واكثرها تنوعا للايديولوجيات الممثلة في الشرق الاوسط .

ان فلسطين ، القضية السياسية التي تهيمن على الشرق الاوسط وذلك بالنسبة الى سكانه والى بقية العالم ، لم تتلق سوى اهتماما بسيطا في الروايات وهو امر يدعو الى الدهشة : فان العملين اللذين يجعلانها الثيمة الرئيسية قبل عام (١٩٦٧) هما : «رجال في الشمس» للكاتب الفلسطيني غسان كنفاني والرواية المسماة على نحو نبوئي « ستة ايام » لحليم بركات . وكلا هاتين الروايتين تحتلان مركزا مرموقا بين الروايات العربية رغم ان طريقتهما في المعالجة مختلفتان. فكنفاني يظهر لنا كيف ان اللاجئين في كفاحهم للبقاء يخففون دوما من حدة مأساتهم ، بينما يعالج بركات موضوع حرب فلسطين عام (١٩٤٨) على نحو رمزي لكي يكشف مكامن الضعف في العالم العربي . ان الاشارات الى حرب فلسطين وخاصة الدور الخياني للجيل السابق ونصيبهم من المسؤولية عما حدث نجدها متناثرة في بعض الروايات اللبنانية والسورية ، بينما لا تظهر الا نادرا في الروايات المصرية . اما حرب الجزائر الهامة ــ وهي ذلك الكفاح المرير الآخر ، فنجدها حية في ضمير كتاب المشرق . اما بالنسبة الى المصريين فان وضعهم السياسي الداخلي يكفيهم .

لقد استهلت رواية « زينب » تراثا للكتابة في مصر يمثل فيه الفلاح البلد وصفاتها الداخلية الثابتة ، « وميرامار » مثال حديث على ذلك . اما عكس هذا التشخيص للبلد بالفلاح فيظهر في الموقف المتكافىء الضدين لساكن المدينة من الفلاح : انه يجد الفلاحين مختلفين جدا في شروط حياتهم ، ومستوى تعليمهم ، ومعتقداتهم وقيمهم بحيث أن هوة من النوع غير الممكن تخطيه تفصله عنهم . هذا الموقف لا يجرى تبينه من قبل الكتاب ذوي الخلفية المدينية كتوفيق الحكيم وغيره فحسب ، بل نراه في اعمال بعض الكتاب ذوي الاصول الريفية كلويس عوض في « العنقاء » ويوسف ادريس في « البيضاء » .

اننا لا نجد ايا من هاتين الطريقتين من طرق المعالجة في الروايات اللبنانية او السورية . فحين يختار حليم بركات مجموعة سكانية ما للترميز الى

فلسطين والعالم العربي ، فانه يستعمل بلدة هي دير البحر . وحتى إميلي نصر الله ذات الصلة القوية بحياة القرية لا تشعر ان اللبنانيين الحقيقيين لا يتواجدون سوى في القرية فحسب . انها متعلقة بالارض التي فلحها اجدادها وبمجتمع القرية ذي العلاقات الوثيقة حيث لكل امرىء مكانه ، كما انها تقوم بمفايرة هـذا مـع المدينة القبيحة عديمة الشخصية ، المزدحمة بالاشخاص الوحيدين ، والتي انشدت اليها بسبب توقها الى الاستقلال . وفي نظر كثير من الكتاب فان القرية مكان يعيش فيه الاقرباء الاقل حظا ، كما أن موقف ساكن المدينة هو موقف الشفقة تجاه اوضاعهم القاسية . وليس هناك ايحاء بوجود حضارتين متميزتين ، حضارة مدينية واخرى ريفية ، كما في مصر . المدينة هي مركز الحياة ، والقرية تقلدها بنجاح تقريبا . ويمكن ان يكون هـذا الوضع ذا علاقة بـ « انكار المرء لذاته » الذي نجده بين الفلاحين السوريين ، ويعود الى ان قيم المجتمـع الفلاحي هي قيم تنتمي الى انظمة معاديـة للفلاح ــ الاسلام ، المدينة ، او الصحراء(٢٤) ــ ولكن مهما يكن التفسير ، فـان الاختلاف في المواقف يبقى قائما . وفيما يخص التصوير اللبناني للقرية ، فان ملامحه الخاصة قد تعزى الى وجود تراث اقتصادي وثقافي اقرب الى أوربا منه الى بقية دول الشرق الاوسط (٢٥) .

وربما كان هناك واحد من المميزات الاكثر اهمية من غيره ، الا وهو ذاك الذي ينبع من اختلاف في المواقف الفلسطينية . فمنذ فترة الاربعينات كان هناك اختلاف مستمر في العالم العربي حول أهداف الادب ، كما برز مؤيدون لكلا وجهتي النظر الوجودية والماركسية . لقد وجدت الوجودية مؤيدين لها في سورية ولبنان عموما ، بينما كان للماركسية نفوذ اكبر في مصر رغم انها بعيدة عن أن تكون غير معروفة في الاقاليم الاخرى ، حيث انها وجدت طليعة لها بين الروائيين عبد الرحمن الشرقاوي . كما يمكننا ان نرى تأثيرها في التشديد على الصراع الطبقي ، ومتطلباتها بأن يكون الادب متفائلا (٢٦) . ولانجد آثار التفاؤل المفروض في روايات الشرقاوي فحسب ، بل في رواية « الحرام » ليوسف ادريس(٢٧) ، و « السمان

والخريف »(٢٨) و « ميرامار » لنجيب محفوظ . وكذلك النزعة نحو اعتبار الشخصيات على نحو اساسي كممثلين للطبقات التي ينتمون اليها ، نجدها في اعمال هؤلاء الكتاب انفسهم . ومن نتائج هـذا ذلك التركيز الاقل على الصراعات الداخلية للفرد ؛ مما كان عليه الامر في الروايات المصرية المكتوبة قبل الخمسينات ، وهي ردة فعل على الابطال الانطوائيين للمازني وجيله . ان ورطة المثقف ، الذي يجد نفسـه في اختلاف مع بيئته والمجتمع الذي عليه أن يعيش فيه،بسبب ثقافته الاوربية وموقفه المتشكك من التراث ؛ لم تعد الثيمة البارزة لهذه الفترة . لقد حل محلها الصراع الايجابي ، كما ان القيم التي يشن هذا الصراع من اجلها ليست محل تشكيك .

وعلى العكس من هذا يطرح سهيل ادريس افكارا مشتقة على نحو واضح من الوجودية في روايته « اصابعنا التي تحترق » وهي اعتراف يدور حول سياسته كرئيس تحرير لمجلة ادبية . وحتى عنوان رواية « القلق » لجميل جبر(٢٩) يكشف عن تأثير الفكر الوجودي ، كما أن معظم الكتاب السوريين واللبنانيين يبدون شيئا ما من هذه الاهتمامات نفسها . ان رواياتهم تركز على الفرد وعلى تطوره الفلسفي ، ورغم اننا لانجد احدا منهم يؤيد الانسحاب الى البرج العاجي ، الا انهم غير ميالين الى تصوير بانوراما للمجتمع او الى رؤية الصراع الطبقي على انه العامل الفصل . ان ابطالهم ملتزمون ولكن بمعنى اقل عملية مما هو لدى المصريين .

هذا الاختلاف في النزعات الفلسفية يفسر الى حد ما حجم الروايات التي كتبتها نساء سوريات ولبنانيات مؤكدات على استقلاليتهن ، في وقت اختفى فيه موضوع تحرير المرأة من الرواية المصرية . ليس للماركسية « سيمون دوبوفوار » اذ انها تعتبر ان تحرر النساء ليس سوى جزء من تحرر الطبقات المضطهدة ، بينما نجد ان تأثير الوجودية التي تؤكد على مأزق الفرد يساعد على التعبير عن حالة العذاب التي تعيشها الفتيات في مجتمع ما زال بعيدا عن قبولهن كبشر بحكم حقهن الشخصي .

لقد قيل ان تفضيل اللبنانيين والسوريين للوجودية يعود الى الحجم الكبير من ترجمات الكتب الوجودية المنطلقة من بيروت ، ووجود مجموعة من المفردات التقنية غير الشائعة لدى العرب الآخرين(٤٠) ، وقد يكون هذا صحيحا جزئيا ، لكنه لا يفسر كيف اصبح نجيب محفوظ مثلا مطلعا على الفكر الوجودي . وهناك عامل مساهم آخر جرت الاشارة اليه في مقابلة للناقد المصري طه بدر مع الكاتب السوري مطاع صفدي مؤلف « جيل القدر » . ان ادراكه لميزات هذه الرواية ومعالجته لنقاط ضعفها يتميزان بالذكاء ، ولكنه يدين الكاتب لتجاهله موضوع الفقر حيث أن « المشكلة الرئيسية للجيل الحاضر تتجلى في تأمين الحاجات المادية الضرورية »(٤١). واعتقد انه من المفهوم ان يتبنى مصري يواجهه ثقل الفقر في بلده — وهو ما يتم تذكيره به باستمرار بسبب شروط الحياة في بلده — هذا الموقف . اما الخطا الذي وقع فيه فهو ، انه افترض ان المشاكل الاقتصادية في سورية مشابهة لما في بلده وملحة بالمستوى نفسه . لم أجد بعد رواية تتميز بالنقد الاجتماعي غير المخفف في سوريا او لبنان ، وان سبب غياب مثل هذه الاعمال يعود جزئيا الى ان المشاكل الاجتماعية هناك لا تقحم نفسها على ضمير المرء الى الدرجة نفسها . وهكذا ، فبينما برهنت الماركسية على انها جذابة ، لم تكن الفلسفة الوحيدة القادرة على الرد على اسئلة المثقفين .

هل توجد رواية عربية ؟ يعتمد الجواب الى حد ما على مدى الارتفاع الذي يكون فيه الطائر لحظة تحديقه الى الاسفل . بالمعنى العام توجد رواية عربية بالتاكيد ، لانها تكتب بلغة واحدة ، كما ان تراثا حضاريا مشتركا وتجربة تاريخية معاصرة تتشارك فيها المنطقة كلها يزودان الروائيين في مختلف البلدان العربية بمادة متشابهة . وفي هذا الخصوص فان الرواية العربية تتميز في مادة موضوعها عن الرواية الافريقية او الالمانية مثلا .

وعلى كل حال فانه لا يمكن انكار ان هناك اختلافات ضمن تراث الرواية في العالم العربي . وقدتتجلى هذه في الاسلوب ، في الموضوع ، أو في الفلسفة التي تلهم الكاتب ، وقد تكون متاثرة بطول عهد هذا التراث في

البلد ، وحيث تعمل كل الاختلافات عملها فقد تكون الاعمال الناتجة متميزة بحدة الواحدة عن الاخرى . ولكني اعتبر « طيور ايلول » و « ميرامار » كحدين أقصيين في سلسلة متصلة ، واقر بأن الاتجاهات الاقليمية لم تضف جديداً بعد الى التراثات المختلفة .

واذا كان التطور المستقل للشكل في البلدان المختلفة مستمر من خلال تراث متواصل ، فالنتيجة ستكون مختلفة . وعلى كل حال ، فانه يبدو الآن كأن انتاج الروايات سيكون متقطعا في مصر ، حيث من المستحيل للكتاب الشباب في الوقت الحاضر نشر اعمالهم . واذا ما كتبوا فانهم يكتبون ـ كما يقول الروس ـ « للدرج » . واذا ما نما وضع مشابه في مكان آخر فلن يكون ممكنا استعمال مصطلح « الرواية العربية » بالنسبة الى الروايات المكتوبة بالعربية في اوقات مختلفة في بلدان مختلفة ، كما ان الاستمرارية المرضية للشكل ستمنع خطاً معينا من خطوط التطور من الاستمرار في النمو في أي بلد معين . سيكون النقاد عندئذ قادرين على الاشارة الى تشابهات عامة كما فعلوا حتى سنوات خلت . آمل أن هذا التنبؤ الاقل تفاؤلا سيكون خاطئا ، فالخمسة عشر سنة الماضية قد وضعت أسسا واعدة للرواية في العالم العربي .

(١٩٧٤)

الحواشي

(١) د. جونسون دايفز : « قصص عربية قصيرة حديثة » ، لندن ١٩٦٧ ص (٩ـ١) .

(٢) الكتابة العربية اليوم : القصة القصيرة ، باشراف م. منزلاوي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص (١٥ ـ ٣١) .

(٣) القاهرة ١٩٦٣ .

(٤) القاهرة ، دون تاريخ .

(٥) سهيل ادريس : « الفن القصصي في لبنان » القاهرة ١٩٥٨ .

(٦) شاكر مصطفى « القصة في سوريا » القاهرة ١٩٥٨ .

(٧) مثلا : س. حافظ « نكبة فلسطين في الرواية العربية » ، مجلة الآداب نيسان ١٩٦٤ ، ومثله : « ازمة الحرية في الرواية العربية المصرية » ، مجلة « حوار » ، أيار ـ حزيران ١٩٦٤ .

(٨) ر. مكاريوس ول. مكاريوس (بالفرنسية) : « مقتطفات من الادب العربي الحديث » الجزء الاول : « الرواية » باريس ١٩٦٤ ـ « المقدمة » .

(٩) لقد تجاهلت الكتاب الشمال الافريقيين الذين يكتبون بالفرنسية والذين ينتمون الى تراث مختلف . ان الكتابات العربية من المغرب والسودان يجب استثناؤهما لاسباب عملية .

(١٠) بيروت ، ١٩٦٢ .

(١١) روايته الاولى « النخلة والجيران » نشر نقد عنها في مجلة الآداب ، آب ١٩٦٦ . لكني لم ار اية نسخة منها .

(١٢) هذه المعلومة والمعلومات الاخرى عن حياته اوردها ج. كمال الدين في الآداب ، أيار ١٩٦٨ .

(١٣) انظر طه بدر ، المصدر السابق .

(١٤) القاهرة ١٩١٤ .

(١٥) سلمى الخضراء الجيوسي « اتجاهات وحركات الشعر العربي المعاصر » أطروحه للدكتوراه غير منشورة ، لندن ١٩٧٠ ص (٢٦٤) .

(١٦) لم يذكر لا طه بدو ولا يحيى حقي في مصدريهما السابقين انهما على علم باية رواية عربية كتبت خارج مصر بين كتاب هذه الفترة . قارن هذا مع ملاحظات سلمى الخضراء الجيوسي (وردت كثيرا في المصدر السابق) حول النزعة نحو العزلة بين الكتاب المصريين .

(١٧) يحيى حقي ـ المصدر السابق ـ ص (٧٤ ـ ١٠٠) .

(١٨) شاكر مصطفى ـ المصدر السابق ـ ص (٢٢٣) .

(١٩) قارن مع آراء نجيب محفوظ في حوار نشر في مجلة « حوار » آذار / نيسان ١٩٦٣ .

(٢٠) في « قنديل أم هاشم » مثلا . حوالي عام (١٩٧٤) .

(٢١) في رواية « الحداد » لمحمد القعيتد ، القاهرة ١٩٦٩ مثلا .

(٢٢) في روايـة الحداد (كثيرا) وفي روايـة « الارض » للشرقاوي ، القاهرة ١٩٥٤ ص (٥٣ ـ ٥٤) .

(٢٣) بيروت ١٩٦٦ .

(٢٤) هذا مظهر من مظاهر الكتابة ليس الاجنبي مهيئا للكتابة عنها ، ولكن حتى لو كانت الفروق الاسلوبية موجودة بين المناطق وكذلك بين الكتاب ، فان هذا الاختلاف ليس كافيا لخلق تقاليد فردية .

(٢٥) بالنسبة للتغييرات التي تحدث خلال حياة شاهد عيان واحد ، انظر كتاب « الشؤون الآسيوية » لـ « س. هـ. لونغريغ » ـ الجزء (٦٠) (شباط ١٩٧٣) .

(٢٦) ستة أيام ، بيروت ١٩٦١ ، ص (٩٣) .

(٢٧) لويس عوض : « العنقاء » ، بيروت ١٩٦٦ ، و ا. كامل « ميليم الاكبر » القاهرة ، ١٩٤٤ مثالان على هذا .

(٢٨) في رواية حليم بركات الدكورة ، وفي رواية سهيل ادريس « الحي اللاتيني » ، بيروت ١٩٥٥ ، وكذلك « الخندق الغميق » بيروت ١٩٥٨ ، وهاني الراهب « المهزومون » بيروت ١٩٦١ .

(٢٩) بيروت ١٩٦٦ .

(٣٠) « جيل القدر » ، بيروت ١٩٦٠ .

(٣١) « باسمة بين الدموع » ، بيروت ١٩٦٩ .

(٣٢) اصابعنا التي تحترق ، بيروت ١٩٦٢ .

(٣٣) بيروت ١٩٦٣ .

(٣٤) هناك تحليل مفصل لقيم الفلاحين نجدها في كتاب « ج. وولرس » (فلاحو سورية والشرق الادنى) بالفرنسية ، باريس (١٩٤٦) ص (٦٤ — ٨٩) .

(٣٥) المصدر السابق ، ص (٢٦٦) .

(٣٦) احسان عباس : « الاتجاهات الفلسفية في الادب العربي المعاصر » ، مجلة الآداب آذار ١٩٦٢ .

(٣٧) القاهرة ١٩٥٩ .

(٣٨) القاهرة ١٩٦٢ .

(٣٩) بيروت ١٩٦١ .

(٤١) احسان عباس ، في الموضع المشار اليه سابقا .

(٤١) الآداب ، تشرين الاول ١٩٦٠ .

الواقعية في الرواية السورية المعاصرة

فيصل سماق

ظهرت الواقعيـة في الرواية السورية المعاصرة نتيجـة عوامل متعددة ومتشابكة ، وتبلورت كاتجاه ادبي متميز ومتأثر بمجموعة من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية داخـل القطـر العربي السوري بخاصـة ، وعلى المستوى العربي والعالمي بعامة .

ان هذه الظروف مجتمعـة قد افضت الى ظهور الواقعية في الروايـة السورية المعاصرة كعوامل اساسية في تكوينها . ومن الممكن تحديد هذه العوامل او المكونات بالعامل السياسي ، والعامل الاجتماعي ، والعامـل الثقافي والفكري على الرغم من تداخل هذه العوامل وتأثيرها مجتمعة في ظهور هذه الواقعية ، ولكن قناعتنا ان المناخ السياسي الاجتماعي الفكري المحدد الذي اكتنف المجتمـع العربي في سورية ، سواء علـى المستوى الداخلي والعربي ، أم على المستوى العالمي ، في مرحلة زمنية محددة هو الذي فرز الاتجاه الواقعي ، او الواقعية في الرواية السورية المعاصرة . هذا الاتجاه الذي بدا بقـدر ما تتيح لانصاره واتباعـه الرؤية ــ رسم المشكلات الكبرى والصغرى التي يعيشهـا المجتمع العربي في سورية ، ووضع الحلول لهذه المشكلات كما تبدو لهـم .

ولسنا معنيين الآن بتقدير مدى نجاحهم في هذه المسألة او تلك ، او بقدرتهم على وضع رؤية علمية عميقة لمشكلات المجتمع وقضاياه ، وانما نستهدف رصد الملامح الرئيسية التي اسهمت في ظهور الواقعية في الرواية السورية المعاصرة ونقلت اتباعها ؛ خلال مرحلة قصيرة من التطور ، الى ما وصلوا اليه في ابرازها (أي الواقعية) كاتجاه أدبي واضح رغم كل التحديات والمعوقات التي حاولت طمسه وتأخير ظهوره .

العامل السياسي :

لا يمكن اعتبار نهاية مرحلة الاحتلال الاقطاعي التركي للقطر العربي السوري بداءة الفن الروائي السوري ، حيث لم تتوفر الاسباب الموضوعية والذاتية لهذا الفن بعد ، على الرغم من انتشار الافكار التي دعت الى التحرر والتقدم بنحو من الانحاء ، ومن وجود العناصر المثقفة المتميزة التي جاء نتاجها سياسيا بالدرجة الاولى . ويمكن اسقاط هذا الواقع على مرحلة الانتداب الفرنسي ، الا ان هذه المرحلة ونهاية سابقتها كونتا البذور الجنينية للواقعية في الرواية السورية المعاصرة لما حملتاه في احشائها من تناقضات سياسية واقتصادية وفكرية هيأت الارضية الملائمة لظهور الواقعية في مراحل التطور اللاحق .

ان الصراع بين الدول الامبريالية من اجل تقسيم العالم ، واعادة هذا التقسيم قد ادى الى حربين عالميتين ، كان من نتائج الاخيرة منهما (١٩٣٩ – ١٩٤٥) تحطيم الخطر النازي الماحق ، وانتصار النظام الاشتراكي ، واكتساب حركة التحرر بشكل عام ، وحركة التحرر العربية بشكل خاص ، البعد الاجتماعي الى جانب البعد الوطني .

وقد حصل القطر العربي السوري على الاستقلال السياسي في ١٧ نيسان ١٩٤٦ وتسلم التحالف الطبقي الاقطاعي البرجوازي السلطة السياسية ، وطبيعي ان هذا التحالف ، بحكم مصالحه ، وجوهره الطبقي ، غير قادر

على حل المهام الوطنية والاجتماعية المطروحة امام المجتمع العربي في سورية .

وجاءت نكسة (١٩٤٨) وقام على أثرها « الكيان الصهيوني » ؛ وطرد قسم كبير من الشعب العربي الفلسطيني من أرضه الى الاقطار العربية ، وتفاقمت التناقضات الداخلية بين البرجوازية والاقطاع وبين الجماهير الشعبية ، فلجأت السلطة السياسية الممثلة لمصالح البرجوازية والاقطاع، بالتحالف مع الدول الامبريالية ، الى الانقلابات العسكرية (١٩٤٩ — ١٩٥٤ (١)) التي دلت على عجز هذه السلطة وفشلها في حل القضايا الوطنية والاجتماعية . وشهدت مرحلة التوازن الطبقي من ١٩٥٤ — ١٩٥٨ (٢) ؛ مرحلة الديمقراطية البرجوازية ، نهوضا شعبيا واسعا ضد السلطة السياسية القائمة وضد الاحلاف الاستعمارية التي عرفتها المنطقة العربية وقتها ، الامر الذي هيأ لقيام الوحدة بين القطرين السوري والمصري من ١٩٥٨ — ١٩٦١ (٣) .

ولكن سقوط هذه الوحدة دل اولا على الدور المتآمر الذي لعبته البرجوازية الاقطاعية السورية مع الامبريالية والصهيونية ، وثانيا على غياب الديمقراطية الشعبية كأساس لحكم الوحدة . وعادت البرجوازية المتحالفة مع الاقطاع الى السلطة السياسية في مرحلة الانفصال من ١٩٦١ الى ١٩٦٣ (٤) .

بعد ١٩٦٣ بدات مرحلة جديدة وحاسمة في تاريخ القطر . لقد جاء حزب البعث العربي الاشتراكي ليقود الدولة والمجتمع في القطر العربي السوري

---

(١) في ٣٠ / ٣ / ١٩٤٩ انقلاب حسني الزعيم .

(٢) في ١٤ / ٨ / ١٩٤٩ انقلاب سامي الحناوي .

(٣) في ١٩ / ١٢ / ١٩٤٩ انقلاب اديب الشيشكلي .

(٤) في ٢٩ / ١١ / ١٩٥١ عاد اديب الشيشكلي وقاد انقلابا آخر حكم البلاد بموجبه مباشرة بعد ان كان يحكمها من خلف الستار .

حيث تلقت الاقطاعية والبرجوازية ضربات موجعة في اكثر من موقع على المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، والسياسي ، ووضع القطر باتجاه التطور نحو الاشتراكيـة .

واذا مررنا على هذا التاريخ السياسي للقطر بهذه العجالة ، فلكي نوضح بعض الآثار المهمة التي تركت بصماتها عميقة على الادب في سورية بشكل عام ، وعلى الواقعية في الرواية السورية المعاصرة بشكل خاص . فمن النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي في مرحلة الانتداب ، ومن النضال ضد الاحلاف الاستعمارية المتلاحقة بعد الاستقلال السياسي ، ومن النضال ضد الكيان الصهيوني الاستعماري الاستيطاني العميل ، ومن النضال ضد الطبقات الاجتماعية الاستغلالية داخل القطر ، **ومن متطلبات الجماهير الحياتية ظهرت الواقعية في الرواية السورية المعاصرة** . فهل يكون الادب إلا نتاج الواقع الموضوعي الذي يعيشه الناس ؟ وهل تكون الواقعية الا انعكاسا لمجمل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفكرية لهؤلاء الناس ايضا ؟

ولقد كانت السلطة السياسية دائما ، بوصفها الحلقة الاقوى في التنظيم السياسي للمجتمع ، وباعتبارها تمثل مصالح هذه الطبقة الاجتماعية او تلك ، وهذه الطبقات او الفئات الاجتماعية ، تتيح لهذا الاتجاه الادبي او ذاك بالنمو والتطور ، أو تلجم هذا الاتجاه أو ذاك وفق مصالحها . ورغم ذلك فـان السلطة السياسية الداخلية ، والخارجية ، في القطر العربي السوري ــ وذلك قبل تحول طبيعة هـذه السلطة الى سلطة جماهيرية بعد ١٩٦٣ ــ لعبت دورا مزدوجا في قضية الادب الروائي عامة ، والواقعية في الرواية خاصة ، فلقد حاولت قمع الواقعية ، وكان هـذا القمع يخلق الحاجة اكثر الى هذه الواقعية .

ان السلطة السياسية القومية الاشتراكية بعد ١٩٦٣ قد ربطت مصيرها بقضايا الجماهير . وانعكس ذلك بمجمـل التحولات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية ، الوطنية والتقدمية ، التي هيأت مناخا فكريا

للانتقال الى الاشتراكية ، ولتعميق الواقعية في معالجة القضايا الجماهيرية في الادب السوري عامة ، وفي الرواية خاصة . وزاد في تعميق هذا الاتجاه الادبي الجماهيري اشتداد الهجمة الامبريالية الصهيونية التي كان عدوان حزيران ١٩٦٧ ذروتها . كان هذا العدوان يهدف اضافة الى احتلال الارض والتوسع الصهيوني ، الى ضرب الحركة الوطنية التقدمية في المنطقة .

واذا كان العامل السياسي قد اسهم في تكوين الواقعية في الرواية السورية المعاصرة فان تتبع العامل الاجتماعي تاريخيا سيلقي المزيد من الضوء على الظروف الملموسة التي بلورت هذا الاتجاه الواقعي .

العامل الاجتماعي

« ان عملية الانتاج الادبي والايديولوجي هما جزء لا يتجزأ من العملية الاجتماعية العامة »(١) وفي سورية ، بعد الاستقلال السياسي سارعت الفئات الاقطاعية الكبيرة ، المتحالفة مع كبار البرجوازيين والعشائريين الى قطف ثمار النضال الجماهيري في سبيل الاستقلال فتسلمت من المستعمر قيادة البلد سياسيا .

وكانت قد نشأت في ظل الاستعمار طبقة اجتماعية كاملة ، تملك ثروات البلاد وتحتكر كل صناعاتها وتجارتها الاساسية متحالفة معه . ولم تكن هذه الطبقة مهتمة كثيرا بتنمية الانتاج الوطني ، ذلك لانها احتكرت السوق ، وتعهدت بضمان مصالح المستعمر مقابل عمولة تقبضها منه وتبقى ذيلا لـه ، وباتت لا تنتج الا ما يشاء المستعمر ، وما لا يرغب في تصديره اليها .

---

(١) لوكاتش ، جورج : « **دراسات في الواقعية الاوروبية** » ، ترجمة أمير اسكندر — مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٦ .

والبرجوازية التي قادت النضال الوطني ضد المستعمر في الماضي لم تعد راغبة في المضي على هذا الدرب بل سعت الى تدعيم نفوذها الاقتصادي بمساعدة راس المال الاجنبي بعد تسلمها قيادة البلد سياسيا .

وعلى هـذا الاساس تم التحالف بين الاستعمار والبرجوازيـة الكبيرة والاقطاع ، واستفاد هـذا التحالف من دخول راس المال الامريكي الى المنطقة كطرف يسعى الى ان يكون بديلا للاستعمارين الفرنسي والانكليزي. وجاءت نكبة فلسطين وكان مجيئها تعرية لهذه اللعبة الجديدة ، وبداية لسقوط التحالف الاقطاعي البرجوازي الاستعماري الذي حاول سلب الجماهير استقلالها الذي حصلت عليه وذلك من خلال ايقاعها في لعبـة استعمارية جديدة .

كان هناك على الطرف المقابل تحالف مغاير ، مناقض بطبيعته للاستعمار واعوانه . وقد أسهم هذا التحالف المؤلف من اقسام البرجوازية الوطنية وجماهير الفلاحين ، وصغار الملاكين الزراعيين ، والفقراء المتعطشين الى الارض ، والطبقة العاملة التي كانت تتعزز يوما بعد يوم ، وتتنامى قواها وتتطور بتطور الزراعة ـ في اسقاط اللعبة الاستعمارية الجديدة ، ودفع النضال التقدمي والوطني خطوات واسعة الى الامام ، وذلك حين ادركت هذه الفئات العريضة التي كونت هذا التحالف ان نضالها في سبيل التحرر يجب الا يتجـه الى المستعمر الاجنبي فحسب ، بـل يجب ان يقترن بالنضال ضد الفئات التي تحاول الحلول محل المستعمر مستبدلة بالقيود الاجنبية قيودا محلية ذات طابع وطني في الظاهر ، ولكنهـا من حيث المحتوى والنتائج لا تختلف كثيرا عن قيود المستعمر .

وهكذا انشأت هذه الفئات حركاتها السياسية واحزابها التي كان من ابرزها حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي ، ومن بعد عدد من الاحزاب والحركات كالوحدويين الاشتراكيين ، والاتحاد الاشتراكي العربي ، والاشتراكيين العرب .... الخ .

وقد تضمنت برامج هذه الاحزاب ، والحركات السياسية الجديدة ، الى جانب شعار التحرر من السيطرة الاستعمارية ، ومحاربة الامبريالية والصهيونية ، شعارات تدعو الى التحرر من سيطرة الرساميل الاجنبية، ووضع حد للاستغلال ، وتحقيق الاصلاح الزراعي ، وتأمين تطور سريع للصناعة الوطنية .

نحن اذا في اواخر الاربعينات وبداية الخمسينات امام تجربة اجتماعية جديدة ، عبرت عن نفسها تعبيراً واضحاً منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حيث عانت سورية من ازمات سياسية مستمرة ، وخضع الشعب فيها للاحكام العرفية والمعتقلات والسجون . وكان المستعمرون وحلفاؤهم يسعون يائسين الى منع هذه الفئات الجديدة من الاتحاد سياسيا ومن توسيع نفوذها في حياة البلاد السياسية .

ومن خلال هذه التجربة الاجتماعية الجديدة خرج كتاب وشعراء جدد يتميزون تماما عن كتاب الجيل الماضي وشعرائه . بل ان هذه الفترة شهدت نهضة ثقافية شعبية شملت جميع الفنون من رسم ونحت وموسيقى ومسرح وفنون أدبية وغير ذلك .

ولقد عبر محمود أمين العالم في كتابه « في الثقافة المصرية » عن هؤلاء الادباء الجدد حيث قال : « لقد آثر الشعراء الجدد أن يطلقوا الى الابد موقف الشاعر الرسمي ، شاعر المناسبات . وان يلجأوا الى الحركة الشعبية السياسية ، يستوحونها ، فتوحي اليهم ، ويعطونها ، كذلك نشأت حول الحركة الشعبية السياسية مجموعة من الروائيين والقصصيين الذين آثروا ان يطلقوا البرج العاجي وينكروه ، أن يجعلوا الجماهير الفقيرة من الشعب مصدرا لالهامهم ، وفنهم . وان ينغمسوا في هذه المعركة الوطنية الديمقراطية بكل ما أوتوا من قوة . مجموعة من الفنانين يعرفون للفن دلالته الاجتماعية ويدركون أن من العبث اصطناع موقف الحياد امام هذا الصراع السياسي والاجتماعي الحاد . فاما مع

الشعب ، واما ضده . اما تعبير عن مصالح الجماهير الشعبية ، واما تعبير عن مصالح الاستعمار واذنابه .

اما استلهام العواطف الشريفة من الجماهير الفقيرة ، من الانسان الوليد في الشرق العربي ، واما استلهام الخوف والقلق والشك والخيانة من جانب الاستعمار وحلفائه ، من جانب الانسان الذي يحتضر(١) .

وفي الحقيقة ان هؤلاء الكتاب لم يترددوا في ان يحملوا اقلامهم ، وان ينزلوا الى ميدان المعركة ملتحمين مع الجماهير لانهم خرجوا من صفوفها ، عاملين على تمثل مصالحها والتعبير عنها وذلك من خلال تبنيهم للموقف التقدمي من الادب وهذا ما سنتناوله في دراسة (العامل الفكري والثقافي) .

العامل الفكري والثقافي

ان الحديث عن العامل الفكري والثقافي الذي اسهم في ظهور تيار الواقعية في الرواية السورية يستدعي الحديث عن مكوناته ، وخاصة في مرحلة النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي وبعد الاستقلال .

فخلال الفترة بين ١٩٤٣ ــ ١٩٤٧ واجهت حكومات الكتلة الوطنية مآزق كثيرة . ذلك انها كانت تعمل من اجل حماية مصالحها الطبقية وهي التي تتربع على قمة هرم الطبقة الحاكمة التي بدات تسير نحو نهايتها رويدا رويدا . وكانت ثمة امور تجري على الساحة السورية لن تظهر آثارها الا بعد الاستقلال بعد سنوات .

كان من أبرز المكونات الثقافية والفكرية التي نشأت الرواية الواقعية في ظلالها منذ مطلع الخمسينات :

(١) العالم ، محمود أمين : « في الثقافة المصرية » ، ص ١٨١ .

١ ـ **الثقافة القومية** التي تمثلت بكتابات المؤلفين الذين كرسوا نتاجهم لابراز النهوض القومي . كان هؤلاء يؤمنون ببعث الامة العربية لتعود للمساهمة في بناء الحضارة الانسانية الجديدة . ومن ابرزهم قسطنطين زريق في كتابه « نظرات في الحيـاة القوميـة المتفتحة والوعي القومي » وزكي الارسوزي في « العبقرية العربية في لسانها » ، وعبد الله العلايلي في « دستور العرب القومي » ، وميشيل عفلق في مؤلفه « في سبيل البعث »، وصلاح الدين البيطار في كتاب « القومية العربية وموقفها من الشيوعية والبعث والحزب الشيوعي » الذي وضعه بالتعاون مع ميشيل عفلق . وقد تتالت كتابات هذا الاخير مع منطلقات وافكار حزب البعث العربي الاشتراكي التي اكدت على الفكر الانقلابي الذي آمن به هذا الحزب . كما تابع زكي الارسوزي اصدار مؤلفاته . وفي هذه الفترة صدر كتاب ساطع الحصري « آراء وأحاديث في القومية العربية » و « آراء وأحاديث في الوطنية والقومية » .

٢ ـ **الثقافة الاقليمية** التي مثلها نتاج القوميين السوريين الذين يقيدون عملهم وآفاق نضالهم ضمن حدود سورية الطبيعية ، فكانت كتابات انطون سعادة في (الصراع الفكري في الادب السوري) ، وحديثه عن الالتزام في معرض نقده لرسائل تبودلت بين امين الريحاني ، ويوسف معلوف ، وشفيق معلوف . وتناقش هـذه الرسائل آراء ونظريات في الشعر والشعراء .

كما تعرض انطون سعادة بالنقد لآراء طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ثم دعا الى ادب جديد يجد فيه الشاعر نفسه وأمته . وهو يسمي هذا الادب (ادب الحيـاة) . ولكن ضيق أفق الكـاتب ، وحصره الالتزام تحديدا بحزبه السياسي جعل حديثه قاصرا ، ونظرته اقليمية .

٣ ـ **الثقافـة الاجنبية** التي اثرت في ادب القطر السوري وفكره عن طريق الترجمة والاتصال الشخصي .

لقد احتلت الترجمة المقام الاول ، بينما كان الطريق الثاني محدود الفعالية لان عدد الذين يعرفون لغة اجنبية ، غير الفرنسية ، كان ضئيلا جدا مثلما كان عدد أولئك الذين اتقنوا الفرنسية لدرجة تمكنهم من متابعة الآثار الادبية الجيدة :

« وكثير من كتاب القصة في الخمسينات ــ ان لم نقل اكثرهم ــ كانوا ذوي معرفة محدودة بالفرنسية أو بغيرها من اللغات الاجنبية كالانكليزية مما حال بينهم وبين الاتصال المباشر بالثقافة الاجنبية ، ودفعهم الى الاعتماد على الترجمة كليا أو جزئيا »(١) .

وقد قطعت الترجمة شوطا بعيدا ، خاصة في المجال القصصي ، حيث ترجمت روايات وقصص كثيرة عن الفرنسية واحيانا عن الانكليزية .
« ويمكن القول ان حركة الترجمة بلغت في أواسط الخمسينات ذروة من الكم والنوع لم يسبق لها مثيل في تاريخ سورية الثقافي »(٢) .

٤ ــ وكان من اهم وابرز الآثار التي ولدها الاحتكاك بالثقافة الاجنبية ، من خلال ترجمة الآثار الاوروبية ، غزو الوجودية التي اصبحت في تلك المرحلة من ابرز اعمدة الفكر والثقافة ، وغدا (سارتر) علما في الساحة الادبية بأفكاره وكتبه .

« وقد انتشر الفكر الوجودي في الخمسينات انتشارا مذهلا . والغريب انه قبل سنة ١٩٥٠ لم يكن هذا الفكر معروفا في سورية ، ولا يكاد المرء يجد في الاشارات الثقافية للمرحلة الاولى اي ذكر للوجودية . ويؤكد ذلك ان المقالات التي ظهرت في الصحافة السورية حول الوجودية ، كانت تتحدث عنها في حدود مبادئها الاولية ، بلهجة تعريفية لا تحليلية»(٣) .

---

(١) الخطيب، حسام: « سبل المؤثرات الاجنبية وأشكالها في القصة السورية الحديثة »، القاهرة في عام ١٩٧٣ ، ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق : ص ٤٦ .

(٣) الخطيب ، حسام : « نهوض القصة القصيرة في الخمسينات » ، مجلة المعرفة السورية ــ دمشق ــ العدد ١٧٠ : ص ٦٨ .

٥ ـ وعلى صعيد آخر نرى صدى آراء (كروتشه) في الفن ، حيث ظهر كتابه « المجمل في فلسفة الفن »(١) ، وبدأ الحديث عن (الفن للفن) جهرا . ونلاحظ ذلك عند نزار قباني في مقدمة ديوانه « طفولة نهد »(٢) ، وفيها يردد أقوال كروتشه في ان التذوق الفني هو حدس غنائي ، وهو الادراك الخالي من اي عنصر . والشعر عنده : « كهربة جميلة لا تعمر طويلا ، تكون النفس خلاليا بجميع عناصرها من عاطفة وخيال وذاكرة وغريزة مسربلة بالموسيقى » .. والشعر ايضا : « يصنع نفسه بنفسه ، وهو يحيط بالوجود كله ، ولا غاية له الا ان يكون شعرا . انه زينة وتحفة باذخة وحسب »(٣) .

٦ ـ وقد كان للثقافة الماركسية اثر كبير في حصيلة التكوين الثقافي والفكري للمجتمع السوري عن طريق الدراسات والمؤلفات التي نشرها كتاب مثل عمر فاخوري في اعماله (« أديب في السوق » ، « لا هوادة » ، « الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية ») ، ورئيف خوري في كتابه « الفكر العربي الحديث ، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي » . وكان لظهور مجلة « الطريق » اللبنانية اثره الملحوظ في هذا المجال حيث كانت تعنى بهذا الجانب الثقافي .

كما ان ترجمة الاعمال الادبية والسياسية التي تعالج هذا الموضوع قد تركت أثرها ايضا في هذا المضمار . ففي عـام ١٩٤٨ ظهرت في بيروت دراسة مترجمة تحت عنوان « ان الادب كان مسؤولا » . وهي تشتمل على التقرير الذي قدمه (جدانوف) لمؤتمر الحزب الشيوعي السوفياتي في لينيغراد ، والكلمة التي القاها في مؤتمر كتاب لينيغراد . وقد قدم

---

(١) كروتشه : « **المجمل في فلسفة الفن** » ، ترجمة سامي الدروبي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، عام ١٩٤٧ .

(٢) قباني ، نزار : « **طفولة نهد** » ، اصدار شركة الطباعة بالقاهرة ، عام ١٩٤٨ .

(٣) **المصدر السابق** : ص ١٦ ـ ١٩ .

لهذه الدراسة هاشم امين حيث تحدث عن حالة الادب العربي ، وشن هجوما على سارتر ومذهبه . وتتضمن دراسة جدانوف مبادىء تتعلق بالادب ، وهي المبادىء التي الهمت كثيرا من الكتاب والنقاد اليساريين في تلك المرحلة واهمها : تحيز الفنان الحتمي ، والتفريق بين الواقعية والواقعية الاشتراكية ، والرومنتية الثورية في الواقعية الاشتراكية ، والتأكيد على الوضوح والبساطة كي يكون الادب جماهيريا .

كما صدرت ترجمة لكتاب (بليخانوف) « **الفن والحياة الاجتماعية** »(١) الذي عالج مسألة (الفن للفن) ، وكانت هذه المسألة محورا من محاور المعارك الادبية في تلك الفترة . ويدرس بليخانوف في هذا الكتاب الشروط الاجتماعية للابداع الفني ، ويفسر دعوة الرومنتية لنظرية (الفن للفن) وابتعادها عن الفن النفعي ، بالاضافة الى عدة مبادىء اخرى منها انه لا بد لكل ابداع فني من محتوى فكري وليست كل فكرة تصلح اساسا للابداع الفني ، وان كل سلطة تسعى لان يكون الفن نفعيا ... الخ . ويلاحظ المتتبع للاعمال المترجمة في تلك الفترة ان معظم روائع الادب الروسي قد ترجمت ونشرت سواء في مجموعات او طبعات منفردة .

« وقد ظهر مسلسل بعنوان « **روائع الادب السوفياتي** » في منتصف الخمسينات ، وظهر مجلد « **المؤلفات الكاملة لتشيخوف** » سنة ١٩٥٤ وظهر معها كذلك اعمال متفرقة للكاتب نفسه ، وقد ترجمت معظم مؤلفات (دوستويفسكي) القصيرة ــ مثلا ترجمة قصة « **شجرة عيد الميلاد** » في عام ١٩٥٣ ــ وكذلك الشأن بالنسبة (لمكسيم غوركي) . كما ترجمت بعض اعمال اخرى لكل من (غوغول) ــ ترجم له بديع حقي عن الروسية مباشرة « اللوحة » وصدرت في بيروت عام ١٩٥٦ ــ وكذلك

---

(١) بليخانوف : « **الفن والحياة الاجتماعية** » ، ترجمة احسان الحصني ، مطابع دار ابن الوليد في حمص .

(بوشكين) و (تورغينيف) ، و (اهرنبورغ) ، و (باسترناك) ، وكتاب اقل شهرة مثل (بازيل جوكوفسكي) »(١) .

وفي الوقت نفسه ظهرت كتابات عربية استهدت بالماركسية واظهرت مدى تأثيرها في الفكر والثقافة . ففي هذه المرحلة أصدر محمود أمين العالم وعبد العظيم انيس كتاب « دراسات في الثقافة المصرية » . وفي سورية قدم بعض الكتاب ، وفي مقدمتهم جلال فاروق الشريف ، جهداً متميزاً في التعريف بمبادىء الادب السوفياتي ونصوصه ، حيث نشر في مجلة « النقاد » عدداً من الدراسات والترجمات تناولت الواقعية ، والواقعية الاشتراكية . ودرس عدداً من نصوص الادب السوفياتي ، كما ترجم كتاب « مقابلات مع غوركي » لمؤلفه (إيفانوف) ، وكتاب « علم الادب السوفياتي » لـ « غوربللي » ، وأصدر كتاباً عن (ماياكوفسكي) .

ونتيجة لحركة التمدن ، ونمو التعليم ، وازدهار الصحافة ، والتطور السياسي ، وبروز الطبقة الوسطى وعوامل اجتماعية اخرى بدات المدارس والتجمعات الادبية في الظهور على الساحة ، حيث كان الصراع العقائدي في سورية ، خلال الخمسينات ، على أشده بين ثلاثة اتجاهات رئيسية تمثلت في الانتاج الادبي بوضوح وهي :

١ ــ **الاتجاه الديني التقليدي** الذي تمسك بالانواع الادبية التقليدية . كان ممثلو هذا الاتجاه ينظرون شزراً الى الفنون الادبية الحديثة ، ويستندون الى خلفية فكرية صلبة تغترف من الايديولوجية الدينية العريقة .

---

(١) الخطيب ، حسام : « **سبل المؤثرات الاجنبية واشكالها** » ، ص ٤٨ .
مع العلم ان (معظم الترجمات التي ذكرت نشرت في مجلة « النقاد » الاسبوعية السورية في الخمسينات) .

٢ ـ **التيار القومي الناشيء** الذي كان كتابه يلتفون حول حزب البعث العربي الاشتراكي ومبادئه القومية . كان هـذا التيـار يفتقر الى ايديولوجية مميزة ذات بعد فلسفي يمكنها من ان تضاهي الايديولوجية الدينية او الماركسية ، وتتسع في الوقت نفسه للفكر القومي . ومن هنا يبدو ان كتاب هذا التيار قد حاولوا ان يعثروا على ضالتهم في الفلسفة الوجودية ، ولاسيما في افكار (سارتر) و كامي التي انتشرت في اوساط الشباب المثقف بعد الحرب العالمية الثانية . ولكن لم يكن من السهل التوصل الى نوع من التوفيق بين الافكار الوجودية والافكار القومية ، ولذلك اباح الكتاب القوميون لانفسهم حرية التصرف بالافكار الوجودية .

٣ ـ **الاتجاه اليساري** الذي كان يعتبر النماذج الادبية السوفياتية مثلا اعلى له . وقد ساعد على نمو هذا الاتجاه سنده الفكري الذي يعتمد الماركسية وتعاليمها منهجا في الحياة الاجتماعية ، ويعتبر نماذجها الادبية قدوة في الواقعية عامة ، والواقعية الاشتراكية بوجه خاص .

وتجدر الاشارة هنا الى اهمية الروابط والجمعيات والندوات الادبية التي كانت الادوات الفضلى للتعبير عن النشاط الفكري والثقافي . ونذكر منها « رابطة الارض واهل القضية »(١) ،و « رابطة الكتاب الشباب » (٢) و « رابطة وحي القلم »(٣) ، و « رابطة الادب الجديد »(٤)، و « رابطة الكتاب السوريين »(٥) ، وجميعها في دمشق . وكانت هناك روابط مماثلة في المحافظات السورية الاخرى مثل « اسرة الكواكبي »(٦)

---

(١) من أعضائها : اسكندر لوقا ، جان الكسان ، حسين علي خليل .

(٢) من اعضائها : نصر الدين البحرة ، ناديا خوست ، هشام النحاس .

(٣) من اعضائها : مصباح الغفري .

(٤) من اعضائها : سعد صائب .

(٥) اصبحت فيما بعد « رابطة الكتاب العرب » ، وسنتحدث عنها بشكل مفصل لاهمية دورها في تأكيد التيار الواقعي .

(٦) من أعضائها : عبد العزيز هلال ، عبد الباقي باقر .

في دير الزور ، و « رابطة الادب السور يالجديد » « في اللاذقية »(١) . واسرة الاصدقاء » (٢) في حلب بالاضافة الى عدد آخر من الروابط والجمعيات (٣) .

ويظل من ابرز التطورات الثقافية في هذه المرحلة ظهور تيار الواقعية ونموه في كل الفنون والاعمال الادبية . انه المذهب الوحيد الذي وجد تعبيرا له في منظمة ادبية كان لها شانها في التطور الثقافي والفكري . ففي عام ١٩٥٠ تداعى لفيف من الادباء والمثقفين الى انشاء رابطة اطلقوا عليها اسم « رابطة الكتاب السوريين » ، وقد ضمت : (حسيب كيالي، ليان ديراني ، شحادة الخوري ، شوقي بغدادي ، حنا مينة ، ممدوح فاخوري ، نصوح فاخوري ، غسان الرفاعي ، نذير حسامي ، عبد المعين ملوحي ، عبد السلام عيون السود ، مصطفى الحلاج ، صلاح دهني ، سعيد حورانية ، نبيه عاقل ، احسان سركيس ... الخ) . وهكذا انطلقت بدايات التنظيم لادباء الواقعية في سورية) (٤) .

وقد ظلت هذه الرابطة تقابل بالاهمال والرفض حتى تمكنت من تقديم بعض الآثار الادبية التي عززت مكانتها .

وقد نشر أحمد علوش في جريدته « الصرخة » (٥) دفاعا عن الرابطة وأعضائها . ومن أقواله : « لا يجوز لي ان ابالي بالاتهامات او الاقوال التي تلصق بأفرادها ـ اي الرابطة ـ لانني أعرفهم مواطنين صالحين

---

(١) من اعضائها : محسن يوسف ، محمود غزال ، يوسف أيوب .

(٢) من أعضائها : فاضل السباعي ، علي الزيبق، جورج سالم، فاضل ضيا ، علي بدور.

(٣) للتوسع في هذا المجال يمكن الرجوع الى أعداد مجلة «النقاد»التي صدرت في الخمسينات

(٤) (ـ أبو شنب ، عادل : « **صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية** » ، مطبوعات وزارة الثقافة ، دمشق ، عام ١٩٧٤ .

(ب ـ عبود ، حنا : « **المدرسة الواقعية في النقد العربي الحديث** » ، مطبوعات وازرة الثقافة ، دمشق ، عام ١٩٧٨ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٥) علوش ، أحمد : جريدة « الصرخة » ـ العدد ٣٢ ، ٨ نيسان ١٩٥٢ ، المقدمة .

لهم مالنا وعليهم ماعلينا » (١) . وفي العدد نفسه موضوعات في مذهب الواقعية الاشتراكية . ففي مقالة (ليان ديراني) بعنوان « بين الادب والحياة » نجد الحاحا على الصلة الوثقى بين ظاهرة الادب كفن جميل ومجرى الحياة المتدفق . وفي مقالة (عبد النافع طليمات) بعنوان « تولستوي ، معلم الواقعية وداعية الخير والحق والعدالة » يشدد الكاتب على الواقعية باعتبارها السمة الاساسية لادب تولستوي ، والادب الروسي عامة . اما (حنا مينة) فيتناول في مقالته « سؤال الساعة » القضايا السياسية القائمة ، ويتحدث عن مؤتمر شعوب الشرق الادبي .

« وظلت الرابطة تخوض المعارك الفكرية والادبية متشدددة في احكامها لتقف في وجه خصومها ، وقد صمدت على الرغم من اقليميتها ، اذ اقتصرت على سورية ، رغم ضعف امكاناتها المادية » (٢) .

ومع تعاظم النضال القومي والوطني في منتصف الخمسينات دعت الرابطة الى مؤتمر للكتاب العرب في دمشق لتدارس قضايا الفكر العربي الحديث ومعالجة مشكلاته ، والوقوف صفا واحدا في وجه كل المؤامرات التي تحاك للانسان العربي والفكر العربي . كان هذا المؤتمر تظاهرة للمدرسة الواقعية ، اذ عالج القضايا المطروحة للبحث من وجهة نظر الواقعية ، وعرف الادب بوصفه « تجربة اجتماعية مكثفة في فرد موهوب ، تصور بيئته من خلال ذاته ، وتشارك في حياة شعبه وتطويرها في سبيل مجتمع أحسن » (٣) والاديب « متحيز في كل أحواله تحيزا تلقائيا ، وأعيا تجربته، ويعيشها بكل مايملك من حب وثقافة وموهبة ، والاديب يستقي كل شيء من واقعه الحي » (٤) .

---

(١) عبود ، حنا : « المدرسة الواقعية في النقد العربي » ، ص ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٨٥ .

(٤) المصدر السابق : ص ١٨٦ .

وكان من جملة معالجات المؤتمر قضية الفصحى والعامية ، واحياء التراث العربي ، ووضعه في اطاره التاريخي على أساس منهج علمي مبني على النظريات العلمية في تطور المجتمع والتاريخ . وكما طالب الكتاب بأن يسهموا مساهمة فعالة في اذكاء الروح الوطنية والمقاومة ضد المستعمر ، وفي محاربة الاتجاهات الاستعمارية في الثقافة والنضال من أجل اطلاق الحريات الديمقراطية والدفاع عنها .

وفي المجال الاجتماعي والثقافي طالب المؤتمر بالزامية التعليم ومحو الامية ، وتوسيع التعليم الجامعي ، واتاحة الفرصة أمام سائر أبناء الشعب لتلقي التعليم العالي ، ودعا الى ضرورة مكافحة كل المؤثرات الثقافية التي تشيع الميوعة واليأس والقلق والانحلال الخلقي والنزعات الطائفية . « والملاحظ ان الواقعية الاشتراكية التي بدأت ضعيفة بعيد الحرب الثانية طفقت تصعد منذ عام ١٩٥٠ ، وتعتبر سنة ١٩٥٤ بداية ذروة السيادة التي استمرت حتى عام ١٩٥٨ » (١) . ويعتبر هذا العام عام ميلاد اتحاد الكتاب العرب الذي عقد مؤتمره الاول فيه .

وقد لعبت الصحافة الادبية والمجلات في هذه الفترة دورا بارزا في نقل الافكار الواقعية ، وطرح الحوارات والنظريات ونشر الانتاج الادبي ونقده. « ففي العراق ظهرت مجلة دورية متقطعة (الثقافة الجديدة) ، وفي لبنان ظهرت (الثقافة الوطنية) الى جانب (الطريق) وفي سورية (النقاد) و (المعرفة) ، ثم من بعد (الموقف الادبي) ، و (الاداب الاجنبية) ، وملحق الثورة الثقافي، والصفحات الادبية في جميع الصحف اليومية»(٢). وكانت هذه المجلات تطرح على صفحاتها قضايا هي من العمق والشمول والدقة بحيث تجذب القارىء المثقف حقا ، ولم تقتصر هذه القضايا على الادب والنقد الادبي فقط ، بل تناولت النظرية المادية في المعرفة ، والثقافة القومية ، والنزعة الانسانية .

---

(١) المصدر السابق : ص ١٨٩ .

(٢) للتوسع في هذا المجال يمكن الرجوع الى كتاب « الادب السوري الحديث » للدكتور عمر الدقاق ، صدر عن كلية الآداب بجامعة حلب ، ١٩٧٨ .

وفي العدد الاول من مجلة « الثقافة الجديدة » نجد تلخيصا لكتاب في النقد الادبي هو كتاب « هيجو شاعر واقعي » من تأليف لويس آراغون . وظهر في مصر العدد الاول من مجلة « الغد » في أيار عام ١٩٥٣ حاملا على غلافه شعار الواقعية الاشتراكية . (الادب في سبيل الحياة) .

ورغم الانحسار الجدي الذي منيت به الواقعية لعدة سنوات تبدأ من عام ١٩٥٩ وحتى منتصف الستينات أو بالأحرى حتى عام ١٩٦٧ ، اخذت تعود من جديد لتفرض وجودها وثقلها في معظم الاقطار العربية وخاصة في مصر وسورية ولبنان والجزائر . والواقعية هي المذهب الوحيد الذي تميز بالاستمرارية والانتشار » (١) .

وهناك عامل آخر غاية في الاهمية من حيث تكوين الاطار الثقافي والفكري لنشوء تيار الواقعية وتفتح الاذهان على الثقافات المتعددة وهو العامل التعليمي . ذلك ان التطور الذي حصل في هذا الجانب منذ الاستقلال وحتى الآن يمكن ان يحتل بحثا خاصا . ولكن لابد من الاشارة الى ان بلادنا على الرغم من انها عانت من الامية ولا تزال حتى اليوم قد شهدت تطورا ثقافيا كبيرا ، ونموا ملحوظا في حركة التعليم الثانوي والجامعي . كما شمل التعليم المجاني جميع المراحل التعليمية بما في ذلك الدراسات العليا التي تتوطد وتتعزز يوما بعد يوم .

ولابد لهذا التطور من أن يترك آثاره العميقة ، ويسهم في خلق جيل جديد يعي واقعه ويستطيع ان يختار ثقافته اختيارا سليما ، ويتفهم بالتالي طبيعة الادب ودوره القومي والاجتماعي حتى يتمكن من الاسهام بفعالية في انجاز مهام الثورة الاجتماعية والسياسية .

وهكذا فان التيار الواقعي الذي تأصل في سورية منذ أواسط الثلاثينات، وظل يتطور بهدوء ويقدم اعمالا اكثر استجابة لواقع المجتمع العربي السوري وتطلعاته ، قد اصبح منذ الخمسينات تيارا واضحا يحمل سمات محلية قوية اخذت تطغى عليه بالتدريج حتى غدا من الصعب الحديث عنه كتيار وافد في الادب السوري عامة ، والرواية منه بشكل خاص ، وذلك على الرغم من أن هذا التيار ظل يحتذي النموذج الفكري والادبي من التجارب الادبية الواقعية في البلدان الاشتراكية ، وفي مناطق أخرى من العالم .

(١) عبود ، حنا : « المدرسة الواقعية في النقد العربي الحديث » ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

أمين الريحاني الاديب الرحالة

د . حسني محمود حسين

تمهيـــد :

كانت حياة أمين الريحاني(١) رحلة دائمة بالمعنى المفهوم للكلمة ، اذ لم يكن يستقر بـه مكان حتى يتنازعه الشوق الى مكان او الى بلد آخر . وهكذا قضى حياته في سفر ورحلة دائمة بين بلاد الشرق والغرب مذ كان فتى يافعا حتى قبيل وفاته كهلا ، حتى ليصدق فيه قول الشاعر :

ما آب من سـفر الا وازعجــه   عزم على سـفر بالرغم يزمعـه

كانمـا هو في حـل ومرتحـل   موكـل بفضـاء الله يذرعـه

وقدر للامين أن يقوم برحلات كثيرة الى بعض البلدان العربية بالاضافة الى رحلات داخلية قام بها في وطنه الصغير ، لبنان . ولم يقدر له أن يكمل ما كان صمم عليه من القيام برحلات اخرى الى بعض بلدان الشرق ، في ايران وسوريا وفلسطين وشرق الاردن ومصر (٢) ، مع انه زار هـذه البلدان زيارات عجلى لم تكن بهدف تسجيلها . كما انه لم يسجل رحلاته الى بلاد الغرب فيما عدا زيارة قصيرة قام بها الى اسبانيا ضمن رحلته الى بلاد المغرب الاقصى . اما رحلاته التي دونها في كتبه فهي التي جال فيهـا في معظم بلدان شبه الجزيرة العربية وفي العراق والمغرب الاقصى واسبانيا وفي لبنان ، وقد دون كلا من هذه الرحلات في كتاب او اكثر(٣) . لربما كان وراء رحلاته هذه أهداف متعددة ، ولكن الهدف الاهم والاشمل الذي تنضوي تحته محاولته التعرف على الوطن العربي ،

والتعريف به امام أبنائه وحكامه ، ليتعرفوا بدورهم على اوطانهم وعلى أحوالها ، وليعملوا على اصلاح هذه الاحوال ، وعلى اصلاح ذات بينهم لتقريب يوم الوحدة بين اقطارهـــم .

وقبل الحديث عن الاسلوب الادبي الذي دون به رحالتنا هذه الرحلات ، نستحسن ان نتذكر امرين بارزين ، أولهما ، أن الامين كان اديبـا ملتزما باهداف معينـة ، وقـد وضع لنفسه منهجا في سبيل الوصول الى هذه الاهداف ، ومن هنا كانت رحلاته التي قام بها في البلدان العربية مظهرا من مظاهر جهاده ، وضمن اهدافه التي احتواها منهجه الاصلاحي . وهذا الامر يفسر لنا قدرة الامين على التأقلم في هذه البيئات التي رحـل اليها ، واندمج في حياتها ومع اهلها ، ووعى كثيرا من دقائق الحياة والثقافة فيمجتمعاتها. وهذا بدوره يفسر لنا الانفعالات الحقيقية لدى رحالتنا مما جعل ادبه في رحلاته ادب وجدان وعاطفة ، ينبع من اعماقه ما يطفو على سطحه من انفعالات صاحبه ووجدانـه ، مما جعله يبرز كل خصائص ادبه ومزاياه الفنية .

وثانيهما ، اننا في هذا الادب ، نقف حقيقة بازاء الريحاني ، منشئه ، بكل ما يسـم شخصيته من مزايا ومقومات ، انعكست كلها في هذا الانتاج الفني عن قدرة واردة ، وفي عفويـة ووعـي .

ويختلف الريحاني عن رحاليتا السابقين (٤) بتعدد رحلاته ، وبالتالي بتعدد كتبـه في هذه الرحلات . وليس هذا وحسب ، وانما نراه يختلف عنهم ، بحكم ثقافته واهدافه المعروفة، فلا يكتفي بتسجيل رحلاته باللغة العربية ، وانما يضع بعض هذه الرحلات ، كمـا اشرنا ، في لغة اجنبية ، ومن هنا ، فنحن امام طراز جديد من الرحالة العرب ، بل والمثقفين المفكرين منهم .

واذا كنا لا نود ان نعرض في هذه الدراسة(٥) موضوعات هذه الرحلات او الظروف الخاصة بكل منها ، فاننا سنقتصر على دراسة اسلوب الامين في كتابة رحلاته وابراز المزايا الفنية لهذا الاسلوب ، في محاولة للتعرف على الريحاني الاديب الرحالة .

اسلوبه ومزاياه الفنية :

اولا ــ ملامح نشوئه وكيفية تكونه :

اذا صح القول بان اسلوب الاديب هو شخصيته ، فان امين الريحاني مثال صادق على صحة هذه القاعدة في النقد الادبي ؛ فشخصيته تبدو واضحة تمام الوضوح في اسلوب كتابته ، يطالعها القارىء بمختلف جوانبها ومزاياها موزعة في تاليفه وآثاره . وسنحاول

في هذه الدراسة ان نبين ما انعكس من جوانب شخصيته على اسلوبه في سبيل التوصيل الادبي في رحلاته ، ثم نبين بعد ذلك ضروب هذا الاسلوب ومزاياه الفنية . ويجب أن نتنبه منذ الآن الى ان اسلوبه في كتابة رحلاته ما هو الا صورة من اسلوبه الادبي العام ، او بالاحرى لقد التقت في رحلاته كل مزايا الاسلوب (الريحاني) الذي يتوجب علينا ان نتعرف على بعض ملامح نشوئه وكيفية تكونه ، مما يقتضينا ان نلتفت الى الجانب الاهم في تكوين هذه الشخصية لما له من الاثر الاكبر في تحديد اسلوبها واضفاء مزاياه الفنية عليه . واعني بهذا الجانب ثقافة الريحاني او تكوينه الثقافي الذي قام على الثقافتين الانكليزية والعربية ، أو بمعنى أعم الحضارتين الغربية والشرقية . فقد اتقن الريحاني اللغة الانكليزية والف فيها قبل اتصاله الحقيقي باللغة العربية التي قرأها وحاول اتقانها بعد ان نضجت ادواته العقلية ، واستوى عود التفكير لديه . ولهذا السبب كان لثقافته الانكليزية التي تفتح عليها وعيه فترسبت في مخ عظامه أيام غضارتها ، اثر كبير في تفكيره واسلوب كتابته ، فطعم بها ، بوعي أو دون وعي ، تفكيره باللغة العربية واسلوب تفننه فيها . وهذا هو ما دفع بالمستشرق الكبير (اغناطيوس كراتشكوفسكي) الى ان يقول في الريحاني : « ولا ريب أن انشاءه يبدو أحيانا كأنه ترجمة حرفية من لغـــة اجنبية . وهذا ما يحملنا على الظن ان الريحاني يفكر في بعض الاحايين بلغة غير لغته الوطنية ، الامر الذي لا يستغرب في كاتب ألف مؤلفاته الاولى باللغة الانكليزية »(٦) . ونحن نذهب الى حد بعيد مع كراتشكوفسكي ، فان كثيرا من مزايا الامين الاسلوبية اكتسبها من هذه الثقافة عدة فنية أضفاها على اسلوب كتاباته العربية ؛ فالوضوح المعتمد على الاهتمام بالمعاني والافكار في تركيب العبارة ، وعدم ترهلها ، صفات وسمت اسلوبه بحكم ثقافته السابقة . ولا يعني هذا ان الامين لم يقف على فحوى الاسلوب العربي ودلالاته ، فقد فرق بينه وبين اسلوب الانكليزية ، فرأى أن لكل منهما روحا على الطامع بالكتابة ان يجتهد في ان يملكها ، فلا يقول بالانكليزية (خيم الليل على المدينة) مثلا ، ولا يقول بالعربية (هز يده) ، لان هز اليد لا يفيد المصافحة . وحقا ، فان هذا الموروث الثقافي السابق أعان مدارك صاحبه على النفاذ الى فهم الاساليب العربية وتقويمهـا في نفسه ، لاتخاذ موقف محدد منها . ونقع في هذا الصدد على نص مهم للامين نفسه ليس اتم في الصدق واظهار الحقيقة من الاعتماد عليه والاستشهاد به ونحن نعرض الى تكون اسلوب صاحبه في اللغة العربية ، وفيه يقول : « كان من حظي اني في حداثتي لم اقرأ كتابا واحدا من الآداب العربية ، ولكنني طالعت ، وأنا راشد ولي بعض النظر والرأي ، كتب المقامات فوجدت الواحد منهـا شبيها بالآخر . وقرأت الاغاني والمبرد والجاحظ فخلتني اطالع ، من حيث الاسلوب والتشويش والاسراف في النقل والاسناد ، كتابا واحدا همه الاول اللغـة وهمه الثاني التدبيج والتنميق . فقلت في نفسي : ليس

في الاعادة المفادة . وعولت ان اخرج عن المألوف وان لا اتقيد بقيود الأسلاف الاجلاء . واني وان كنت تدرجت الى اسلوب خاص بي ، مهما كانت مزاياه ، فلا اقيد نفسي بما فيه تفضيل الالفاظ على الافكار والمباني على المعاني . طالعت المعلقات فحالت في اكثرها الالفاظ دون المعاني ، وطالعت دواوين الحماسة فكنت اظنني ، وأنا انتقل من ديوان الى اخيه ، اني اطالع ديوانا واحدا تعددت أساميه . وقرأت ابن الفارض فاسفت على فلسفة روحية صوفية تتقاذفها امواج الالفاظ وتجعلها غريقة الجناس على الدوام . وفتشت في الدواوين كلها على استعارات يمتاز بهذا هذا الشاعر على أخيه ، وعلى وجهات نظر جديدة وعلى صور في الشعر تمثل ما وراء المحسوس المنظور فلم أجد غير التقليد والتقيد والتبذل . ومما يؤسف له ايضا أن في هذه الدواوين ، ولا استثني منها ديوان المتنبي واللزوميات ، شيئا من النثر المنظوم . وقد استغوتني الاوزان مرة فنظمت قصيدة مكسرة اثرت فيها خواطر الشعراء المدرسيين . ولم يكن قصدي غير اكتشاف السبب في عقم تصور الشعراء وتبذلهم . فتحققت ان التزام القافية الواحدة والاوزان الوضعية يحول غالبا دون التبسط والتدفق ، فيضطر الشاعر ان يلجم قريحته لئلا تقع « في البيت » فتكسر رأسها أو يشذب المعاني الجديدة لتلائم الصيغ القديمة او يختار اهون الامور فيجيئنا بالنثر المنظوم . لذلك قلت : لا صيغ قديمة ولا قوافي ولا أوزان ، وبدل الشعر المنظوم . لذلك قلت : لا صيغ قديمة ولا قوافي ولا أوزان ، وبدل الشعر المنظوم جئت بالشعر المنثور الذي يشهد على ما في لوح الوجود من موحيات المعاني والاستعارات والافكار الجديدة ، واذا جاء فيه شيء من الغموض في بعض الاحايين ، فذلك لاني أرى في الحياة ما لا يرى منها ، وأسمع في الاصوات القريبة صدى اصوات بعيدة . الكون الظاهر ؟ ان هو الا رمز لكون آخر خفي ، والكون الخفي ان هو الا الله»(٧)

وبالرغم مما يمكن ان يناقش في هذا النص ، فان ما يهمنا فيه التعرف على ما لم يرض به الريحاني في هذه الاساليب فاعلن تجنبه ونفرته منه . واتجاهه الى تفضيل المعاني على المباني والتزويق اللفظي ، وخضوعه الى حكم المشاعر والوجدان والانطباعات الصادقة ، فجاء ظاهرة جديدة بين ادبائنا ، لفتت في دقتها كراتشكوفسكي ، فقال : « لا اظن ان بين كتاب العرب المعاصرين كاتبا آخر يستطيع القراء الاوربيون أن يفهموه فهمهم للريحاني » (٨) . ونحن اذا كنا نركز على أثر الثقافة الانكليزية في الريحاني ، فلا نقصد من ذلك اخفاء أو تقليل تأثره بالثقافة العربية ، وقد أمضى ، راشدا ، اربعين عاما يجول في تضاريسها الادبية واللغوية ، قوى في اثناءها معرفته باللغة ، وداب ، بالقراءة والممارسة ، على اصلاح ادواته فيها باستمرار ، وتنسم خلالها كثيرا من شذا رياحينها بكل حب واعجاب ، فهو الذي سمى المعري أبا العلاء « استاذه واخاه الاكبر »(٩) ، وهو الذي ترجم ، بدافع حبه واعجابه ، بعض اشعاره الى اللغة الانكليزية . ولم يقتصر تأثره

بالثقافة العربية على المعري ، فلا شك انه وجد بعض ما يرضيه عند الجاحظ وابن خلدون وغيرهما من الادباء القدماء والمحدثين ، يقول فؤاد الشايب : « في اهاب ادب الريحاني وثقافته : البستانيون واليازجيون والافغانيون والكواكبيون ، وفيه من نهج البلاغة كما فيه من الاناجيل ونشيد الانشاد(١٠) . فالريحاني ، وان انفتح بحق على الحضارة الغربية وثقافاتها ، فقد غاص ايضا في الحضارة الشرقية وثقافاتها ، وكان ، برغم انه مسبوق ببعض من خطوا على درب النهضة الادبية بضع خطوات ، من روادها البارزة اثارهم ، يزكيه ويعضده فنه ومواقفه القومية ودعواته الاصلاحية . فكان بحق، مهب رياح فنية جديدة في دنيا الادب العربي حتى لقد اعتبر « مؤسس ادب المهجر والمهاجرين »(١١) ، ولا يخفى ما لادب المهجر من تاثير في الادب العربي الحديث . وهكذا فقد قدم الريحاني بين يدي النهضة الادبية اسلوبا بكرا جعل منه صاحب مدرســة « استمدت معطياتها من وحي مقتضيات العصر ، فجاءت تسد فراغا في محيط الادب اللفظي المرصوف على غير مضمون ، جاءت ثورة على الكلام المنمق والاحاجي والتوريات التي جعلت الانشاد العربي عند اكثرهم ضربا من التسلية على غير طائل » (١٢) .

ثانيا ـ ضروبه ومزاياه الفنية :

يلاحظ من يدرس كتب الريحاني في الرحلات أن صاحبها يتبع في اطارها العام الاسلوبين المعروفين في الكتابة العربية : الاسلوب العلمي ، والاسلوب الادبي الفني . والريحاني لا يفصل بين الاسلوبين ذلك الفصل الحاد بحيث لا يلتقيان ، فهما يتداخلان ويتعانقان معا ، فيتراوح اسلوبه بين اقصى طرفيه ، بين الاسلوب الفني الرفيع الذي يبلغ مرتبة (الشعر المنثور) ويرتفع الى مستوى الوجدان الصوفي ، وبين الاسلوب العلمي الذي لا يكاد يلامسه الجفاف المعهود في مثل هذا الاسلوب . وهو من هذه الناحية يلتزم خصائص التفكير الموضوعي والاسلوب الدقيق كالرجوع الى المراجع والمصادر الخاصة بموضوعاته العلمية التي يتطرق اليها في حديثه ، مثل التاريخ والجغرافيا وبعض الحقائق والموضوعات الاخرى ، فيعتمد لها الكتب والمشاهدة الشخصية والاحصائيات والسجلات الرسمية ، ويحاول أحيانا أن يكون اكثر دقة في احكامه فلا يعطي الاحكام القاطعة النهائية بالجزم او بالنفي التام ، وانما هو يميل الى تغليب الترجيح والظن فيها . وهو في هذا المنحى أميل الى الرصانة والموضوعية منه الى التخيل والوجدان ، وان جاءنا فيه ببعض المقطوعات الفنية ، او زاد أحيانا فعرض بعض مواده في قالب أدبي أو متادب ، مما يجعلنا أميل الى أن نعتبر اسلوبه هذا علميا متادبا في الغالب يزاوج فيه

بين العقل والعاطفة ، فهو يهضم حقائقه ويتشربها أولا ثم يروح ينفثها ويتنفسها مطعمة بشيء من وجدانه ، ومجملة بشيء من فنه ، وبسبب تنوع موضوعات الأمين التي تضمنتها كتب رحلاته فاننا نراه يصطنع طرقا عدة في توصيل معلوماته فيها وانطباعاته عنها .

ويمكننا ان ندرج طرق التوصيل هذه على تعددها ضمن النوعين الرئيسيين اللذين أشرنا اليهما قبل قليل ، اذ ان الأمين سلك هذه الطرق في كلا الاسلوبين ، وان اختلف بالطبع مقدار تركيز ودرجة اهتمامه وتفننه في كل منهما ، فتراوح بين التخيل المجنح والعاطفة المشبوبة وبين العلم الدقيق الذي لا تكاد موضوعيته تصل بالفكرة فيه الى حد البرود ، وكلها موسومة دائما بطابع الأمين ، متميزة بشخصيته ، على الرغم من تعرضه لأكثر ميادين الادب والحياة ، اذ « لم ينصرف بكليته الى (فن القول) ليتحرى الجمال في التعبير فقد تناول الكثير من مواضعات الحياة والفكر ، فان شاعرا واديبا وخطيبا ومتفلسفا ومصلحا اجتماعيا ومؤرخا ورحّالة ... » (١٣) ، فهو شاعر امام الطبيعة ، ومتفلسف حين يتناول بعض المشكلات العقلية ، وخطيب عند تعرضه لقضايا قومية ووطنية ، وهادىء في وصف مظاهر الحياة والمجتمع او في سرد احداث التاريخ وقص اخبار رحلاته ، يطغى منه على هذه الاساليب كلها الاديب الساخر الخفيف الظل والروح . وابرز ما يميز اسلوب رحلاته السرد القصصي الذي اعتمده في الاخبار عنها اتساقا مع طبيعة الموضوع في اكثر اجزائه ، فجاء سرده للحكايات والاخبار فيه طبيعيا وعفويا ، فاخبار تنقلاته في الجزيرة والعراق والمغرب يجتمع فيها الكثير من عناصر القصة وخصائص الحبكة القصصية ، لولا فقدانها ما تعارف النقاد على تسميته بالعقدة الفنية .

اما « قلب لبنان » فتكاد معظم رحلاته فيه تتحول الى اقاصيص حية بما يفيض فيها من صدق الرواية والعنصر القصصي الانساني ، وعفوية الحوار الذي ينقله الينا على فطرته كما ورد على السنة اصحابه ، فمحبوب والاخ حنا والمكارون واصدقاء رحلات اللالؤ وغرزوز شخصيات قصصية تستحوذ ، بما فيها من جوانب فنية نامية ، على تفكيرنا ، وتشد انتباهنا لمتابعتها في كل مواقفها وتصرفاتها . وحتى في كتابة التاريخ ، فان الريحاني يرى في الاسلوب القصصي والروائي معرضا يبين فيه الحقائق التاريخية في اثواب فنية قشيبة ، فهو يروي لنا قصة احتلال عبد العزيز آل سعود مدينة الرياض بأسلوب قصصي شائق يبقى التاريخ فيه مخضلا بندى الفن والادب (١٤) . ويتجاوز في بعض فصول تاريخه الاسلوب القصصي ويتمادى الى الخوض في احداث التاريخ في قالب تمثيلي مسرحي ، ويطغى الاديب على المؤرخ في الريحاني ، أو يمتزجان معا ويخدم كل منهما الآخر ، فهو يصور مأساة بيت الرشيد في هيكل تمثيلي مسرحي تلتمع موهبته الفنية في بعض جوانبه ، ففي فصل « مأساة بيت الرشيد » يستعرض تاسيس هذه الامارة ، ويشير الى انهيا

بلغت في عهد محمد بن عبد الله الذروة التي طاح منها مجد بيت الرشيد الذهبي ، ويعرض المأساة في اربعة فصول وفاتحة وخاتمة ينحو فيها منحى مسرحيا يؤطر به تاريخ الامارة . ولا ارى مناصا من نقل بعض اجزاء هذا النص المسرحي التاريخي ليعطي الدليل النصي على مقدرة المؤلف وبراعته الفنية . فالفاتحة تقول : « شمر تندب الامير محمدا وتقلد سيفه عبد العزيز ابن اخيه متعب ، فيخرج الى الحرب وشمر تحدو امامه ووراءه . وفي الوقت نفسه يخرج سمي ابن الرشيد عبد العزيز بن سعود من الكويت غازيا ، فيلتقي العزيزان ويحتربان سبع سنوات ، فيخسر العزيز الرشيدي نصف الملك الذي كان لعمه محمد . وبالرغم من مساعدة الاتراك الامير شمر قبل الحرب العظمى ، ومساعدة الاتراك والالمان اثناء تلك الحرب ، ومساعدة الملك حسين بعدها ، زلت قدم شمر وهي على قمة الجبل ، فطاحت واستمرت طالحة » (١٥) .

والفصل الاول يتألف من اربعة مشاهد . الاول في سوق بريدة ، حيث يدخله السعوديون رمزا لفتحهم المدينة . والثاني في القصر بحائل ، حيث ينتخب محمد بن عبد العزيز للامارة . والثالث في قصر آل عبيد ، حيث يتآمر ابناء حمود على الامير واخوله ، ويقررون التخلص منهم ، وينفذون خطتهم في المشهد الرابع : « في العراء خارج المدينة . فيصل وسعود وسلطان آل عبيد ورجاجيلهم وعبيدهم ومعهم متعب ومشعل ومحمد ابناء عبد العزيز ، وقد دعوا ليوم صيد فلبوا الدعوة » .

« كوكبة من الخيل خرجت من حائل ، وكل خيال يبغي الصيد ، ينشد الطريدة في الآفاق ووراءها ، الا ان طريدة آل عبيد كانت قريبة ، غافلة ، غير شاردة . طريدتهم ؟ هاكها على الخيل امامهم . فبعد ان خفيت اسوار المدينة ، عندما غدوا في الفلاة ، لمز كل من الاخوان ابناء حمود حصانه وساقه على واحد من ابناء عبد العزيز ، فتناوله من السرج بقرونه (شعره) وغمد خنجرا في صدره . طاح الثلاثة الاخوان الى الارض مضرجين بالدماء ، ولم يحرك احد من الحاشية يده دفاعا عنهم . وما دخل العبد ؟ رشيدي قتل رشيديا . ولكنهم وهم عبيد آل عبيد هتفوا قائلين : والحمد لله هذه آخرة آل عبد الله » (١٦) .

وفي الفصل الثاني ، يجسد لنا التآمر بين الاخوة الجدد . ويبدأ « مشهد كلي ، يرفع الستار وسلطان بن حمود عبيد متصدر في مجلس الامارة ، والى جانبه اخوه فيصل البسام صاحب البسمة الابليسية الناعمة ، وفي مخدع وراء المجلس الاخ الثالث سعود يشحذ سيفه » .

« لم يكن سوى العبيد على شيء من الصبر . فقد حن الى الامارة حنين الحبيب الى الحبيب ، ولم يأذن لاخيه سلطان بغير سبعة اشهر منها وعندئذ ـ جاءت الساعة ولم يكن سعود متاهبا ، او انه شحذ سيفه حتى انقصم ، فبادر الى حبل خنق به سلطانا ودفنه في حفرة بالقصر» (١٧) .

وتتابع المشاهد ، ومنها الجزئي والكلي ، فتصور بطريقة حركية معبرة هذه المرحلة من تاريخ الامارة ، وقد تتابعت الاحداث وقتل سعود في الغرفة التي قتل فيها اخاه سلطانا، وعاد آل عبد الله الى الحكم . ونصل الى الفصل الرابع : في القصر بحائل : ((عبد الله ابن متعب جالس على عرش جده عبد العزيز ـ جالس على العرش ويده على رقبتـه خشية ان تجيئه الضربة غدرا ـ جالس على العرش وقلبه يخفق جزعا ورعبا ـ جالس على العرش وعيناه الفتيتان محمرتان ، دامعتان ، من الدم الراق على جوانبه . عرش نخر السوس في اركانه ، فتزعزع ، فهوى ، فامسى مسندا وحصيرا في فناء الاستقلال)) (١٨) ويفر امير حائل عبد الله بن متعب ويده على رقبته ، ويلوذ بابن سعود خوفا من محمد بن طلال الذي جاء وفي نفسه أمل بانقاذ حائل وباعادة شيء من المجد الى شمر .فوقف خارج المدينة ،وفي حصونها ، وعلى أسوارها ، يدافع عنها دفاع الابطال . ولكنها وهي تابعة لعرش هوى ، لمجد تقلص ظله ، رأت خلاصها في انفصالها عن هذا المجد ، وذاك العرش وفي التسليم الى ابن سعود، فكان الفتح خاتمة المأساة . مأساة شمر وبيت الرشيد ، بل كانت الخاتمة حصارا ، ورصاصا ونارا)) . (١٩)

وينهي الفصل بكلمة للسلطان عبد العزيز في قصره بالرياض يعد فيها ويوعد آل الرشيد الاسرى لديه ، ويعاهدهم ويؤمنهم على انفسهم ، وهم يدعون له بتوطيد أركان ملكه وادامتـه .

انه الريحاني الذي نجح في اسلوبه القصصي في كتب رحلاته اكثر من نجاحه في محاولاته القصصية المقصودة في (خارج الحريم ، وزنبقة الغور) ، اذ ظل يطغى عليه فيها الهدف الاجتماعي والسياسي على الحبكة الفنية ، ولكنه هنا في تاريخه وفي رحلاته يقصد الى أهدافه بنفس فني يتسرب اليه عن طريق اللاشعور فتاتي خطواته واسلوبه في عفوية صادقة وموفقة . ويظل اسلوبه القصصي في رحلاته ، اسلوبا مرحا شائقا ، (فالسرد على ريشته محلول اللجام ، والفكر مرخي الاعنة) ، والحوار عفوي وحي . فيلون العلم بجمالات الفـن ومباهجه ، فلا يضجر ولا يدعو الى ملل أو سأم ، بل على العكس فانـه يشعر بالبهجة والهناء . ولم يقتصر نجاح الامين على اسلوبه القصصي وحسب ، وسنرى الى أي حـد من النجاح وصل كذلك في اسلوبه الوصفي والتقريري . وهـذه النجاحات لاتقوم على أهمية الموضوعات أو عظمتها بقدر ماتقوم علـى تخير مايناسب الحديث عنها من اساليب تستمد عناصرها من الحياة والواقع ومن دفق شعوره وفكره الخصب ، ومزاجه الفكه ، حتى انه لينجح في سرد أقل الحادثات واتفهها شأنا بمـا يضفي عليها من أحاسيسه ، ويرعى موضوعها بعطفه واهتمامه ليخلع عليها كل رواء ، يقول في تلك (السبحة) التي اخذها ذكرى من الشريف احمد العلوي ، أول مغربي قابله في أرض المغرب ، وقد أعطاها له برغم معرفته بانه نصراني ، يقول فيها أو عنها : ((وهذه السبحة هي الآن في لبنان ، في أعز مكان من هذا البيت فيه ، أمام صورة الوالد

رحمه الله » (٢٠) . فهو يخلق من هذه السبحة ومن صاحبها موضوعا يتسع به ومعه فيقيم منه جسما ذا لحم وعظم ، وعروق يجري فيها الدم ، ويبعث فيه الحياة ، ويسمه بميسم الفن بكل نعومة وهدوء ووداعة . وهذه هي كتابة الامين دائما ، كأنها ، مهما تعددت اساليبه فيها ، قطعة حياة نابضة تفور بدم فتي دافىء ، ليس أسهل من انتقال عدواه الى وجداناتنا ، تستثير أحاسيسنا ، وتفتح أذواقنا الفنية وترهفها بلمس أنامل العواطف فينا والشعور .

ومن الجدير ان ننبه هنا الى ان اسلوب الريحاني في رحلاته لم يكن كله على درجة واحدة من الانفتاح على عقل القارىء ، وان لم يفقد على الدوام ، عنصر الاسر فيه ، فهو لم يكن ذلك الرجل البسيط العادي ، بل كان رجلا مفكرا ذا دهاء ، بعيد الاعماق ، متعددة الابعاد في تناوله الاشياء ، لا سيما وقد كان ملتزما بغايات تتصل بكثير من الامور السياسية والرسمية التي استوجبت انتقاداته في بعض الاحيان ، مما الجاه فيها ، برغم مازانه من جرأة وصراحة ، الى (التعبير المغلف) ، فاتخذ من اسلوب التورية واللف والدوران سبيلا لعرض بعض الحقائق ، فالبسها بعض الاقنعة والاكسية المهلهلة التي لاتخفيها حقيقة بقدر ما تلفت اليها النظر بطريقة غير مباشرة . واكثر ما اتبع هـذا الاسلوب في كتب رحلاته في الجزيرة وفي العراق . واكثر ما استعمل من هذه الاقنعة والاكسية المهلهلة ، قناع التفكه والتهكم ، حتى وهو يصرح بلجوئه الى هذا الاسلوب ، فقد قال في مقدمة كتاب (ملوك العرب) : « وليس في الكتاب ، ادبا كان او سياسة ، وصفا أو نقدا الا الحقيقة غير المجردة ، لأن في التجرد ، في العري ، شيئا من سوء الادب ولاسيما اذا كان المجرد والمجرد في الغربة . ولاينسى القارىء ، اني جئت الى البلاد العربية من أرض قصية يكثر فيها التجرد حقيقة ومعنى . ثم سحت في بعض أرض الهند حيث يستشعر الناس الهواء ولا يلبسون احيانا غير نسيج من الشمس والغبـار . فسئمت التجرد ، ولكنني لا اخفي الحقيقة فيما ألبسها . وكانني بالقارىء يقول : ان في احتجاجك على العري شيئا من الدهاء . فاعتذر اليه فيما قد يعـد مكابرة اذا اعترفت بالذنب . نعم ، وفيه كذلك شيء من تلك الصناعة التي يندد بها أرباب الدين على الدوام ، وتمارسها على الدوام النساء . وما الضرر في اليسير مـن المساحيق والالوان ، وفي المهلهل المطرز من الكساء ؟ اذا كانت الحقيقة المجردة جميلة ، فهي في ثوبها المهلهل أجمل . واذا كانت تؤلم فهي في زينتها أدعى الى الالم والحزن ... »،(٢٠) ولقد نما الامين مافطر عليه من ظرافة وخفة روح بقراءاته لفولتير ورابليه والجاحظ وغيرهم دون ان يفقد طبعه السمة التي فطر عليها من هذه الناحية ، فلم يقلد أحدا فـي تفكهه وتهكمه ، فجاء ذلك منه موسوما بوسم (معدانه الريحانية) ، اذ فاض من روحه على ريشته بلا كلفة وبلا افراط ، فصبغ أساليبه ومعظم ما كتب . وكانت مقاصد الريحاني من ظرافته متعددة ، فهو من ناحية دعابة وتلوين فكاهي في هذه الموضوعات المتنوعة دفعا

للملل والسام عن القارىء وتنشيطا لطاقاته ولهمته ، وهو من ناحية اخرى تهكم تطل من ثناياه عيون تغمز والسنة تلمز . وقد خص هذا النوع منه لموضوع النقد لديه ، النقد الاجتماعي والسياسي والديني ، وبه مزق الاستار عما رآه في هـذه النواحي من عيـوب وامراض ، فصب من خلاله نقمته على الامراض الاجتماعية ، وعلـى رجال السياسـة وقضاياها ، ورجال الدين وانتهازيتهم في نظره . وهو من كلتا الحالين لم يعتمد المفارقة الساذجة او اللعب بالالفاظ او التوريات في اقامة سخره وتهكمه ، وانما ينتزع النكتة بمزاجه الفاعل من الموقف الذي يعيشه ، فجاء ادبه مشرقا يزهو بالحياة الزاخرة بالحركة والابتسام . فالموقف هو الذي يفجر طبيعته بالنكتة وينتزعها وهي تغلي بالحياة . انظر تعريضه بطريقة تاسيس المجلس الوطني في العراق عام ١٩٢٠ على يد المندوب السامـي (السربرسي كوكس) . ذلك المجلس الذي (يجب ان يكون عربي الوجه انكليزي البناء) وفيه يعرض ايضا بدور معاوني المندوب المستر فيلبي (الحاج عبد الله اليوم ــ المستوهب) والمس بل « المستعربة » ، حيث يقول : « وكانت وظيفتهما ذات متن واحد كثير الحواشي. فمن ترجمة الرسائل والبلاغات ، الى استقبال الزائرين ، الى مجاملة طلاب الوظائف ، الى مقابلة ذوي النفوذ والجاه في بيوتهم ، الى ... وكل ذلك تمهيدا لتاسيس المجلس الوطني لحكومة الانتداب ، او بالجري لتشييد الوجه العربي للبناء الانكليزي » (٢٢). ففيه تبلغ سخريته الهادفة اعلى درجات التعبير والتاثير . ويمكننا ان نتخيله كانه يبتسم ويغمز بعينه وهو يشير الى احتيال السلطات البريطانية السيد طالب النقيب لابعاده عن طريق منافسة الامير فيصل على عرش العراق ، وذلك بدعوته الى مادبة انكليزية اعتقـل بعدها ، على اثر خروجه ، في حديقة دار الانتداب ، فيقول « ولكن الرواية في طريقـة الاعتقال روايتان ، صدقت منهما غير الرسمية . فقد جاء في تقرير المندوب السامي انه (القي القبض على السيد طالب في الشارع العام) . والحقيقة هي خلاف ذلك ، الا اذا حسبنا الجنينة امام دار الانتداب شارعا عاما » (٢٣) وعلى عادته في السخر والتهكم يبين الريحاني كيف ان السلطان في كل من منطقتي الحماية في المغرب الاقصى ليس له الا الاسم في التشريعات ، فيقول « قال لي احد السياسيين في طنجة وهو يريني ظهيرا شريفيا ، ويشير الى البسملة فيه والخاتمة والتاريخ الهجري . هذا وهذا من فاس ، والباقي كله من باريس » (٢٤) . وكما زخرت كتبه بتهكمه السياسي من هذا القبيل ، فانه انتاش بسهام نقده وسخره مظاهر الحياة الاجتماعية التي استغربها ولم يرض عنها ، كعادة اليمنيين في استعمال اكياس ينامون في داخلها اثناء السفر والقفاليم نوافذ المكان الذي يبيتون فيه ، وفي ذلك يقول « ... الا انهم لايربطونه حول العنق ، كما قد تظن ايها القارىء ، بل فوق الراس . هم يجعلونه كبيرا لهذه الغاية فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخلا فيمسي اذ ذاك كله ، هو وراسه ، في الكيس ، فيستنشق مادام

نالما كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق . ولا ينهض صباحا ووجهه كالرغيف المحروق ، كانه اكل نارا في نومه . وهم فوق ذلك يقفلون النوافذ كلها قبل ان يحتلوا الكيس . فما قول سادتنا الاطباء الذين يهدوننا بالموت اذا اقفلنا النوافذ عند النوم . هل جربوا حامض الكربون في انفسهم ؟ او ليس من الحكمة اذا اضطر عدة اناس ان يناموا في غرفة واحدة صغيرة ان يعتزل كل عن الاخر بهذه الطريقة ، ان يحجر كل على نفسه في الكيس ؟ اليس خير (كذا) له ان ياكل هواءه ـ حامض كربونه ـ من أن ياكل هواء غيره ؟ »[٢٥] ولايقتصر ظرف الريحاني على الاخرين ، وانما لايهمه ان يكون هو نفسه موضع التظرف والاضحاك ، فمسدسه الذي ماتعود حمله ولا تعلم استعماله ، كان يستانس بوجوده في درج مكتبه ، وقد ثابر في اذاعة خبره ، فاصبح مشهورا ، وصار الناس يقولون: « مسدس الريحاني » كما يقولون : « اسطول بريطانيا العظمى ويسكتون . وكذلك نراه يترك امتعته عند القنصل الامريكي في عدن عند سفره الى اليمن ، ويعطيه عناوين في بيروت ونيويورك « لينعيه على الاقل الى اهله » ، اذا ما جرى له حادث ما .

ومن العبث ان نتابع هذا الجانب في السخر والفكاهة عند الريحاني ، فذلك مما لا يمكن حصره الا بقراءة كتبه كلها ، ولكننا نشير هنا الى شيء من سخره وفكاهته مجرد اشارة فقبرص لديه « فردوس الحمير » ، وبعض الضباط الذين رآهم في العراق يحملون الاوسمة على صدورهم خجلين ، كانها نقود مزيفة ، وعادة بعض من رآهم من الملوك والامراء العرب في التسلية باللعب باباهم ارجلهم سوف تستمر « الى ان يقتدي اصحاب الجلالة هناك بابن عمهم ملك العراق فيلبسون الجوارب والاحذية » . وللامين قدرة فائقة على عرض صور الاشخاص الجسمانية والخلقية بريشة الفنان الساخر الفكه كما في وصفه لسفر وغيره[٢٦] من اشخاصه الساذجين . وكذلك فنحن نراه يعرض بعض الموضوعات باسلوبه الفكه لمجرد التفكه وطرد الملل عن القارىء كما في حديثه عن الحمى التي لازمته في بعض اوقات رحلته[٢٧] . ونذكر ههنا ما وجده اصحاب اللحى لدى الريحاني وهو امر مما وجده امثالهم عند ابن الرومي في العصر العباسي ، اذ ياتي في حديثه ذكر اللحى وما يدور حول موضوعها من تندر بالربط بين اللحية وعقل (حاملها) وجلاله ، فيشمر هو الاخر عن ساقيه (ليدوس) في عباب هذا (الشعر) ، ويستل قلمه لينافس ابن الرومي في هذا المجال ، وقد كان كارها لاصحاب اللحى ، « ان التهكم على اللحى الطويلة والسخرية منها ، لمن الاثار القديمة في الفكر والمجون ، حفلت في بعض كتب الادب ودواوين الشعر . اللحية الطويلة هدف كل ذي نكتة عريضة ، او مرارة مريضة . وهل من مبرر لهذا النوع من الادب او قلة الادب ؟ هل يصح ما يقوله اولئك الاذكياء من انّ العقلَ يقلّ كلما كبرت لحية صاحبه ، فينقلها عنهم صائغو الامثال فيقولون : من

طالت لحيته قصرت فطنته ؟ ... انكرت صحة المثل السائر ... وقلت ان مصدره فرية افتراها الاقدمون ، والارجح انهم المصريون على اعدائهم الاشوريين اللحيانيين ، وازيد على ذلك ولا دخل العقل في الشعر النابت على وجه الانسان ، أو الشعر الواثب أو المتدلي منه أو الشعر المتكتل والمتشعب فيه ، او الشعر المرسل الفائض كفضة الفجر على صدر صاحبه . وبكلمة اخرى أوضح اقول انه لاصلة البتة بين الالة المفكرة في المخ والالة الغازلة والناسجة وراء العثنون » . ويذكر بعض المشاهير ممن طالت لحاهم ليؤكد في فكاهته الظريفة ان لا أحد « يقول قولا علميا ان لشعر اللحى من الطفيليات ما يعيش على حساب الفير يمتص غذاءه من المادة السنجابية في الدماغ . اذن الى أن تثبت هذه الصلة الطفيلية وتتحقق علميا ، انبت انا في الدفاع عن اللحى الطويلة الجليلة والجميلة وابرئها من التعدي على العقل والفطنة » . الا يذكرنا في هذا الموقف بالجاحظ في رسالة « التربيع والتدوير » ؟ ويتمادى في هذا الظرف المحبب الذي يمس قارئه ، أي قارىء في قولـه « واذكر ـ رعاك الله وأطال أيامك ، ولحيتك ان كنت من الملتحين ـ اني عطفت على اللحى الطويلة بنعتين اخرين هما الجمال والجلال ، الجمال القائم بالاعتناء الفني ، والجلال اللازم للنعمة ، الجمال والجلال بالنمو الوارف والقص المشارف ، والمشط وال ... عفوا مولاي ـ ان من زطائك الانبياء ، فلا بأس كذلك بشيء من الطيب .

« اما اللحى الزاحمة في الروائح للمعامل الكيماوية ، واللحى العامرة بالاشياء السارحة ، اللحى الناشرة انانيتها الدينية او السياسية افقيا وعموديا من تحت العثانين ومن فوق الخدود ، تلك اللحى الرهبانية والبلشفية ، مهزلات التقوى والتقشف ، او المساواة والتعسف ، تلك اللحى المخيفة ، مفزعات الاطفال ومجفلات النساء والرجال ، تلك اللحى الشبيهة بالمكانس ، أو بعقلية العوانس ، تلك اللحى المذكرة بريش قنفذة تهاج ـ فان في المغرب ولا شك ، كما في اديرة الشرق وبلاد البلاشفة ، كثيرا منها ، عفا الله عنها»(٢٨) .

الا ترى الى هذا الخصب في التفكير والتغلغل في الظرف والفكاهة الفنية ، قاده اليهما ذكر لحيـة احدهم ؟!

وبمثل هذا الظرف والتفكه تسعف بديهة الريحاني وتفيض كنوز المرح في صدره ، فيدب النشاط ، ويفيض الابتسام على حفافي كتب رحلاته ، وبمثل هذه الفنية الرائعة يلتمع اسلوبه المذهب على الدوام . هذا (الاسلوب الريحاني) الذي انعقد على ريشة الامين ، وعنها سال ، مطبوعا بخصائص شخصيته ،ومتصفا بمزايا فنية ، نعرض لها فيما يلي :

كتب الامين رحلاته وهو في ذروة نضجه العقلي والفني ،مما جعل كتبه فيها معرضا لاهم

خصائص اسلوبه ومزاياه الفنية . فهو امام هذا الفيض الغامر من الموضوعات والمعلومات والافكار ، وامام ذلك البحر الزاخر من ابناء الضاد الذين وضع في اعتباره التوجه اليهم فيما يكتب ، قد ذهب على سجيته فازداد ترسله دقة وسلاسة وعذوبة ، فقد استرسل مع طبعه المتدفق السمح في اسلوب حي متحرك يتحرى البساطة ويجانب التعقيد ليبني علائق فكرية واجتماعية بين بني وطنه في مختلف ديارهم . وقد اداه ترسله العفوي هذا الى الطبيعية في التعبير وعدم حبس نفسه عند تكلف الالفاظ وتصنع التعبيرات ، فوايم فيه بين الحقيقة والعاطفة ، فجاءت كل منهما تسند الاخرى ، وتبعث في اسلوبه القوة والتأثير دون ان يجهد الفكر او يكد الخاطر . فانت تحس في اسلوب الريحاني بالشفافية التي تسري خلفها روحه تخفق وترف بالدفء نفسه الذي خلفها عليه صاحبها قبل ان ادركه الممات . وهكذا قام الترسل عند الامين على الحقيقة والعاطفة فجمع في اسلوبه بين الصدق والجمال والحيوية حتى لقد مس العلم من رحلاته بانامل الفن فوهبه من الحيوية ما يجعله قادرا على الصمود في وجه الزمان . وكما اداه ترسله الى الطبيعية في التعبير ، اداه كذلك الى ان يجمع في اسلوبه وبعفوية صادقة ، بين مختلف انماط التوصل الاسلوبية تمشيا مع تنوع الموضوعات وتعدد المواقف في رحلاته ، فهو ، كما اشرت من قبل ، قصاص مرة ، ووصاف مرة اخرى ، وشاعر مرة ثالثة ، وخطيب رابعة ، ومتفلسف في غيرها ، وهكذا . وكل ذلك يلتقي ويلتحم في نسيج عضوي تكاد تدب فيه الحياة .

نحن اذا قلنا انه سار على سجيته وطبعه في عرض مادته ، فلا يعني هذا ان مادته جاءت مسطحة بلا اعماق . فان عقل الامين وذهنه سايرا وجدانه وعواطفه في كل حالات التنبه ، بل وكانا مرتكز عاطفته وخياله للتحليق في سماوات الفن ، دون ان يمنعه ذلك من التعمق في تحليل المسائل واستقصاء الامور بدقة ووعي . ومن هنا تجيء القيمة العلمية لما عرض له من موضوعات تاريخية وجغرافية ودينية ونقدية ... فهو لا يعرض امرا دون ان يلم باطرافه المهمة الماما حسنا مما اقتضاه عرض بعض المقدمات ، وان قصرت ، بين يدي موضوعاته في بداية بعض الفصول تمهيدا للخوض فيها ولربطها في الاطار العام لدراسته ، وطبيعي ان يجد في روحه العلمية وفي ثقافته الواسعة والعميقة مسعفة ومعتمدة في ذلك المجال فهو لا يتطرق الى موضوع من الموضوعات الا ويوقفنا على كثير من وجوهه وحقائقه ولم يمنع استقصاؤه للامور من ظهور اخرى في اسلوبه ، اعني بها ظاهرة الاستطراد . وهي، وان لم تظهر كثيرا لديه الا انها كانت تفرض نفسها في بعض الاحيان لسبب او لاخر . وعلى اية حال ، فان ظاهرة الاستقصاء ابرز عنده من ظاهرة الاستطراد واميز ، بسبب محاولته

الواضحة الانضباط في عرض موضوعاته وتحليل بعض مظاهرها . ومن امثلة الاستطراد لديه حديثه عن تاريخ دير (مار جرجس) وهو يمر به في احدى رحلاته وتطرقه الى الدراسة فيه ايام اصبح (المدرسة الكرزلية) ، ثم ذكره بعد ذلك بعض اطراف من حياته وحياة ابويه . ثم حديثه عن صناعات (بيت شباب) واسباب تقهقرها ومحاولة تجديدها وتقويتها في ايامه . ولاشك ان لتنوع ثقافته الاثر الاهم في ابراز هذه الظاهرة احيانا ، فهو ما ان يذكر دجلة والكرخ والرصافة حتى يرد على ذهنه بيت علي بن الجهم ، المشهور اكثر من صاحبه :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا ادري

وكان هذا كافيا ليكتب نبذة قيمة في الجسور ومواعد الهوى والغرام ، يستعين فيها بشيء من الشعر الانكليزي المشابه في موضوعه ، فيذكره ابن الجهم بطوماس هود « الذي وثب الى قلب الشهرة وثبة عجيبة في قصيدة واحدة او قصيدتين » . ويستشهد بالمقطع الاول من قصيدته ـ جسر الزفرات ـ (٢٩) ، الذي كان مجلبة للعيون التي هي مجلبة للهوى . وموضوع القصيدة حسناء قضت نحبها هناك عند الجسر . ومما قاله الريحاني في نبذته تلك « كان الجسور في كل المدن مغناطيس القلوب ، او كانها شباك للغرام . وقد يكون فضلها او اثمها في المياه الجارية تحتها ـ في رائحة الانهار القرنفلية او رائحة البخار الزنجبيلية ، فتبعث في النفس نشوة يعقبها سكرة ـ سكرات ! وقد يكون فضلها او اثمها في دنوها من الاجل المختوم المقدر ، اي من المكان الذي يصلح للانتحار ... واوله سقم وآخره قتل » . « ان كثيرا من الانهر عند الجسور باوروبا تشهد بصحة قول ابن الفارض » (٣٠) . ويرجع الى رحلة ابن جبير واشارته الى ما للماء من الفعل في القلوب ، اذ يقول : « والحسن الحريمي بين هوائها (هواء بغداد) ومائها ينشا . هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة » . وبسبب هذه الثقافة الواسعة لديه ، برزت مزية اخرى من مزاياه الفنية ، اقصد مزية الاستشهاد بالشعر او التضمين ببعض الآيات من القرآن احيانا او من بعض الكتب المقدسة الاخرى ، او ذكره لبعض الانبياء او قصصهم ومأثورات من اقوالهم . ولكن تجميل اسلوبه وتحليته بالشعر اكثر من صنوف التوشيحات الاخرى التي وشح بها كلامه . فما ان يذكر سجن النساء في بغداد وان بعضهن من الزانيات حتى يقول « الزانية ! ـ هاهنا وقفت . وما كان الناصري ليحلي في نفسي مرارة التامل ... » من كان منكم بلا خطيئة فليرمها اولا بحجر » وها هنا ايضا المثل الاعلى ... قال المعري :

الخير والشر ممتزجان ما افترقا وكل شهد عليه الصاب مذرور (٣١)

ثم هو يتحدث عن الرمث في منطقة الباطن ، وهو مرعى للابل من الحمض ـ وفيه يقول (بداح) ، ـ احد مرافقيه ـ . (الرمث للبل مثل السكر للانسان ، يطلب الماء ولكنه للنار زين) ، فيقول الريحاني : « ومع ذلك فان ناقة المتنبي فضلت دخان العنبر على دخانه :

تركت دخان الرمث في اوطانها طلبا لقوم يوقدون العنبرا » (٣٢)

وكذلك هو يتحدث عن الشيخ (خزعل) حيث يقول فيه « فهو في صفته الانسانية يحمل وساما من الفيلسوف الافريقي ابيقور واخر من الحكيم الالهي الصوفي محيي الدين ابن العربي :

ادين بدين الحب كيف توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني » (٣٣)

وكما يوشح الريحاني كلامه بهذه التحاسين الفنية ، فانه يعتمد بعض التحاسين العقلية كالمصطلحات الفلسفية والمنطقية والفنية حين يبحث في موضوعات هذه العلوم احيانا .
ومن مزاياه الفنية ايضا ، مانراه في اسلوبه احيانا من تجلبب بالروح الخطابية ، حين يترك اساليبه كلها ويرفع النغمة في صوته المهموس لتستحيل الى صوت يجلجل اذا ما استثاره موقف سياسي او عيب اجتماعي ، فيقف عندها منبها الى مخاطره ، بحيث لايرفيه لا السخر ولا التهكم ، وانما يتحفز فيه الخطيب اللسن ، فيعلو صوته محذرا كانه يقف على منبر يسمع الجماهير العربية صوته عبر الاثير ووراء الافاق .

ففي (مليلية) ، احد ثغور المغرب على البحر المتوسط، يتململ العملاق العربي فيالريحاني فقد شعر بضيق شديد في المدينة التي فتحها العرب في ايام الفتح الاولى ، وكانوا السادة فيها ثمانمائة سنة ، وهي الآن بلدة اسبانية لايزيد عدد العرب المسلمين فيها على الفين يضيعون بين ستين الفا من الاسبان ... انها حال من الكرب والاسى تضيق نفس الريحاني عن احتمالها ... ويالها من حال « عرتني اذ جلست فيها ، رعشة أسى تلتها رعشة من الخوف . خفت على بيروت وطرابلس . خفت على حيفا ويافا ، حتى على الاسكندرية ـ فالاوروبيون اليوم فيها جميعا ، والهجرات الاوروبية اليها متواصلة ، والمشاريع الاوروبية تزداد يوما فيوما ، والمدارس الاوروبية تنشر اعلامها في جوار المدارس الوطنية والحكم الاوروبي يحل محل احكامها الاهلية ، من الاسكندرية الى .. حذار يا اسكندرية فان تهاونا في سيادتك القومية يصير فتقا فبابا للسيادة الاجنبية » (٣٤) . انه الانسان الواعي بأهداف الاستعمار واغراضه ، يفهم تصرفاته وحدة مترابطة لا انفصام بين أجزائها

أتحدت أهدافه وتشابهت وسائله ، وتماثلت فيه الروح . ومن هنا كانت دعوة الريحاني ملوك العرب وامراءهم وساستهم الى النهضة والوحدة ليدفعوا التيار الاجنبي المتدفق على ثغورهم وعواصمهم ... انه نذير بالخطر يدهم وطننا وامتنا ... ولكن هل من مجيب ؟! لقد كان الريحاني مخلصا كل الاخلاص في دعوته ... ان صوته يتفجر من عقله وقلبه معا ومن اقصى المغرب ، من المغرب الاقصى ، يحذر الشرق العربي ، والثقافة وسيلة الريحاني الى النهضة ، وهي ايضا مطية الاستعمار الى الوصول الى اهدافه ، ومن هنا نبه الامين الى أهمية الثقافة الوطنية والعلم في تنشئة المواطن وازدهار الوطن والامة ، ونبه الى أخطار الثقافات الاستعمارية وسمومها وضرورة التخلي عنها .. انظر اليه كأنه خطيب يصرخ في انفعال فطري صادق : « لقد خفت عليك يابيروت ــ خفت ، وانا في مليلية ، عليك ! فمتدما تلفظ الروح القومية فيك نفسها الاخير ، تمسي مدارسك وجامعاتك قبورا لها . وعندما تتلاشى فيك الروح الوطنية العربية تنقلب المعاهد الحية عليك وتغور طوع ارادة الاجانب في كل مايبتغونه منك . وحينما يستسلم الرعيل الاخير من فرسانك الاحرار ، يقل سادتك وزعماؤك وينبذون قصيا ، فتهجر المساجد والكنائس ، ولايبقى لمئذنة صوت ، او لقبة صدى ، وقد تبقى فيك ، يابيروت شرذمة من اللبنانيين العرب المسلمين والنصارى ، كهذه الشرذمة الاسلامية في مليلية .

« بيروت ، حيفا ، يافا ، الاسكندرية ، ثغور هذا البحر جميعا ــ اني أخاف عليك . ان لم تقم الدولة الموحدة ، المنعمة بروح المدينة الحقة ــ مدينة العلم والدين مقترنين ــ مدينة المادة والروح متعانقين ــ فتحميك من التيار الاوروبي الهائل القلاب ، وترد عنك اخطار الاستعمار الحديث التي بدأت تدس سمومها في رسم الثقافة والتجارة والسياسة والدين .

« بيروت النصارى ، بيروت المسلمين ، استيقظي ! لبنان الدروز والموارنة ، استفق ، فلقد غزاك نصارى المشرق ، السريان والكلدان كما غزاك ، وكما غزاك ، يابيروت ، المستعمرون واعوانهم المهاجرون ، الارمن والشركس والآشوريون ، وستزداد الاقليات قوة من لبناني العزيز ، فتمسي الاكثرية حلية ، ويمسي أهله الاصليون أقلية صغيرة ضئيلة ضعيفة ذليلة ، وذي هي الشرذمة الاسلامية في مليلية تشهد على ما اقول . فياملوك العرب ، ويا امراء العرب ، ان الاجل قريب ، وان اليوم الذي ستشاهدون رهيب ، الا ان تستفيقوا ، وتعملوا بعزم واخلاص ، العمل الواحد ، مهما اقتضاه من بذل النفس والنفيس ، فتحموا الثغور العربية على هذا البحر الابيض ــ تحموها تحقيقا لاماني أهلها ، تحموها بالرغم عما يريده اهلها ، تحموها وانتم في البداية والنهاية اهلها ، وان لم تدركوا

معنى التبعة وقيمة التبعية التي القاها الله على عواتقكم ، فأنتم الخاسرون ، وأنتم المظلومون ، فالثغور اليوم ذاهبة ، والعواصم ذاهبة غدا ، ولات ساعة مندم . وهذه مليلية تشهد على ما أقول » .(٣٥)

ومن المزايا الاخرى التي يمكن تسجيلها في اسلوب الامين ، اكثاره من استعمال الجمل الاعتراضية ، للتوضيح حينا ، وللدعاء حينا آخر ، وللمزاح حينا ثالثا . وهو في هذه المزية يشبه بعض الكتاب القدماء كالجاحظ . ويجمع اهدافه الثلاثة من اكثاره من جمل الاعتراض قوله : « والحروب ـ اغفر لي هذه المبتذلة ـ لا تقوم بالآمال . والفتن والحروب ـ ما كان اكثرها في المغرب ـ تشغل الناس عن الزراعة ـ حقيقة اخرى مبتذلة استغفرك عنها ـ فتهمل الارض ويذهب خيرها ، فتفتقر البلاد .

« وما السلاطين والملوك ، دام عزك ، بغير القصور والجنود والعبيد والجواري ، والخدم والاعوان »(٣٦) . وقد يستعمل الاعتراض احيانا لتبيين الحذر او الاحتراز والتحوط كان يقول في حديثه عن مدينة (شفشاون) بالمغرب ، « أما حسنة حسناتها ـ بعد النظافة والانوال ومعمل الزرابي والمدارس المدنية والدينية ـ حسنة هذه الحسنات مدرسة البنات » ... (٣٧) . ولا يخفى ما للثقافة الانكليزية من اثر في ابراز هذه الميزة .

واذا تكلمنا هنا على السجع عند الامين ، فليس لنعده في ذاته احدى مزايا اسلوبه الفنية، ولكن لنبين طريقة تناوله له وهدفه من ذلك ، وذلك فيه هو المزية . فلربما يكون من نافلة القول ولغو الكلام ان نحاول تبيين موقف الامين من المحسنات والتكلف والتصنع اللفظي ، وهو الذي أولى معانيه جل اهتمامه وعنايته ، وكان في طليعة الرواد الذين خرجوا على هذا الهزال في النثر ، فاغنوه وملؤوا حناياه دسما وفكرا ، ومع قدرة الريحاني على التصنع اذا ما اراد التكلف(٣٨) الا ان ذلك كان ضد طبيعته وفطرته الفنية ، وهو لم يلجأ الى السجع في أدبه عموما الا في حالات قليلة بهدف اظهار قدرته عليه حينا ، أو بهدف الاستهزاء والتهكم على اربابه في الكتابة العربية حينا اخر . وقد ربطه ايضا ببعض مواقف التهكم عنده في كتابة رحلاته ، احساسا منه بما يضفيه السجع من ايقاع وانسجام يزيدان في تأثير التعبير ، والتفكه بوقعه ، كانه يزاوج في الموقف الواحد بين اكثر من داع من دواعي التهكم ، اذ يستثير بعضها بعضا ، ويشد من أزره . وقد اكثر من هذا في سخريته وتهكمه، فاستمع اليه وهو يبطن سخريته الرشيقة في اشارات لطيفة تمس موضع الالم فتزيد في رضوضه دون ان تنزف دمه ، يقول المستر (كوك) الانكليزي ، الذي كان يدير شؤون الاوقاف في العراق ، وقد سمي تحببا (كوك الدين الاوقافي) ، وكان قد اختلف مع

الحكومة العراقية على بعض الامور ، فجمع الخفيف الثمين من الاثار ، وحملها وطار الى الى ماوراء البحار ، وخرج من بغداد في ليلة غاب قمرها ، وتوارت في الظلام نجومها ، فحرم صحبه سرور الوداع ، على الاقل . « إيه كولد الدين ، سليل عظام الكلدان ، ونكتة المستشارين في هذا الزمان . فمهما يكن من شذوذك ، في سفر خروجك ، ومن عنادك ، في خفاء اثارك ، فقد كنت في حبك للعرب ، من العرب ، وكنت في غيرتك على الاوقاف ، من الاشراف ، وانهم جميعا لمحزونون ، لانك لم تشعرهم بيوم أو بليل السفر ، ليقوموا بواجب توديعك ، وتشييعك ، وشكر صنيعك . واني واثق ، وهم الموصوفون بالكرم ، انهم لايرضون بما حملت ، ولكانوا أهدوك ، لو أدركوك ، ما هو اثمن من تحف أور وبابل واشور ، ولكان الشعراء من المودعين ، وهم يذرفون الدمع السخين ، وينظمون القوافي ، بمديح كولد الدين الاوقافي » (٣٩) ان الكلمات لتبدو لطيفة وفي منتهى التادب ، ولكنها في الوقت نفسه ، وبما تحمله من لوم وتقريع ، جارحة كانها حد السيف الرقيق القاطع . فقد جاء السجع فيها كأنه يستحضر عبيا عربقا يضيفه ـ في موقف السخر ، وفي تهكم ـ على من كان موضوع سخره ، وهدفا لسهام تهكمه . ومع ذلك ، فالسجع لديه لا يفقد ادبه مادة الفكر الحي ، فلا تصبح عباراته خواء فارغة من المضمون كما كان يحدث مع اهل الصنعة والاسجاع ، فمادة الفكر لديه متوفرة ، ومادة اللغة في يديه طيعه، يخلق منهما أدبا تكاد تدب الانفاس فيه . وعلى الاجمال ، فان السجع عند الريحاني خفيف ، وجمله تبدو فيه قصيرة تطن بالموسيقا اللافتة للنظر على الهدف المقصود . وlربما جاءته قدرته عليه من قراءاته من المقامات .

وابرز المزايا الفنية في اسلوب الريحاني ، جمال التصوير ودقته . ويكون التصوير في اسلوبه الجانب الفني الاهم الذي يوليه اهتمامه وعنايته . والريحاني ذو ملكة فنية طاغية ، قادرة على لمح الدقائق وسبر الاغوار ، والتنظير بين الاشياء المتشابهة وربط العلائق بينها بخيوط من لحم عاطفته المضطرمة . وهو ذو خيال مصور قادر على إدراك ما في المعاني من عمق وما يتصل بها من اسرار جميلة . ومن هنا توفر الصدق في اسلوبه التصويري الرمزي الذي اعتمد فيه على اهم اركان التصوير ، التشبيه والاستعارة بخاصة . وهو يرى ان جمال الإستعارة والتشبيه يتاتى فيهما بتناسب الصور والشعور تناسبا حقيقيا بديعا(٤٠) ، ولذلك راح ياخذهما من لوح الوجود لا من الكتب ، فالصخور لديه عظام الارض والتراب لحمها . والنار التي يبسط ابراهيم ، معاون مسفر ، يده فوقها بحطب العرفج والارطي ، تقهقه طربا ، ونهر (مرتيل) يقهقه في انحداره وترى ضحكته الفضية وتسمع . وصوت الخيزران على رقاب (البعارين) كصوت المطر على النخيل والطلح والسـلم « نباتات صحراوية شوكيـة » في وادي حنيفة الذي هجرتـه

الاطيار بعد أن كان عامرا كأنها ((مخالب الزمان في كبد العمران ، أو أكاليل من الشوك للطلول الدوارس)) ، والمفازات على طريق الكويت ، على اتساعها ، أجف من الاسفنج في دكان العطار . وهكذا هو الامين يجدد في استعاراته وتشبيهاته ، اذ ينتزعها مـن قلب الوجود فيما حوله بحيث تتناسب مع مشاعره ووجدانه ، فتثير جوانب افكاره ، وتجعلها كالعضلات المفتولة ، من لحم ودم . وبسبب من تيقظ نفسه الدائم ، فان الحاسة المصورة لديه لا تمل تحميض الصور وابرازها على ريشته وقد تشبحت فيها الالوان والاطياف في رقة وادعة كأنها الظلال في الواحات يتفياها العقل في راحـة نشطـة ، فتنعش المفكر والاحاسيس معا . استمع اليه يصور الفجر وطلوع الشمس في بغـداد ويدعـوك الى مشاهدتهما معه ، فيقول ((ليت الحياة كلها فجر ، وليت غيومها كلها بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية ، مثل هذه الغيوم الصغيرة الوديعة فوق قباب الجامع الكيلاني . وهي تبدو حينا كقطيع من الغنم يلكأ في كنف الشمس متدفئا ، وحينا كامواج البحر المتكسرة على الشاطىء الضاحك بين الصخور القاتمة . وما هي الا لحظة فيستحيل القطيع مرجا زهت الوانه ، والامواج بحرا ساجيا طفا دره ومرجانه ، وهاك الشمس بجيشها غازية فاتحة ، تهدم صروح الخيال ، وترفع فوق معاقل الامال اعلام النهار الجديد))(٤١) .

والريحاني كلف بالتلوين والتذهيب ، حتى لتشكل صوره الملونة والمذهبة عقودا فخمة في كتبه ، خاصة عندما يصف لنا الطبيعة او المدن (٤٢) وها هو يصف لنا كيف يرى بعض المناظر من الجو في طريق سفره من مليلية الى تطوان ، يقول : ((فبلدة الناضور تبدت كقلادة فيجيد بحيرتها ، اما البحر فهو ساج ، والشمس ترقص تحت جناح الطيارة ، فتترك اثرا على الامواج كالوشم الفضي ، أو هو كالشبك يطرحه الصياد على البحر ، فيستحيل من سحر الشمس غربالا من الذهب والفضة)) (٤٣) و (واد لاو) ونهره على الشاطىء كخيل فضي على رحل الرمل الذهبي . ويعتمد الريحاني كثيرا على التجسيم والتشخيص في تصويره ، حتى انه ليبدي لنا الحركة في صوره ويشعرنا فيها بالانفاس ، ويعكس أمامنا اللون زاهيا ناضرا . يقول في بعض شجرات الارز وهو يراهن من خلال الضباب ((وعندما يصعد الضباب ، وترق حواشيه ، تبدو تلك (كذا) الوحيدات الجميلات كالحسناء في حجابها ، ترفعه وتسدله غنجا ودلالا ، أو كالراقصة في سرابيلها الشفافة التي تظهر محاسن جسمها وتخفيها . ثم ينجلي الضباب ، فيبدو الاخضرار نديا ، صقيلا جديدا ، كانه خرج في تلك الساعة من مصبغة الله))(٤٤) . ويرسم لنا صورة جميلة في يوم من ايام رحلاته ، كانت الشمس فيه تشق الغيوم شقا رقيقا ، وتشرق اشراقا ناعما ،

فيقول : « واستمرت تسرح السحب بانامله الذهبية ففتحت نافذة لنورها فوق (البترون) ، وبابا فوق (روما) ، وشرعت تنسج من ذهبها ، ومن فضة السحب في جونا العالي ، فتلبس الارز والصخور السرابيل الموشية »(٤٥) . وهو يذهب في هذا الاتجاه شوطا بعيدا فتراه ينادي مصوراته ويناجيها فينفث فيها الحياة حتى ولو كانت صخور الجبل . ويمكننا ان نلحظ عند الامين في بعض استعاراته او تشبيهاته روح قديس يضفي من خلالها على صوره شيئا من المهابة والوقار ، يقول في وصف ردهة الاستقبال في قصر سلطان لحج انها « رحبة انيقة جليلة ، يدخل اليها نور الشمس في جلباب من التقوى يلبسه اياه الزجاج الملون في النوافذ ـ كانه من كنيسة مسيحية ـ وتلطفه السجفالبيضاء المحزمة كانها من قصر انكليزي(٤٦) وهكذا هي تشبيهات الامين واستعاراته ، جديدة ومبتكرة ، فللجبل جفن ، وللوادي كتف ، وصوت فتاة النول ينسج لقلبها ثوبا من (المواليا) ، وشعرهم في رحلتهم الصحراوية الطويلة فطم عن المشط والمقراض . وكذلك كناياته ، فالشريكة ، امرأة شريكهم في املاكهم ، ذبحت له « دجاجة فنيقية العمر ، وجعلتها بيت القصيد لمادبة فتحت بزيتون من ارضنا ، وختمت بجبن من بقرتنا » (٤٧) ، وداود بركات ، رئيس تحرير الاهرام ، كان في وطنيته اللبنانية (سندياتيا) ، فقد كان ذا مثل عال في لبنانيته ، منحصرا في السندياتية والكنيسة ، ومسورا بصخور التقاليد »(٤٨) . وبهذه القدرة المتفوقة في التصوير ، اظهر لنا الامين بعض ملامح هذا الفن عند الغربيين حيث ارتبط بالحياة والواقع دونما زخرفة او تزويق ، من مثل قوله يصف ابن سعود وما لاقاه من شدة في حياته وما يكنه من غم ، « يبدو في بعض الاحايين يابسا كالجرح القديم في وجه الجندي (٤٩) ، ومن مثل قوله في المكاري ، « والمكاري له لسان تنبت فيه المسبات والنكات زاهرة شائكة » ، وفي خلق احدهم بانه مزيج من الرمل اللهبي والزبل(٥٠) . وهو ، وان تاثر من هذه الناحية بما وجده عند الغربيين ، الا انه لم يهجر كل ما وجده في أدب امته وثقافتها ، وانما رأى ان يتخلص من مساوىء ما وجد ، التكلف والتصنع والتصوير المتداول المبتذل ، فهو يرى ان من التجدد « الا نلجا الى الطابع المدرسي في البلاغة والبيان ، وان نحيل على التقاعد تلك الصور الشعرية ـ الثغر الذي كون من خلايا النحل ، والقد الذي قد من البان ، وان يكون بياننا ـ وان خلا من السحر ـ قريبا من حياتنا الواقعية ، له صلة نابضة باحوالنا وعاداتنا ، وممثلا لروحنا الاجتماعية والوطنية ، والا نتخم عباراتنا بالصور الخيالية والاستعارات »(٥١) . وعنصر الخيال عند الامين ، كما نلحظ في هذه الصور ، يقوم على حقائق الحياة وينتشر منها كما تنتشر الروائح من الازهار ، فهو لا يقوم على الاغراب والغموض ، ومهما حلق به وتجنح ، يظل

مشدودا الى الواقع ، فيعود بك الى الحقيقة المادية والاجتماعية التي نشأ عنها ليثير جوانبها تحقيقا للتوضيح والتفهيم والتأثير ، اهداف صاحبه الذي يرى ضرورة التوازن بين الشعور والفكر في الآداب والفنون .

وجدير بنا ان نتحدث هنا عن لغة الامين في ادب رحلاته ، حيث يمكننا ان نتعرف على موقفه من اللغة والالفاظ من مقالة له كتبها عام ١٩٢٧ بعنوان (التجدد) ، وفيها يقول : « ... ليس التجدد في الرجوع الى القاموس ، فتحفر في آثاره القديمة لنظفر بالالفاظ الغريبة، الفاظ نخر السوس عظامها وأكل الصدأ قلبها، فنحلي بها اسلوبنا ليقال اننا من المجددين »(٥٢) . ويبدو من هذا القول موقفه من اتجاه كان يغلب على الاتجاه الادبي ويأخذ به كثيرون من الادباء في ذلك الزمان ، وهو ليس ببعيد عن الوقت الذي كان قد انتهى فيه من كتابة رحلة الجزيرة في ـ ملوك العرب ـ وقول الريحاني هذا يعكس لنا موقفه من اللغة ، فهي لديه ليست في القاموس حيث لا روح لها ولا قيمة ، وانما هي لغة الحياة، حيث تتوفر لها روحها وقيمتها من روح الكاتب واعماقه . ومع ان الريحاني كان غنيا في مفردات اللغة وقادرا على اثراء قاموسه اللغوي الخاص ، وله بعض فلتات لغوية قد تحمل الدليل على ذلك ، الا انه لم يكن ليحصر نظره في ظاهر اللغة او في هيكلها ، فكانت له حرية ذوقية في اختيار الالفاظ والصيغ المتناسبة مع مواقفه وانفعالاته ، مع همساته وصيحاته ، ومع دمعاته وضحكاته وغمزاته ولمزاته ، وكلها مما يتصل بالحياة وينبع منها . لقد كان دقيقا في التعبير عن افكاره ومعانيه ، ولكنه لم يكن حريصا على تخير الفاظه من المعجم او القاموس . وهو ، وان لم يتحذلق في لغته والفاظه ، الا انه عني بهذه الالفاظ وبانتزاعها من واقع الحياة كما عني بصياغتها وتراكيبها ، فجاءت ، لا سيما وهو يكتب في موضوعات الرحلات ، بسيطة تقرب من لغة الحديث والتخاطب احيانا ، وهو يتنفسها تنفسا احيانا اخرى ، ويبدو ذلك واضحا فيما ينقله عن الكثيرين من شخوص موضوعاته . ومع الالف الذي وفره لالفاظه ، فقد كان حريصا على ان تكون محددة المعنى ، دقيقة الدلالة ، فجاءت عباراته وقد سبكها بحرارة عاطفته ، رشيقة اللفظ ، خالية من الحشو ، لا تتقلقل فيها الكلمات ولا يهتم بزخرفها الانشائي . وليس معنى هذا انه هجر كل مألوف، وفر من كل قديم ، ولكنه قدر الحياة ووجوهها المختلفة ، ورأى ان « الاحاطة بها تستوجب اسلوبا قوامه الجلاء والايجاز والصراحة » . وهذا الاسلوب ، ان اقتضى ، « ان نفر من جديد فيه سماجة وركاكة ، فلا يقتضي ان نثب وثبة واحدة الى المعلقات والوحشي من الشعر والنثر . فليس التجدد ان ننبذ القديم كله ، وليس التجدد ان ننبذ بعض التعابير المألوفة ، أو نهمل بعض الحروف المصطلح عليها ، أو نزدري الالفاظ المختارة والديباجة الناصعة ، ولا هو في التنطع ولا هو في الركاكة » (٥٣) .

وبهذا المفهوم ، فقد اكثر الريحاني ، وخصوصا في ـ ملوك العرب ـ من استعمال الالفاظ والاشعار والمصطلحات المحلية في كتابته دون ان تبدو نابية او غريبة ، بل على العكس ، فان ورودها في مكانها يضفي كثيرا من الظلال والشفافية على عباراته وتراكيبه ، ويضفي الكثير من رونق الحيوية على الزي الانشائي لديه . وهو لا يكتفي احيانا بايراد اللفظ أو التعبير المحلي ، وانما يشرحه لنا ويعلق عليه احيانا بتعليقاته ومداعباته الظريفة »(٥٤) .

وفي مزايا لغة الريحاني يقول (كراتشكوفسكي) : « ومن مزاياها الخصوصية الجمة انها لغة بسيطة مرنة شفافة تتابع جملها بخفة ورشاقة ، ولا تتراكم بعضها فوق بعض كما هو الحال غالبا عند غيره من الكتاب . فاذا قابلنا مقالات الريحاني بمقالات غيره من المعاصرين تجلت لنا تلك المحاسن خصوصا الطلاوة منها والرشاقة وبراعة الاسلوب . زد على ذلك انها خالية من السجع الثقيل ومن الالفاظ والتعابير اللغوية القديمة التي يصعب فهمها بدون معجم . والتي يفاخر بها المفاخرون من بعض ادباء العرب حتى في هذه الايام»(٥٥) . وفي الحقيقة ، فان الريحاني ، برغم ثقافته الغربية ، يميل الى اتخاذ الاصل العربي مصدرا لاستقاقاته اللغوية الحديثة ، ويأخذ على اولئك الذين يحبون الاغراب ولا يحكمون الذوق السليم في اشتقاقاتهم اللغوية ، ولذلك فاننا لا نجد في كتاباته اشتقاقات حديثة غريبة . وبرغم هذا ، فان المتتبع يقع على بعض الاخطاء اللغوية والنحوية في كتابات الامين . وقد لا يستغرب وقوع بعض الاخطاء عند من تعلم العربية في مثل ظروفه ، ولكن الغريب انه يقع في بعض الاخطاء البسيطة ، فينصب خبر (ان) احيانا ، ويصر على عدم اعمال لم) في جزم المضارع كثيرا ، كانه لا يعترف بعملها هذا . ويخطىء احيانا اخرى في استعمال بعض حروف الجر أو في اسناد فعل الى فاعله او تركيب الجملة.كان يقول « وعندما شارك قرم يلفت نظرك الى اثر قديم ... » (٥٦) ، حيث يبدو كانه يترجم حرفيا عن اللغة الانكليزية ، وهذا لا يتكرر كثيرا لديه .

ومهما يكن من امر هذه الهنات ، فانها لا تقلل باية حال من القيمة الفنية لكتاباته وادبه في الرحلة الذي ارتفع به الى قمة سامقة لن يتطاول اليها كثيرون . وان حاول البعض التسنم اليها فسوف لا يصل احد الى اعلى قمتها ، وسيبقى الكل في دائرة ظلالها . ذلك لان الريحاني جمع الى اهدافه القومية طاقات فنية ممتازة ، فسخر في كتابته عقله ووجدانه ، محققا مايراه من « ان قوام الفن الخالد ثلاثة : ان يرى الفنان وجه المشهد وقلبه ، وان يدرك مافي اعماق نفسه من اتصال بما في اعماق قلب موضوعه ، ثم يجمع ، بالاسلوب الفني الذي يختاره،بين الواقع والروح»(٥٧) . وبذلك بلغ بفن كتابة الرحلة قمة عالية ، اذ جاءت على قلمه مسرحا للتصوير الفني الرائع ، وميدانا للتاملات الفلسفية

والاجتماعية العميقة ، وللقص الشيق ، والنقد الاصلاحي اللاذع ، فوفر لادبه بذلك ماكان يعتقده من حاجة الفكر العربي الى التمرن على التدقيق والتماسك في التفكير ، وعرضه في ديباجة ناصعة واهاب شفاف يتلبس فكره تلبسا كانه فصل له ، وغمره في موسيقا نفسية ناعمة ، فجاء وقد حقق له غايات ثلاثا ضمنها لقارئه : الوضوح المؤدي الى الافهام ، والقوة المولدة للتأثير ، والجمال المنمي للمتعة والسرور . فظل الريحاني بذلك حيا في هذا الادب يتنفس من حنايا كتبه ، وترف روحه من فوق صفحاتها ، وان بلي جسده في مدافن الاسرة في (الفريكة) . ولقد صدق قول الرصافي فيه :

لـه قلم به تحيـا المعـاني كما يحيا من المطر الجديب(٥٨)

مكانة الريحاني بين كتاب الرحلة العرب المعاصرين :

كان ادب الرحلة عند العرب نوعا من الكشف الجغرافي والتاريخي والاجتماعي مع اختلاف الرونق الادبي الذي عرضت فيه الرحلات المتعددة التي سجلها كتاب العرب وادباؤهم ، فقد اختلفت اتجاهات الرحالة العرب الاقدمين ومناحيهم في كتابة رحلاتهم وتدوينها ، فغلبت روح الموضوعية احيانا، كما في رحلة ابن جبير، وطغت روح الخرافة والتهويل احيانا اخرى ، كما في رحلة ابن بطوطة ، وسيطرت الرغبة في الحديث عن حياة صاحب الرحلة وعن أساتذته والعلماء الذين لقيهم ، كما في رحلة ابن خلدون . واختلفت هذه الاتجاهات اختلافا جذريا عما آل اليه ادب الرحلة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين لسبب مهم وبسيطة ، هو طبيعة التطور العقلي والحضاري من ناحية ، وقيام الصلة وتقويتها مع الغرب والاوروبيين بما وصلوا اليه من تقدم ورقي من ناحية أخرى ، مما أثر في مناحي حياتنا بعامة وفي أدبنا العربي واتجاهاته والوانه بخاصة . وظهرت بوادر هذه الآثار في أدب الرحلة عند رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق في القرن الماضي ، خاصة وان رحلاتهما كانت الى بلاد الغرب . وقد أثر ذلك في منهج الكتابة وتبويب الرحلة وحسن عرضها ، ناهيك عن التطور الواضح الذي لحق أساليب الكتابة العربية ، لا في لون أدب الرحلة وحسب ، وانما في جميع ألوان الادب وفنونه وأغراضه . ولقد تطور أدب الرحلة على يد أحمد فارس الشدياق بما أضفاه عليه من الطرافة المستحبة والدعابة الظريفة ، فجعله لونا أدبيا سائغا ارتفع به الى مقام ألوان الادب الاخرى . ثم جاء الريحاني فسما به الى أوج الازدهار والغنى الادبي والفني ، فكان بذلك ثمرة ناضجة من ثمرات المخاض الطويل وآلام الوضع المحضة التي تعرضت لها الامة العربية ، نتيجة لطبيعة التطور ونتيجة لقيام هذا الاتصال ، بحيث يمكننا أن نقول انه ، في مجاله هذا ،

قد لا يدانيه احد من معاصريه أو ممن أتوا بعده ، مما يجعل من الظلم أن توازن بينه وبين سابقيه من كتاب الرحلات ، سواء في المنهج أم في الاساليب أم في الموضوعات والمعلومات .

ولم تتوقف الرحلات في عصر الريحاني ولا فيما تلا عصره ، فكثر الرحالون وتزايد عددهم ، وتعددت البلاد التي قصدوها برحلاتهم ، وتنوعت بواعث هذه الرحلات ودواعيها ، ولكن الجميع ، اختار منهم اعلاما مشاهير في فنون الادب العربي المختلفة ، ظلوا في رحلاتهم التي دونوها دون تلك الذرى التي يطل الريحاني عليهم منها ، ويفيئهم بظلها الظليل . ومن هؤلاء ادباء كبار احتلوا مكانة مرموقة في ادبنا الحديث ، كمحمد حسين هيكل ، وابراهيم عبد القادر المازني ، وطه حسين ، ومحمود تيمور ، وحسين فوزي ، فهم ، على الرغم من قدراتهم الادبية العالية التي حققت شهرتهم الادبية عن جدارة واستحقاق ، وعلى الرغم من تمتعهم بادوات العصر وحضارته أكثر مما تمتع الريحاني ، اذ لا يزال بعضهم ــ مد الله في أعمارهم ــ أحياء حتى هذا العقد السابع من القرن العشرين . وعلى الرغم من ثقافاتهم الاجنبية لم يصلوا بادب الرحلة ما وصل اليه امين الريحاني في رحلاته وادبها . ورحلات هؤلاء الادباء الكبار ، كان بعضها الى بلاد الحجاز ، وكان بعضها الاخر الى البلاد الاوروبية ، وسوف لا يكون اهتمامنا بموضوعاتها بمقدار اهتمامنا بطابعها وبخصائصها العامة في محاولة مقصورة على مقارنتها برحلات امين الريحاني .

فالدكتور محمد حسين هيكل دوّن رحلته في كتاب « في منزل الوحي » ، وقد زار في هذه الرحلة مدن الحجاز مكة والمدينة والطائف وجدة وينبع ، وطاف بمناسك الحج ومشاعره كلها ، وقصد الى كل الاماكن والآثار المقدسة في مكة والمدينة (الكعبة والحرم وغار حراء ، وغار ثور ، والمسجد النبوي ، وجنة البقيع والحديبية ومقابر الصحابة) ، ومر بآثار الطائف وباديتها ، ووقف على أماكن الاسواق العربية القديمة . وفي هذه الرحلة يصف لنا كثيرا من مظاهر الحياة والعادات في مكة وفي غيرها ، ويجعلنا نرافقه في كل اجزاء رحلته اذ لا يكاد يدخر من جزئياتها شيئا ، حتى وهم يملأون سيارتهم بالبنزين في مرة من المرات ، فتراه يدقق في ادق التفصيلات فيعرضها علينا في أسلوبه القانوني الرصين الذي يدعمه اتساع نظرته ودقة بحثه . وأكثر ما يتجلى ذلك في حديثه عن آثار مكة والمدينة ومحاولته تحقيق الاماكن المقدسة وأسواق العرب ، وبيان حكمة الطواف ، وتطور عمارة المسجد النبوي مع تطور التفكير الاسلامي وصلة التطور في العمارة وفي التفكير. والكتاب من هذه ، يعد ، دون ريب ، مرجعا دقيقا يعرفنا على هذه البلاد وعلى جزء مهم من تاريخها وحياتها ايام الدعوة الاسلامية ، وهو في ذلك مجيد حقا . وتغلب الدقة

والرصانة على أسلوبه في هذا الكتاب على حساب ادب الرحلة فيه ، اذ تطغيان على روح الرحلة ومقتضياتها من البساطة والانفتاح على الطبيعة ، مما يسم الكتاب بسمة البحث العلمي ، وان اكتنز أسلوبه بخصب اللغة الفصيحة العذبة ، فالوصف فيها قليل وغير منطلق ، كان توقر الحاج ورصانة العالم لدى الدكتور هيكل اخبيا فيه عاطفته ، واقصرا قدرته على الوصف التي تجلت في رواية (زينب) وهو يعرض فيها لوحات باهرة من جمال الريف المصري ، فجاءت عاطفته في وصفه متعثرة ، وتبدى وجهها منقبضا ممتقع اللون ، يشي بما يبدو الرحالة فيه من حيرة وارتباك وتردد ، كمن يفجا بأمر لم يعد له ، ولم يكن يتوقعه . وأبرز ما يمكننا أن نمثل به على ذلك ما يصف به شعوره في الكعبة ، وامام الحجرة النبوية في المسجد النبوي ، وهما موقفان خليقان حقا بغمر من العواطف الفياضة ، وفيض من الروحانية الغامرة يسموان حتى بنفس اللحد ، ويرفرفان بهـا على تخوم النفس الكليـة وعلى حواشي الكون والسماوات الطبـاق . ولكن الدكتور هيكل يعجز في هذين المقامين عن التسامي ، فلا نراه الا أقل من عوام الناس ، اذ يقول عن دخوله الى الكعبة : « ... ولقد دخلت قبل اليوم هياكل ومحاريب من آثار مصر يرجع تاريخ بنائها الى بضعة آلاف من السنين خلت ، كما دخلت متاحف ومعابد في بلاد أوربا المختلفة . ولقد كنت اشعر في الكثير من هذه الاماكن بالهيبة والاجلال ، لكن شعوري ساعة تقدمت لاصعد الى الكعبة كان غير هذا الذي شعرت به في هذه الاماكن ، كان شعورا قويا عميقا آخذا بمجامع القلب صادرا من أعماق الروح ، ملك عليّ كل وجودي فجعلني اتعثر في مشيتي وانا اخطو الى الدرج وما اكاد أرفع بصري الى باب الكعبة . وكيف لا ياخذني الخشوع والاكبار وانا اصعد الى بيت الله ، وانا اؤمن بأن الله أكبر من كل كبير في الارض وفي السماء »(٥٦) . فهو ، ان أعجزته هيبة المكان عن وصف مشاعره ، فما كان لها ان تلجئه الى مشابهته بمتاحف أوربا ومعابدها ، أو بآثار الفراعين ومحاريبهم في مصر . وأكاد أقول انه يسقط أكبر من هذه السقطة وهو يصف لنا شعوره أمام الحجرة النبوية في المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، فيصور نفسه كانه يقف في حضرة ملك يؤدي مراسم الاجلال والاكبار ، فهو ، اذ ـ يعلي شعوره بمهابة المكان على هذه الوقفة او على أختها امام قبور فراعين الماضي ـ انما يضيف كدمة جديدة على سقطته تلك . انظر اليه وهو يقول : « ... أقمت مكاني هنيهة شاخصا الى هذه الحجرة ، ماخوذ الذهن عن التفكير ، متجها بقلبي الى هذا الدليل الذي يتلو امامي ما يقتضي الموقف تلاوته حذرا ان يفوتني منه شيء ، وكانني في حضرة ملك أؤدي مراسم الاجلال والاكبار . كلا ! بل كان الموقف أكبر من حضرة ملك ، فقد لقيت ملوكا وتحدثت اليهم ، ولقيت بعضهم وما أزال في صعر الشباب ، فلم أجد للقياهم مثل هذه المهابة ولا امتلات نفسي امامهم بشيء من هذا الاكبار . ووقفت امام قبور الملوك وفراعين وبراطرة (كذا) وعظماء ، فلم اشعر بشيء من

الجلال الروحي الذي اخذ على تفكيري المسالك وانا في هذا الموقف ، واشهد لقد كنت من حيرة ما اصنع »(٦٠) . وكما يقصر هيكل عن الريحاني في هذا المجال ، فانه يقصر عنه ايضا في مجال وصف الاشخاص . ويبدو ان الدكتور هيكل لم يقصد الى وصف الاشخاص قصدا وتعمدا ، فجاء ذلك قليلا . في رحلته ، ولكان ، لو قصد الى ذلك ، وصف لنا السلطان السعودي بغير ما اشار اليه من اوصاف خارجية سريعة . ولعل افضل ما يمكن ان نسجله له من وصفه الاشخاص ، قوله في وزير المالية السعودية يومها « والشيخ عبد الله بن السليمان الحمدان رجل بدوي نجدي بكل معاني البدوية والنجدية ، نحيف القوام ومعتدله ، أسمر البشرة ، حاد النظرة ، تلمح في عينيه ذكاء وغضبا ممتزجين ، يمحو امتزاجهما في حالة سكونه ودعته الى مهابته والتفكير فيما وراء نظرته ، وهو الى ذلك حلو الحديث ، رقيق النبرة ، مبتسم اللثيا » (٦١) واين هذا من (اللوحات) النفسية والانسانية التي يعلقها الريحاني في غنى وثراء على صفحات رحلاته ؟!

وللدكتور هيكل كتاب آخر في الرحلات اسمه (ولدي) ، وهو « كتاب تذكاري لابنه المتوفى سنة ١٩٢٥ » ، وفيه يصف رحلات قام بها مع زوجه الى اوربا ، في اشهر الصيف من ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨ في محاولة للسلوى والعزاء عن ابنه المتوفى . وزار في هذه الرحلات باريس ولندن وسويسرا وميلانو والبندقية ، والاستانة ، وبعض المدن الاوربية الاخرى ، ونقل لنا كثيرا من مظاهر الحياة في هذه المدن . وقارن مقارنة طريفة بين باريس الحديثة وباريس القديمة كما كان يعهدها أيام دراسته فيها ، واستطرد الى ذكر اساتذة كلية الحقوق وحياته فيها . وتحدث عن استانبول وما بعث فيها حكم مصطفى كمال من حياة حرة قوية ، وعن جمال البلاد التي زارها وعن فنها وعلمها . وابرز ما تعرض له وصف الطبيعة والعمران فيها ، فتراه يصف وصفا حسيا بارعا مصايف سويسرا . ومن ذلك مايقوله في وصف بعض مظاهر جمال الطبيعة فيها : « ... وتلفت الى ما حولي فاذا الوديان لها قد ملأتها السحب حتى صار كل ما حولنا لجة من غمام غرقت فيها اطواد الجبال فاختفى بعضها بما عليه من نبت وزهر وشجر ، وبقيت ظهور بعضها طافية كأنما هي حيتان ضخمة تسبح في لجة السماء المذابة ركاما . وسرحت النظر التمس الافق فاذا منظر قفر ما اذكر أني رأيت مثله في سياحاتي ، وما احسب كاتبا قديرا على حسن وصفه وان هو جلت قدرته . فهذه الحيتان السابحة ، وهذه اللجج المترامية ، وهذه السماء المذابة تشتملها عند الافق ظلمة تخلط الليل بالنهار في هذه الساعة التي تتكبد فيها الشمس الافق وتعالج عبثا ان تنفذ الى الوجود وتبعث اليه آية الحرارة والنور ... »(٦٢) . وفي منظر آخر يصعد فيه القطار فوق السحاب ، يقول : « ... واذا هذه اللجة تنحدر الى اسفل منا كلما امعن القطار في صعوده ، واذا القمم تتبدى صاعدة

من خلالها ممتدة الى غاية مدى النظر حتى لكأنما غرس هذا السحاب كله قمما » .(٦٣)
وهو ، وان أجاد وصف الطبيعة في هذا الكتاب ، الا اننا لانحس لديه قوة العاطفة ومظاهر الحب اللتين نحسهما لدى الريحاني ، ولايعود ذلك الى ان الريحاني يصف ارضا وبلادا يحبها كل الحب ، ويذوب في حبها لانها بلاده ، ولايعود ذلك كذلك الى ان هيكل كان محزونا تثيره مع زوجه في هذه الرحلات ذكريات ولدهما ، وانما السبب الاهم هو الطاقة الفنية الضخمة التي يتمتع بها الامين والتي تقدره دائما على التصوير الحي المتحرك .
وقد عدمنا في رحلات هيكل الثراء الفني الذي وفره الريحاني لرحلاته من خلال تنوع اسلوبه فيها ، فقد اعتمد هيكل اسلوب سرد الاخبار والمشاهدات بحيث كاد يستولي على رحلاتـه ، ويطغى على كتابيـه طغيانا كاملا ، مـع عناية شديـدة بكل التفصيلات والجزئيات ، مما أفقد الاسلوب دفء الفن ، وحرارة العاطفة ، وابدى الكتابين كأنهما حشو زاخر بالمعلومات والمشاهدات دون ان تؤلف بينها خيوط العاطفة ، أو يجمعها روح فنان تنبثق عنه . وكذلك فقد افتقدت هذه الرحلات روح المرح والفكاهة الذي كان طابعا مميزا للامين ، واءم به بين الهزل والجد مواءمة أثمرت غذاء العقل والقلب معا . وابرز ما يسم هيكل في هذين الكتابين الحصافة والجد ، ودقة البحث ، ورصانة اللغة التي يمتلك كثيرا من اسبابها . وهذه السمات ، وان كانت ابرز في كتابه الاول ، الا ان التصوير ووصف الطبيعة ابرز في كتابه الثاني ، وان كان تصويرا ووصفا يطغى عليهما كثير من التقيد والجمـود .

واذا كان هيكل ، بسبب أو لآخر ، قد طغى عليه روح الجد ، فاخلى كتابيه من روح الفكاهة والمرح ، فاننا نجد كاتبا معاصرا له يكتب كتابا في رحلته الى الحجاز ، يملؤه بما هو معهود عنه من ظرف وقدرة على السخر والدعابة ، وهذا الكاتب هو ابراهيم عبد القادر المازني . كان قد دعي لحضور بعض الاحتفالات الملكية كممثل لاحدى الصحف المصرية . وفي كتابه عن هذه الرحلة يوقفنا على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ، ترد على قلمه كملاحظات صحفي عبر ريشته الباسمة المتفكهة على الدوام ، فهو لايستطيع التمييز بين المرأة النجدية والرجل النجدي بسبب شعره الطويل ، والبيوت في جدة والحجاز لها أبواب وسلالم كثيرة عالية (تعد من يصعدها للاشتراك في الالعاب الاولمبية).
وسلام النجديين بارد لا حرارة فيه ولا روح ، « والواحد منهم ــ أميرا كان أو غير امير ــ يمد اليك كفا مفتوحة مسترخيـة كأنها قطعة من الجبن الطري لاعظمة فيها ولا أعصاب لها ، فاذا تناولتها وقبضت عليها لم يبادلك ذلك ، بل ترك كفه لك تصنع بها ماتشاء ، ثم يسحبها في فتور وضعف ، فتخجل وتبرد الحرارة التي تناولت بها يده ، ويجمد الدم في عروقك » . (٦٤)

واذا كان الدكتور هيكل قد اعتمد الرصانة والجد في كتابيه ، فان المازني اعتمد السخر والفكاهة في رحلته حتى انه ليحول معظم اجزائها الى فكاهة محضة من خلال أحداث بسيطة وعرضية وقعت في اثناء الرحلة ، مما اخلى كتابه من روح الجد والتعمق . وهو يشبه في ظاهره السخر والتفكه الريحاني وان اختلفا في الهدف منهما ، فسخر الريحاني هادف في كل الاحيان او في جلها على الاقل كسخر فولتير او برناردشو ، بينما سخر المازني لاهدف وراءه غير الدعابة والتفكه لذاتهما في كل الاحيان او في جلها على الاقل . فهو « سائر في موكب الحياة مفتوح العين ، متوقد الحس ، فهو يرى ويلاحظ ويحس ، ومن وراء هذه المشاهدات والملاحظات والاحاسيس نفس مستخفة من كل شيء لعمق ايمانها بحكمة التوراة (باطل ابا طيل فالكل باطل) . لهذا لم يكن له هدف يرمي اليه من وراء سخريته . فهو لم يتجه الى طبقة أو مذهب بقصد الهدم أو البناء ، ولكنه يرسم صوراً ملونة ينفس بها عن نفسه مالاقاه اثناء السير في الموكب الزاخر من تدافع وتطاحن ولغوب . وعلى هذا فسخرية المازني اقرب الى الفكاهة منها الى السخرية كمذهب ».(٦٥) ولعل كتابه « رحلة الحجاز » احفل كتبه بنوادره ومداعباته(٦٦) وتقوم فكاهة المازني في هذا الكتاب في الغالب على المبالغة والتجسيم ، فهو في الازدحام يتسلل – لقصره – بين الارجل، وهو – لقصره ايضا – لايستطيع الهبوط عن درجة أحد سلالم البيوت ، فيتخذ من أحد العبيد عمودا ادميا ينحدر عليه الى الارض بسلام . وهكذا هي سخرية المازني في هذه الرحلة ، فيهامبالغةوفيهاتجسيم ، وقد يكون فيها شيء من الحدة ، ولكن ليس لها هدف الا الدعابة في ذاتها . يصور ساخرا تدخين أهل جدة للنرجيلة ، فيقول « انياشتقت ان اضطجع على واحدة من هذه الحشايا الوثيرة ، واتكيء بكوعي على حسبانة صغيرة ، وان اضع رجلا على رجل وادني خرطوم النرجيلة من شفتي وارسل الدخان الكثيف القوي كان بركانا انطلق من جوفي ، واظل بعد ذلك بضع دقائق والدخان يخرج من مسام بدني كلها كاني بيت منالخشب اندلعت في جوفه نار الحريق، كما رأيت أهل جده يصنعون»(٦٧).

ولا يقلل من قيمة رحلة المازني وعنصر فكاهته فيها ما يذكر من انه نقل او شابه (٦٨) في بعض اجزائها (مارك توين) في كتابه (The Innocents Abroad) ، فعنصر السخرية والفكاهة شيء اصيل في شخصية المازني الانسان والفنان . ولكن ما يهمنا هنا الاشارة الى مشابهته في هذه الصفة للريحاني ، وان اختلف عنه الريحاني في أن سخريته هادفة في أغلب حالاتها كما قلنا ، ثم هو يمزج بين سخريته وهزله وبين الجد في رحلاته وموضوعاتها ، على عكس المازني الذي كاد يقتصر على الفكاهة فقط في عرض مادة رحلته الخفيفة . وعلى هذا الاساس ، فان رحلات الريحاني جمعت بين دسامة الموضوع وخفة الروح في العرض ، وافتقدت رحلة المازني الجانب الاول منهما ، وان أسرف في الجانب

الثاني ، فجاء اسلوبه مستملحا ساخرا خفيفا . ويكاد يتشابه اسلوبا الريحاني والمازني في بساطة تعبيرهما وواقعيته ودقته ، وان كان اسلوب المازني اسلم في الفاظه من ناحية صراحة نسبها في العربية . ويتشابهان كذلك في المقدرة على التصوير ، ويقيمان له معارض للرسوم الفكاهية ، ولكن الريحاني اقدر على التعمق في هذه الناحية ، وان كان المازني اكثر اعتمادا عليها . وليس غريبا في الحقيقة ان يتشابه الاديبان في بعض الخصائص الاسلوبية كالاستشهاد بشيء من الادب الانكليزي احيانا ، وكاللجوء الى استعمال الجمل الاعتراضية ، والاستطراد ، فهما من ادباء العربية الذين وقفوا بوعي على بعض تراث الغرب وتفهموا بعض اتجاهاته . هذا ، ولابد من الاشارة الى مابين الاديبين من تشابه في موسيقا فنهما ، تلك الموسيقا التي ماهي الا نفحات من نفسيهما ، اضفت على ادبيهما نزعة انسانية ذات قيمة وتأثير ، تآلفت مع ما فيهما من مزاج ادبي ، فاثمرا فنا لا يخلو من وقع على النفس ، بل وأسر لها .

وهناك رحلات للدكتور طه حسين اخرجها في كتاب « رحلة الربيع والصيف » ، يذكر فيه زياراته الى اثينا وباريس وبعض المدن الاوروبية التي وقف فيها على بعض الاثار وبعض مناحي الحياة . وحتى لا نظلم الدكتور طه بمقارنته مع غيره من الرحالين ومع الريحاني بصفة خاصة ، لاسيما اذا ماخطر في البال ــ ما ليس حقا لنا ــ اقامة مثل هذه المقارنة في مجال الوصف الحسي للمشاهدات في الرحلة ، فانه لابد من الاشارة الى مايقوله هو نفسه : « ... فانا لا املك الشرط الاساسي الذي يحبب الى الناس الجبل والبحر وما فيهما من لذة بريئة . وكل ما أجده من ذلك انما هي الراحة الطبيعية التي القاها مضطرا من الهواء واختلاف الاجواء ــ فاما هذه اللذة الفنية فيجدها من يبصر الطبيعة في اشكالها المختلفة ، ومناظرها المتباينة والوانها البديعة »(٦٩) . ومن هنا فقد كان يعتمد في وصف هذه المظاهر على ما يسمعه ممن يكتنفونه من الاهل والرفاق والزوج عما تؤخذ به ابصارهم ، ويسحر عقولهم ، ويستهوي قلوبهم ، ومع ذلك يقول الدكتور طه « وكنت اسمع لهم باحدى اذني او بجزء يسير من احدى اذني ، اعرض عنهم بعقلي كله وقلبي كله وضميري كله . اتركهم لما يرون وافرغ لما أجد ، وما أكثر ماكنت اجد »(٧٠) وماذا كان يجد ؟ ان مايجده دائما في المدن وفي الرحلات هو من نوع مايجده في باريس ، « فيها أجد هذه اللذة التي قسم لي ان آخذ منها باكبر حظ ممكن ، وهي لذة العقل والشعور»(٧١). وذلك امر طبيعي وحتمي ، فلغيره ممن ليسوا في مثل حاله أن يفتتنوا بالطبيعة وجمالها او بالعمارة والتصوير والنحت او بالآثار وما يتصل بها من مصادر التاريخ ، اما هو فيعنيه قبل هذه الاشياء وان كانت تعنيه ايضا ــ حين يزور بلدا من البلاد ــ أهل هذا البلد واساليبهم في التصور والحس والشعور بالحياة بوجه عام »(٧٢) . ومن هنا كان

ينكب في باريس مثلا على قراءة صحفها ومجلاتها وكتبها ، وعلى سماع تمثيلياتها وحضور مسارحها ، وتلك هي ألذ لذاته واشهاها الى نفسه وعقله . ومن هنا ايضا نفسر استغراقه في الحديث عن غناء باريس وغنائها ، ومقارنته حياتها الادبية والفنية الخصبة مع فراغ الحياة في مصر ايامئذ (٧٢) . وبهذا أيضا نفسر انكفاءه على نفسه وعقله يستغل كل سانحة للتحليل العقلي الدقيق ، والتفكير النظري العميق حول مكانة التمثيل والفن في باريس ولدى الباريسيين ، وفي شرح بعض القصص التمثيلية ، وفي العودة الى ذكريات أيامه بالازهر وأمر بعثته الاولى وسفره الى فرنسا.وهو يعرض ذلك في قدرة فائقة على التصوير والتلوين معتمدا قوته العقلية الخارقة على التحليل والتفسير والربط . فيصف لنا الفرنسي في مصر ويبين تكلفه وعدم صراحته ، وغطرسته وتملقه النفعي اللذين يحاول اخفاءهما . ثم يصف الفرنسي في فرنسا ، اذ هو صريح ، مسرف احيانا في الصراحة ، محب للغلو في كل شيء حين يتكلم لاحين يعمل ، وهو كلف بالتناقض ، « ومن غريب الامر ان الامد بعيد جدا بين الفرنسي حين يتكلم ، والفرنسي حين يعمل ، فهو في حياته العملية معتدل ، وهو أقرب الى المحافظة منه الى التطرف حتى حين يكون من المتطرفين في المذهب السياسي . ولكنه حين يتكلم اشد الناس تطرفا ، واعظمهم اسرافا في نبذ القديم واحدهم سخطا على حياته اليومية ، وعلى عصره الذي يعيش فيه . اذا سمعت الفرنسي يتحدث عن شؤونه السياسية فستراه ساخطا اشد السخط على الحكومة والبرلمان ، مغضبا اشد الغضب ، لان شؤون الدولة تمشي على غير نظام ، ولان فرنسا تفقد مركزها الممتاز الذي كان لها بين أمم العالم . هو ساخط على الجمهورية ، وهو غير راغب في عودة النظام الامبراطوري أو الملكي ، وهو كاره للاشتراكية ، مشفق من الشيوعية ، فاذا سألته عما يريد قال لك كلاما كثيرا لا تفهم منه مايريد ، ولكنك تفهم منه انه ساخط غير مطمئن . هو ساخط فيما يقول ، ولكنه في حياته اليومية راض مطمئن ، يؤدي عمله على وجهه في تأفف متصل ، ويؤدي الضرائب في سخط على الحكومة والخزانة . « وسخطه السياسي ليس اعظم من سخطه الادبي او الفني ... »(٧٤) . وهكذا هو الاديب الكفيف ، ما أن يلوح له اي موضوع حتى يستغرق في تحليله ووصف شعوره نحوه ، فعقله ، هو الفاعل الاول والاهم في ريشته ، يغنيها وتخلده ، فهذه الزهور من ابنه الى أبويه وهو يودعهما في باريس يفتح لحسابها صفحة كاملة للحديث والمناجاة ، فيستحضر حمائم ابى العلاء وقوله لهن :

أيـــه لله دركـــن فانتـــــ ن اللواتي يحسن حفظ الوداد(٧٥)

ولايعني هذا الاستغراق في التحليل العقلي ان طه حسين لم يتناول شيئا من مظاهر الطبيعة حوله بالوصف ، فقد وصف بعض تلك المظاهر من خلال مرافقيه ، وليس لنا لذلك ان ناخذه بشيء من هذا . ولكن من اللافت للنظر ، وان كان امرا طبيعيا ، ان وصف الاصوات

من حوله يستأثر ببعض اهتمامه وعنايته ، من اصوات الناس الى اصوات الرياح وامواج البحر في حال هدوئه وهيجانه واصطخابه، والى اصوات السفينةالتي يريد وصف حركتها فلا يدركه النجاح في ذلك ، يقول فيها « تريد ان ترقص فلايتاح لها الرقص ، وانما هي حركة عنيفة مختلطة ، تميل بها الى هذا الجانب ثم الى ذاك ، وتميل بها الى امام ثم الى وراء ... » (٧٦) وهو يجد لذة غريبة في هذه الاصوات التي يسمعها ، ولذلك فهو يحيلها دائما الى القوة الفاعلة لديه ليخلق بذاته ، في نفسه ولها ، الانس واللذة والدعة يرفل فيها كيف يشاء ، يقول « نعم اجد لذة غريبة في هذه الاصوات التي اسمعها ، وربما حاول خيالي ان يلائم بينها ، ويؤلف منها موسيقا فيها قوة ، وفيها عذوبة ، ولها قدرة غريبة على ان تخلطني بها . فاذا انا جزء لايكاد ينفصل من هذه الطبيعة التي تتالف من خيالي من الموج والريح والسفينة . وربما كانت الخواطر التي تشغلني من حين الى حين قوية جذابة ، فتملأ نفسي وتملك علي قلبي وتصرفني عن كل شيء ، فلا أحس ولا أسمع ، وانما انا في تفكير مطلق طويل ، حتى اذا مضيت في هذا التفكير الى غايته احسست كاني فقدت شيئا ، واذا انا اجمع الى حسي وعقلي وشعوري ، واتخلص قليلا من هذه الخواطر التي غمرتني واتلمس العودة الى عالمي الذي أجد فيه الأنس واللذة والدعة » (٧٧) وفي الحقيقة، فان مانفقده الرحلة عند طه حسين من مقومات مهمة لايبدو آثرها في هذا الجزء الخالي بفقدها فقط،ولكنها أيضا ذات آثر في الجزء الآخر اذ تنحو به المنحى العقلي التحليلي وتفرق فيه اغراقا لاينقذه منه الا فطنة الاديب الكبير الآسره وقدرته على التصوير والتلوين،وسلامة اسلوبه العذب المتموج فيما يزخر من نغم . ومع ذلك فلابد من اشارة الى موقف وهن اوقعه فيه تطلب هذا النغم المتموج ، فكان تزاوج الجمل في بعض الاحيان تزيدا وحشوا وسقط متاع خرج عما يفيد منه اديبنا في اسلوبه عادة ، يقول في صعود احد الجنودالمصريين على ظهر السفينة وقد هدأ سعيها ووصلت الميناء ، « واذا جندي مصري في زيه واداته قد اقبل فاحتل السفينة ، وكان احتلاله رفيقا رشقا ، اختار له مكانا القى فيه نفسه القاء، واسند سلاحه فيه اسنادا ... » (٧٨) . ثم لابد من اشارة الى تلك التعميمات التيينفحها قلم الدكتور طه حسين في مواقف عديدة يحس كأنها تعفيه من حديث طويل أو وصف يجعل مثل هذه الجمل التعميمية رتاج بابه الذي يغلقه عليه ، كمثل قولـه (اقمنـا في باريس ماشاء الله ان نقيم ، وعرضنا فيها لما شاء الله ان نعرض له ، وعرض لنا فيها ماشاء الله ان يعرض لنا من الامر . أو فجلسنا ماشاء الله ان نجلس) ، ومثل ذلك يتكرر كثيرا مما يجعل القارىء يحس بانه يقفل بعض منافذ ذهنه على خواء ، او بانه ، على الاقل ، لاضرورة لمثل هذه التعميمات ، وبالرغم من هذا ، فلابد من اشارة استحسان ، ونحن نقوم اسلوب اديبنا ، الى مايخلقه هذا الاسلوب من نعيم ورفه نفسيين ليس اكثر منهما أثرا على النفس راحة وطمأنة ، نسمات الروض ولا فوح الأزاهير البرية . وله قدرة وكفاية على الاستشهاد

بالشعر العربي مما يضفي على اسلوبه من ارواح أولئك الشعراء نفح فن ، وفوح عبير . ومع كل ذلك هل اذا قارنا رحلاته هذه برحلات الريحاني نكون منصفين ؟!

واذا كنا نجد عذرا للدكتور طه حسين في رحلاته هذه ، او ان عذره يفرض نفسه علينا فرضا لتفسير اتجاهه في كتابتها أو لتبريره برغم مافيها من نفحات أدبية ، واستطرادات عقلية فيها الكثير من الغذاء الفني ، فاننا لانستطيع ان نفسر الاملال الذي وفره الكاتب الكبير (محمود تيمور) في كتابيه (ابو الهول يطير) (وشمس وليل) ، الا اذا كان مقصودا بهما كما اشار في بداية الاول منهما ان « يتفق ومشارب الطلاب والطالبات » . ومع ذلك فان كاتب القصة الكبير لم يستطع ان يفيد الفائدة المرجوة من مثله في زيارة ليست بالقصيرة الى بعض البلدان الاوروبية والى امريكا ، خصوصا وقد كانت هذه الزيارة بعد الحرب الثانية مباشرة ، فالنفوس الانسانية المرضرضة تهدها آلام الحرب ، اذ لم تكد ترفع اثقالها بعد عن بني البشر ، وآثارها لاتزال ماثلة في خرائب المدن والنفوس ، والاجواء ما زالت تئن من مرارتها وتهديدها الذي انقضى . وفي بعض اشارات خلال بعض المواقف عكس الاستاذ محمود تيمور شيئا من سوء الحال في باريس مثلا ولكن دون ان يقدر على الغوص في نفوس الناس حوله وفي اعماق حياتهم ، ففقدان السيارات ، وعودة الحوذي الى العمل ، والمراقص الخالية الا من اشباح هزيلات شواحب ، وغير ذلك من مظاهر الحياة في باريس كانت قمينة بخيال وتحليل أوفى ، وفن افعل واسمى . ويبدو كاتبنا الكبير مشدوها امام طائرتهم — ابو الهول — وهي تعبر بهم اجواز الفضاء ، وكذلك هو في احد (الكافتيريات) في نيويورك ، فيقلد احد الرواد في تصرفاته وطلباته . ولكان ذلك طريفا لو عرض في اسلوب مرح فكه ، ولكنه عرض ذلك في اسلوب يمتص ماء الحياة منه الاملال والجفوة النفسية التي لاتدري لها سببا . وليس هذا في عرضه لبعض مشاهداته وحسب ، وانما وهو يصف الجمرك بانه « تلك المؤسسة التي انشاها قوم حاقدون على البشرية ، فاتخذوها اداة تنكيل وسوط عذاب» ، وهو يصف عمل احد الضباط فيه ، فيقول «وارتفعت يد الضابط بالخاتم العظيم تضرب هنا وهنالك في مهارة حرية بالتقدير . انه ليضرب ضربا محكما كانما يسدد الطعن في ميدان القتال ، واخذ الضابط الهمام يجفف ماتفصد من جبينه في زهو المنتصر الغلاب ... الم يؤد عملا بالغ الجلالة ، عظيم الخطر ، ان ورقة تخلو من ضربة واحدة من خاتمه العظيم كفيلة ان تقضي على صاحبها التاعس بالحرمان »(٧٩) . وفي مرة اخرى يقول، « ودخلنا قاعة (الجمرك) لننال قسطا من العذاب والاعنات ، وظهرت الاختام تضرب صحائف الجوازات ، ونثرت الحقائب على الخوان ، ووقفنا امامها صفا كصف المسجونين، كل ينتظر دوره وحسابه »(٨٠) . ان وقوف الكاتب على كل التفصيلات كما هي ، بسطحيتها وجريان حوادثها جعل رحلته تزخر بالكثير من توافه الاحداث وسفاسف الامور ، وافقدته

الفرصة للوقوف والتحليل او للتحليق الفني ، فجاءت رحلته جدولا بالحركات والاعمال يخلق الملل ويدعو الى السام ، حتى أن محاولاته لتقديم بعض التصوير لم يلق فيها النجاح ، يقول في مضيفي احدى الطائرات ، « واذا بشبحي الفتاة والفتى الاميركيين في لبوسهما الرمادي يتخايلان امامي متزايلين .. انهما اقرب مايكونان شبها بكواكب «السينما الامريكية » في وسامتهما ورشاقتهما ، في شمائلهما العذاب .. أفي طائرة نحن نقصد موطن « السينما » ، أم نحن في « هليود » نفسها نشترك في تمثيل « فيلم » عظيم ؟! » (٨١) أرأيت الى هذا التصوير (البارد) والى هذه الفكرة الجامدة التي لا تناسب حتى المشارب الفنية للطلاب والطالبات ؟! ومثل ذلك قوله في احدى السيارات « وكانت حقا سيارة فخمة انيقة ، راحت تعدو في ــ الشارع الخاص ــ عدو النمر الجسور في فلاة جرداء» (٨٢) ولربما كان حرص الاستاذ تيمور على ذكر كل تفصيلات رحلته هو السبب في تسطح معانيه وقرب افكاره . ورحلته بالفعل اقرب ماتكون نموذجا للانشاء يحتذيه الطلاب والطالبات في كتاباتهم ، ولا يستبعد ان يكون السبب الذي جره الى الحرص على الاتيان بكل التفصيلات خضوعه لمنهج المذكرات اليومية ، فقد دون في بداية كل مجموعة من هذه الاحداث والتفصيلات تاريخ يوم معين سجلها تحته . وهذا المنهج الذي قد يكون السبب في افساد كتابة الرحلة لم يتبعه الاستاذ تيمور في رحلته الاخرى الى بلاد السويد والنرويج الا في آخر جزء منها « ثمانية ايام في قطار الشمس » . واذا كان تيمور قد لحق به الهزال في « ابو الهول يطير » ؛ فاننا نراه يسترد بعض عافيته وصحته في « شمس وليل » ضمن المجال الذي قصر عليه كتابته في الغالب ، اعني مجال وصف الطبيعة والحديث عنها في تلك البلاد الجميلة ، حيث لا يكاد يتحدث عن موضوعات اخرى الى جانب الطبيعة الا نادرا ودون اهتمام . حتى حديثه عن طبيعة هذه البلاد ينقصه فيه الكثير من الانفعال ، فتحس فيه في كثير من أجزائه بشيء من الفتور ليس بالقليل . ولو اردنا الوقوف على وصفه لمدينة (استكهولم) عاصمة السويد لما استطعنا ان نخرج بصورة واضحة لها في الذهن ، فحديثه غير محدد وغير متكامل ، وانما هو شمولي بشكل لا يكاد يعطي حتى ملامح ثابتة للمدينة التي يحدثنا عنها في قوله ، « يسير عليك ان تلم بصورة واضحة لمدينة (استكهلم) متى رسمت في مخيلتك صورة لخلجان متناثرة ، ينساب فيها ماء رقراق ، وهي تجوس خلال جزر صغار رافلة في وشي اخضر ناضر .

« تقول الحكمة العربية المأثورة : ثلاثة يذهبن الحزن ، الماء والخضرة والوجه الحسن .. وهذه المعالم الثلاثة هي طابع ذلك البلد الطيب ، فحيثما ترجع البصر تطالعك تلك المفاتن،

وتشهد كيف يتألف مزاج من جمال الكون تعاونت عليه فطرة الطبيعة وصنعة الانسان !.. « ليست مدينة « استكلهم » عاصمة السويد كشان تلك العواصم التي تختنق بابنية تتطاول ، وطرق تتزاحم ، وانما هي معرض رائع من متنزهات متصل بعضها ببعض ، وما انتقالك بين هذه المتنزهات الا تطواف بارجاء المدينة ذات الطول والعرض ! ... ما اكثر الجزر هنا وما أجملها ! ... »(٨٣) .

ونستطيع ان نقول ان مُعظم أوصافه لا تقوى على تقديم الصورة الواضحة المحددة المعالم لموصوفاته ، فهو ، على عكس ما كان مفروضا فيه ، لاسيما وقد قصر هذه الرحلة على وصف الطبيعة هناك بشكل عام ، لا يقف عند موصوفاته وقفات طويلات ، ولا حتى عند بعض اجزائها ليعرض علينا شيئا من تفاصيلها وملامحها الدقيقة ، فجاءت اوصافه متسرعة وسطحية ،وكتاباته عنها خاطفة اعتمد فيها الوصف العام الشامل غير المحدد ، فمتحف الهواء الطلق لم يصفه ولم يعرفنا عليه الا في عجالة سريعة ، وكان يقتضي منه وقوفا مستانيا لاسيما وهو يمثل كما يقول مجموعات من قرى وحدائق وغابات حافلة بالاناس وصنوف الحيوان . وكذلك كان وصفه (لقصر الغرام) وللمدافن في احدى الضواحي وقد استوفت حظها من هذا الروض المعطر وكم كانت خليقة هذه المدافن التي تحولت الى رياض غناء بما فيها من أشجار وريحان بان تستثير في الاديب القصاص كثيرا من الانفعالات الانسانية تتاتى عن أحداث الفرد واحزانه وافراحه ولا يكتفي بذلك المرور المتسرع عليها (٨٤) وكم كنا نود أن يقف وقفات مشابهة لتلك التي وقفها عند بعض التماثيل في متحف الامير أوجين (٨٥) ، فيزيد من تلك النظرات الخاصة ويجتمع له بالتالي رصيد من لوحات الطبيعة الحية الباهرة ، ولكن ذلك نادر عنده ، ونادر جدا .

والاستاذ محمود تيمور يزور في هذه الرحلة بلادا يطول فيها النهار جدا ويقصر فيها الليل جدا حتى ليكاد يتلاشى او يذوب ببساطة في نهار دائم (فهو يصل الى منطقة قطبية تبدو فيها الشمس في منتصف الليل) ، وهذه ظواهر في الطبيعة مثيرة للخيال الفني ، وذات تاثير كبير على سكان البلاد في الاصل ، وان اعتادوها ، فلابد من عادات يومية يعتادونها في حياتهم تمشيا مع هذه الطبيعة عندهم ، ولكنه ، مع ذلك ، لايرقى بهذه المشاهدات الغريبة حقا الى مستوى دمجها في الحياة والانفعال العملي بها ، فلايبين كيف يعيش الناس في هذه المنطقة في نهار يكاد يكون عليهم سرمدا ، وكان جديرا بذهن القصاص ان يتفتق عن ضروب وضروب من الخيال والمواقف الانسانية ، دون ان يكتفي بوصف سطح الفضاء هناك ، حتى وان قرب من الاجادة الى حد ما (٨٦) . اما ليل تلك المناطق القصير فلا يزيد على مخاطبته خطابا فيه شيء من الشاعرية الجوفاء ، ومقارنته ببعض اطراف من ليل الشرق المتيد ،

وان كان في ذلك بعض لفتات فنية ولكنها عجلى ، وليست بذات جذور تغذي فيها خصبافي الفكر ونماء حيا في الخيال . ويبدو ان الاستاذ تيمور كان يكفيه ذكر الخبر الذي يريده فلا يعرف كيف نغوص في حناياه ولايستشف منه شيئا ، فغادتا الزورق البخاري اللتان قادتاه الى جزيرة الاحلام لم يكد يذكر عنهما شيئا ذا بال ، وهما رفيقتا سفر على أية حال . واين ما أورده عنهما من وصف خارجي بسيط ، مما ذكره الريحاني عن رفاق أسفاره الطويلة او القصيرة !! وثمة لفتة احسن بها تيمور الاشارة ، تلك التي قارن فيها بين بواب دار المفوضية المصرية في استكهلم وبين بوابي العمارات في مصر ، فبعد ان أشار الى نظام الابواب وفتحها واغلاقها في تلك الدار ذكر بوابها ومايحتوشه من غموض وخفاء ، فما هو الاطيف من الاطياف في عالم مسحور ، يمارس سلطته في انفة وترفع ، فهو على اريكته مطمئن وراء الحوائط والجدران ، تنتقل انامله بين الازرار حواليه فما اسرع ان تلين له مغاليق الابواب . اما البواب في بلدنا العزيز فانه « يقضي الساعات الطوال مختشبا على عرشه الخشبي ، لا هو روح ولا هو طيف ، ولكن كومة متجسمة تملأ الابصار ، وانه ليجلس في لمة من عشيرته واقرانه ، كانهم في ندوة انيسة ، يترشفون الشاي ، ويتطارحون النقاش ، ويسترسلون في مفاكهات واضاحيك ، ثم يقبلون اخر الامر على كتاب « دلائل الخيرات » يجهرون بقراءة اوراده في تخشع وابتهال ! ...

« ان بوابنا في مصر يبدو للانظار قبل ان يبدو المبنى الذي يقوم على حراسته ، بل ان المبنى ليتضاءل ويتزايل خلف جرم البواب في تنفخه وتشمخه » (٨٧) .

واذا صرفنا النظر مؤقتا عن هذا الطابع العام الذي طبع رحلتي الاستاذ تيمور ، طابع قصر النفس في الوصف وتعجل المشاهد والاصرار على سرد تفصيلات الرحلة في اسلوب اخباري لايكاد يخرج عنه ، مما اورث ذلك الملل وثبت روحه في كتابيه ، فاننا لابد ان نشير ايضا الى انه من الممكن ان يكون للمذهب الواقعي الذي اخذ به فنه القصصي اثره في فرض هذا الاتجاه عليه . وكذلك فانه لابد من ان نشير الى أسلوبه البسيط الخالي من المبالغات والاغراق ، المهتم بمحاولة تصوير الواقع وتمثيله في بساطة . ورحلاته ، برغم اسلوبه وصحة لغته لاترقى الى مستوى مقارنتها برحلات الريحاني ، لافي منهجها ولا في موضوعاتها ، ولا حتى في أسلوبها ، اذ ان تيمورا الرحالة ادنى بكثير من تيمور القصاص الناجح ، بل وأبي القصة العربية الحديثة .

ولعل اكثر كتاب الرحلة العرب المعاصرين شبها بالريحاني هو الدكتور حسين فوزي . وهو كما يبدو على درجة عالية من الثقافة المتنوعة في بعض نواحي العلم والطب وفي الموسيقا والتاريخ . ويجمع هذه الثقافات كلها مزاج ادبي وذوق فنان ، صقلهما فيه اتصاله المباشر بالثقافة الغربية وبالحياة الاوروبية بضع سنوات عاشها في بعض البلدان الاوربية . واهم ما كتبه في الرحلات كتابان : سندباد عصري ، وسندباد الى الغرب . ويجمع في الكتاب الاول كثيرا من ملاحظاته وانطباعاته عن حياة بعض الشعوب واساطيرها ، ووصفا لكثير من مشاهداته الطبيعية ولحياته على ظهر احدى سفن الابحاث المصرية مدة تسعة أشهر ، قام خلالها ضمن بعثة علمية بجولات في المحيط الهندي ، زار فيها كثيرا من الجزر والبلدان . أما كتابه الآخر « سندباد الى الغرب » ، فيذكر فيه زيارة له قام بها في اعقاب الحرب العالمية الثانية الى باريس ولندن بصورة خاصة ، وفيه كذلك سياحات فكرية في اعماق التاريخ وفي عالم الموسيقا . ومن الجدير بالذكر ان نشير الى ما يذكره من مذكرات رحلته الاولى الى باريس وبعض المدن الاوربية والافريقية خلال بعثته الاولى من ١٩٢٥ ـ ١٩٣١ ، ضمن ما يورده من ملامح عن حياته في كتاب (سندباد في رحلة الحياة) ، حيث كانت رحلته تلك التي عبر فيها بحرا ، ولاول مرة ، من الاسكندرية الى مرسيليا « اعجب واجمل واعمق الرحلات اثرا » في نفسه .

ومن الحق ان نقول ان الدكتور حسين فوزي يرتفع في مستوى ماكتبه عن رحلاته في مجملها عن كل من ذكرناهم من الرحالين المعاصرين ، ولكنه لا يصل في مستواها الاجمالي عمقا وشمولا ودقة ملاحظة الى مستوى أمين الريحاني في رحلاته ، فهو يقف وسطا بينه وبينهم ، وان كان الى الريحاني أميل ، اذ يكاد يشبهه في بساطة اسلوبه وخفة روحه وتناوله بعض المنظورات بالوصف ، ولكنه يبقى دونه في غالب الاحيان ، في نفاذ النظر ، وعمق التحليل والانفعال العاطفي ووضوح المزاج الادبي الروح الشاعري . ولاشك ان لشخصية كل منهما ، وقد يكون لاهداف رحلاته ايضا ، اثرا كبيرا في ذلك . مع هذا ، فنحن قادرون على استيحاء روح الريحاني في بعض جوانب كتابات الدكتور حسين فوزي ، لكاننا ، وهو يحدثنا عن فرنسا وباريس واثر الحرب الثانية عليها ، نستمع الى الريحاني يتحدث عن اثر الحرب على مدينة الحديدة أو مدينة مدريد ، « توقعت أن ارى فرنسا غافلة عن أمسها الذليل في ظل الصليب المعقوف لتنسج لنفسها لبوسا من البطولة الزائفة والجعجعة الفارغة . فوجدت الفرنسيين يواجهون الحقائق الرتبشجاعة ، ويعترفون في احاديثهم وحياتهم

بسنوات الضعة والانكسار . لهم في ذلك قولة مشهورة : سنوات الاحتلال هي ايضا من تاريخ فرنسا العريق ، وفي هذا التاريخ صفحات المجد والذلة والفخار والانحدار ... توقعت ان ارى فرنسا مهدمة فقيرة قذرة تقتحمها العين، فرأيت شعبا جريحا يضمد جراحه، انيقا يرتق ثيابه ، نشيطا الى البناء ، متحفزا الى النهوض من كبوته ، اكثر ما يكره الوقوف بالاطلال والبكاء على الدمن »(٨٨) . وفي باريس يقول ، « بدت باريس لعيني اول ما بدت كسيرة النفس ، مجروحة العزة ، مقروحة الكبرياء . اختفت ابتسامة بناتها ذوات العيون الضاحكة والقدود الهيفاء ، وخفتت حركة ابنائها الطريين لايحملون هما ... كيف تعود الى هذا الشعب المعذب ضحكاته ؟ ومتى ينسى همومه، والحاضر محتفظ بقسوة الماضي المادية ، وان انقشعت عنه الغمة الروحية ؟ هذه ايامي الاولى في باريس ، شبح حزين بين الاشباح الحزينة . ثم بدأت اتجسد وتتجسد الاشباح ، او هي الغشاوة ارتفعت عن عيني بتاثير الجمال وحده ، فبدأت باريس تحيا ، قامت الاميرة النائمة وقد فك عنها عقال الساحر المشؤوم .

« حركت ذراعيها البيضاوين ونشرت شعرها الذهبي ، اشعة الشمس تتجاوب بين قباب الانفاليد والفال دي جراس ... واذا هي باريس تتلقى عشاقها وتشير اليهم انظروني الى غد ، ان كنتم تستطيعون صبرا ، والا فهاكم صفحات تاريخي صفحة صفحة تتلهون بها عن حاضري ، وما غدي الا صورة من امسي ...

« ...دخلت المعارض وقاعات الصور والمسارح ، وارتدت المكاتب العامة وبيوت النشر ، والمعامل ودور الحكم ، وطالعت وراء سطور الصحف السياسية والادبية والفنية ، فاذا الشعوب لا تعيش بالخبز والزبد وحدهما ، ولا تموت بالحديد والنار فحسب ...

« هذه هي فرنسا اليوم وأمس ... وغدا . وبغير هذا لا تكون فرنسا . ومن يريد فرنسا غير هذا فهو لايعرف روح شعب حي بكل معنى الحياة . حياته في خلافاته ومنازعاته وتقلباته، لا تتحد كلمته الا على مبدأ واحد لا شريك له : الفكر الحر »(٨٩) .

حقا ان مثل هذه الوقفات التحليلية ليست كثيرة لدى رحالتنا (السندباد البحري) ، ولكنها تذكرنا بكثير من مثيلاتها روحا واسلوبا لدى امين الريحاني (السندباد البري) في رحلات الجزيرة والبلاد العربية ، يذكرنا بذلك موقفه في باريس وكذلك موقفه في لندن

ومحاولته تعمق النفسية الانكليزية اذ يقول « ... واخيرا هذه هي لوندره ، بحدائقها السندسية البهيجة ، وابنيتها السوداء القبيحة ، وازدحامها المرهق واتوبوساتها الفرحة بلونها الاحمر ، الشامخة بطابقيها ، وحركة المرور المعكوسة المقلقة باتجاهها الى يسار الطريق بدل يمينه ، وبوليسها ذي القبعات الناقوسية الكحلية ... ولم افهم ساعة بين اهلها حتى اعتدت ذلك الهدوء البارد ، وشعور (عدم المبالاة بالاخرين) ، والحدود الموضوعة للسلوك في البيع والشراء والاتصال بالناس .

« ها هم الانجليز بوجوههم التي لا تنم عن شعور ، الا ان يكون شعور من يشكو الامساك المستعصي ، ولكن النساء اكثر اناقة وعناية بجمالهن ، وربما كن اشد صلفا واعتدادا ، بينما يبدو رجالهم اشد تعبا وانهاكا . نبذوا القبعات السوداء المستديرة التي يسميها الفرنسيون (السنطاوي) والتي كانت مصدر عجبي عندما زرت لوندرة لاول مرة سنة ١٩٢٧ ، فلم اك اتصور شعبا باكمله يقلب على راسه هذه الآنية المضحكة التي عرفتها اول معرفتي لها على راس شارلي شابلن ابن السبيل المهلهل الانيق »(٩٠) .

وفي كتابه « سندباد عصري » يذكر لنا صاحبه بعض بعض رفاق سفره الساذجين على سفينة الابحاث ، ولكنه لم يستطع ان يتعمق نفسياتهم كما تمكن الريحاني مع رفاق سفره الذين لقوا منه دراسة اعمق واهتماما اعم واشمل . وكان لدى الدكتور حسين فوزي شخصيات بسيطة كالريس احمد وعبد الغني وعلي حمد ، وهي لا تقل سذاجة وبساطة عن محبوب والاخ حنا وغيرهما من شخصيات الامين ، ولكنها ، برغم ما اختصها به من بحث ، لم تجد القدر الكافي من التعمق والتحليل ، وان تمكن من ان يجعل منها شخوصا فنية لاحاديثه السريعة حولها . ويمكننا ان نلحظ تشابها بين الحالتين في موقفهما من المراة في هذه الرحلات ، ولو ان احدهما كان منقطعا في فيافي الصحراء ، لا يقع بصره عندما يقدر له ان يرى انثى الا على بدوية او جمع من اخواتها ، بينما الآخر منقطع في بيداء المحيط هاج نفسه رؤيته الانكليزيات في مستعمرة كينيا بافريقيا ، حيث لم يكن قد رآهن في مكان آخر من الارض بمثل هـذه الرقة والطراوة والانوثة والنعومة ، فهذه النعوت المتشابهة المشتقة واحدها من الآخر لم توضع كما يرى عبثا ، اذ يرى لاول مرة كيف يؤثر المناخ في الطبائع والاجسام . واكثر ما اثر فيه تلك السيدة ذات العشرين ربيعا ، في مظهرها اليافع الرقيق كانها تخرجت أمس من معهد عال للبنات ، وقد اسماها « غادة ممباسا » ، وفيها يقول : « وكانت تلبس فستان سبور اخضر اللون محبوك التفصيل

جمالها بيننا كان روح الزمرد استحالت امرأة فكانت هي ... وكانت نظراتنا تمعن في توريد وجناتها المفعمة عافية تبعا للحياة الجبلية التي تحياها ، وكانت روحها ترفرف سرورا ، وكان ارواحنا الوامقة قد عقدت الخناصر حول روحها تدللها . وزاد من دلالها شعورها بفعل شبابها وجمالها فينا ، فكانت كالحجر الكريم يزيده الاجتلاء ابراقا ، وكثرة الانوار اشراقا »(٩١) . اننا نقرأ في هذا النص روح الريحاني واسلوبه ، ونحس فيه انفاسه اما ظرفه وفكاهته ، فان الدكتور حسين فوزي يسم بها اسلوبه بين آن وآخر ، وان لم يصل بهما ، مثله في ذلك مثل الريحاني ، ما وصله المازني من اغراق واستهداف ، يقول في سفينتهم التي عبرت بهم المحيط : « كانت باخرتنا العلمية نوعا من سفينة نوح . غير انها لم تحو من الانسان غير الذكور ، اما من الصراصير والفيران والهوام فقد يكفي ان ترى تزايد عددها يوما عن يوم لتعلم انها لم تجيء الى مركبنا خالصة لوجه الكشف العلمي مثلنا متجردة متبتلة ولو الى حين »(٩٢) .

وفي كتابه الآخر يلقانا بحديثه عن رجال الجمارك بمطار (هيث رو) البريطاني ، فيقول : « ... يتلقاك رجال البوليس والجمارك بالنظرات المعهودة في كل زمان ومكان ، نظرات عابسة صارمة ، كلها تشكك في امانتك ، وتجهم لقدومك ، فانت فم ومعدة وشهية تضاف الى الملايين من اشباهك في بلاد لا تفي بحاجة سكانها . ثم انك لابد تحمل في طيات ثيابك الذهب والجوهر والنشرات والقنابل ، فاذا عرف الموظفون بهويتك وبما في حقائبك من هدايا غذائية لاصحابك في انكلترا ابتسموا فيما يشبه الاعتذار وتمنوا لك سفرا طيبا »(٩٣) .

هذا وبرغم هذه المشابه بين الريحاني وحسين فوزي في رحلاتهما ، فانه يمكن القول انها عند الريحاني أغنى وأوفر ، كانها الاصل لصورة توفرت عند الآخر فيها بعض ملامح الاصل واشباحه وقد بهت اللون في بعضها فلم تجيء بالخصوبة نفسها والايناع والنضارة . ويصدق هذا الكلام ايضا على الاهتمام بناحية الحياة الاجتماعية التي لاقت اهتماما اكبر عند الريحاني ، ابن الحياة القربية ومحب بني قومه العرب ، على عكس الدكتور حسين فوزي ، ابن مصر ، ومحب الحياة الغربية ، اذ هو القائل : « درجت على حب الغرب ، والاعجاب بحضارة الغرب ، وقضيت أهم ادوار التكوين من عمري في اوربا فتمكنت أواصر حبي ، وتقوت دعائم اعجابي . فلما ذهبت الى الشرق ، وعدت الى بلادي ، وقد استحال الحب والاعجاب ايمانا بكل ما هو غربي»(٩٤) . اما من حيث اسلوب التعبير ، فيمكن

الاشارة الى ما بين اسلوبيهما من تشابه من ناحية البساطة وعدم التحرج من استعمال الالفاظ الدارجة احيانا ، وان كان اسلوب الريحاني اكثر تنوعا ومزجا بين مختلف الاساليب ، واكثر اعتمادا على الاسلوب القصصي بصورة واضحة .

وبعد هذا الذي عرضناه من نماذج ادب الرحلة لبعض الادباء المعاصرين ، ومقابلة ذلك كله بما كتبه الريحاني في رحلاته ومقارنته به ، يمكننا ان نقول انه « قلما دوّن الامين شيئا ولم يكن للنقد الصحيح يد فيه ، فالواقع الذي يسجله غير واقع الاقدمين من الرحالة ، فهو يتجاوز به حدود الفرجة والدهشة والاستغراب الى جوهر القضايا عن طريق الامانة والعمق وبالاستناد الى التجرد عن الهوى والهوس ، وبالتزام الفكرة التي من اجلها كتب وجاهد ، فالهاجس الذي ساد فكره سيطر على انشائه بوجه عام ، فكيفما سرت معه ، صعبتك محاولته في سبيل توحيد الشعب العربي ، والنهوض به من جمود مقوماته الى حرارة العافية والكرامة ... ومما لا شك فيه ان ثقافة الريحاني ميزته عن سابقيه من كتاب الرحلات ، فهو الى الموهبة والاصالة وقوة الشخصية يجمع سعة الاطلاع وفقه الحركات الفكرية »(٩٥) . وهو ، وان شاركه الرحالة المعاصرون او بعضهم على الاقل ، في تنوع الثقافة وسعة الاطلاع وفي الموهبة الادبية واصالة الذوق الفني ، وكان لكل منهم فضل في منحى من مناحي الادب ، بل وكان بعضهم راسا في فن ما ، الا انه تميز عنهم جميعا بشخصية فريدة التقى فيها عناصرها ومقوماتها من ارفع مستوى واعلى طراز ، فصاحبها واقعي مثالي ، ذو نزعة علمية موضوعية ، وذو ذوق فني وموهبة ادبية شاعرة تنتمي الى الاصالة بكل الاساليب ، وهو مادي علمي وروحاني يكاد يبلغ حد التصوف ، جمع بين روحانية الشرق وفلسفاته من نحو ، وبين مادية الغرب وحركاته ومناهجه الفكرية من نحو آخر . ومن هذا المزيج الفاعل خلقت شخصية الريحاني وفكره وقلمه ، وانطبعت كلها في ادب الرحلة لديه ، وقد تفرغ له او كاد في فترة الخصب والنضج من حياته ، فجاءت كتبه في الرحلات ، على سعتها ، معرض حضارة حقيقية : ادبا وفنا وحياة . ولقد تمددت لديه صورة الحياة الانسانية نماء وثراء ، اذ دعا وعمل على توثيق الصلة بالحياة والمجتمع ، فجاء ادبه موصولا بهما ، اشبه ما يكون بصلة الرضيع مع امه ، لا لذة له الا بامتصاص درها السخي ، فالطبيعة ، وابنها وسيدها الانسان ، ونفسه الانسانية ، كانت كلها مصادر الوحي والالهام ، ومنابع الفيض العقلي والفني لدى الريحاني ، فصدر في ذلك كله عن عقل المفكر ، ووجدان الاديب ، وقلب الانسان دون ان يحد من هذه المنابع او

يفيض من دفقها الانساني قصره رحلاته وادبها على الحياة اللبنانية والعربية في زمانه بكل ابعادها وصورها ، فقد ظل في هذا الادب الريحاني اللبناني العربي الانسان دون ان يتنكب عن جادة الفلسفة والمحبة والاخاء . وهو ، وان لم ينجح في منهجه الاصلاحي بخيره العميم ، وان لم يباشر بتطبيقه في زمانه ، انه بشر به ودعا اليه ، ولو كان نفذ كما اراده من ايامه لكانت حالنا على غير ماهي عليه اليوم . وهو ، في تبنيه لدعوته الاصلاحية ، وفي مزاوجته بين حضارتي الشرق والغرب ، يخالف رحالينا المحدثين الذين رأوا في حياة اوربا وحضارتها مثلهم العليا فاثرت في عقولهم وتفكيرهم دون تمحيص .

هذا من حيث الموضوع ، اما من حيث المنهج والاسلوب فان وصف الريحاني وكتبه لا تضجر ولا تدعو الى الاملال كما في بعض كتب الرحلات الاخرى ، بل على العكس ، فهي مدعاة للحيوية والنشاط بسبب ما زاوج فيها بين مختلف الاساليب ، وزانها بالحكمة والفلسفة، وطرزها ، في رشاقة وكياسة ، بالظروف والدعابة والمرح والفكاهة ، فنفى عن قارئه الضجر والسأمة ، شرك الرحالين السابقين اللاحقين في معظم كتاباتهم ، اذ هم يعنون اكثر ما يعنون بوصف كل دقيقة يمرون بها ، وبسرد كل تفصيلات الحوادث ، مما يجعل كتاباتهم وصفا مسهبا لكل خطوة يخطونها ولكل مشهد يرونه دون وقوف خاص عند بعضها كما قد تقضي الحال . وقد خالف الريحاني هذا المنهج ، فكان يجمع ما يتناسب من مدوناته ومذكراته ومشاعره في كل مرحلة من مراحل رحلته تحت مباحث خاصة بها ، فيأتي ذلك كله كأنه نتائج كلية شاملة ، تعفي القارىء ، الا في بعض المناسبات من مرافقـة الرحالـة في تفصيلات رحلته والوقوف على كل الجزئيات فيها . وعلى الاغلب فان لعامل البطء والتأني في رحلات الامين ـ حيث كانت في معظمها سيرا على الاقدام او ركوبا على الدواب والجمال ـ اثرا في توفير ما وفره لرحلاته من ملامح العمق الفكري والوجداني ، وعروق التجارب الانسانية والوجدانية ، مما يميزه من الرحالين الآخرين . وهي ميزة تضاف الى ميزة اخرى له ، اعني بها ما يتمتع به من روح الشاعر الفنان الذي يفيض قلبه دائما بما يمتلىء به من اعمق الاحاسيس . وشاعرية الريحاني في الحقيقة روح حساسة تسري بين كلماته وخواطره وتاملاته فتبعث دفء الحياة في تصاويره ، فتدب فيها حركة منمنمة باعثة على ازدهار التفكير ، وازدهار المشاعر وايناعهما . وقد افاد الريحاني من هاتين الميزتين أحسن فائدة ، واستغلهما انفع استغلال ، فغذى بهما أدب رحلاته من زاد عقله الدسم ، ونفحه من روح وجدانه الفنان شفافية وشاعرية اصيلة . وبسبب ما توفر للامين من صدق

الانفعال والتاثير في رحلاته ، اذ كتبها بروح الفنان الوطني والانساني معا ، وهو في ذلك يختلف ايضا عن كل الرحالين الاخرين في كثير من مواقفهم ، فقد اثر ذلك في اسلوبه في التعبير ، فجاءت مادة هذا الاسلوب من نفس صاحبه لا من القاموس ، مما وفر له الابداع والتماسك والمرونة والتاثير الفاعل على الدوام ؛ فموضوعاته لا يزول اثرها على الايام ، ولا تبوخ فيها الحياة مهما تقادم عليها الزمن ، فقد عرف صاحبها كيف يربط الحادثة العابرة الى جذر الشمول الدائم ، متناهيا بذلك الى هدف حفظ أدبه متحليا بطابع زمانه وكل زمان ، حيث يكمن فيه سر البقاء . فمع ان شخصياته شخصيات حقيقية عاشت معه في المجتمع ، ودبت باقدامها على الدرب نفسه الذي دب عليه باقدامه هو نفسه ، وليست كشخصيات معظم القصص ، فنية وخيالية ، الا أنه تمكن بفنه من أن يخلدها كما خلد هذا الادب ، وخلد نفسه به ومعه . وأدب الرحلات يجسم حقا عبقرية الريحاني ومواهبه ، ويجسدها بصورة سامية بين الادباء العرب على مر العصور ، ففيه خلع على الحياة حلل الفن الزاهية ، كما خلع على الفن حلل الحياة الموشاة الناضرة ، وفيه ايضا (خلع على جفاف التاريخ نداوة لاتمطر الا على أيدي الادباء الاصليين) .وهو بهذا يمكن ان يعد راسا في هذا الفن الادبي ، وبه « سيحيا في آدابنا وصافا ورحالة قبل أن يحيا مصلحا اجتماعيا وسياسيا او شاعرا او قصاصا ، فهو في رحلاته عين صافية تصور لك اهم مانقع عليه من امور في أدق الوانها وظلالها ـ وهو الى ذلك فكر ثاقب يجيد تنظيم ماتصوره عينه وتنسيقه وعرضه في اطارات تتناسب ومعانيه والوانه ، ثم انه يستعين في كل ذلك بما أوتيه من شعور الشاعر وذوق الفنان ، واتزان الناقد وسخرية الساخر »(٩٦) ومن هنا فلن تتجاوزه الايام كاديب رحلات ، اذ تطور هذا الادب على يديه بصورة تجعله فيه مبتكرا أصيلا ، فلم يقلد فيه ، ولم يسر على خطوات سابقيه ، وان افاد منهم بان تجنب عيوبهم في المنهج ، وعللهم في الاسلوب ، فقد قرأ لهم بعض رحلاته ، ولكنه وهو الداعي الى التجديد ونبذ الجمود والتقليد « افتتح عهد التجوالات الرحبة النفس والجامعة بين المتعة والدراسة المسؤولة » ، (٩٧) وبذلك تفوق ايما تفوق على كل سابقيه ، ولم يقدر على بلوغ شاوه واحد من لاحقيه ، فحق له ، والحال هذه ، أن يحوز لقب «استاذ أدب الرحلة » دون ان ينازعه احد من ادباء العربية حتى اليوم ، فهو فيه إمام ترنو اليه الابصار ، وتشرئب الاعناق .

ولعل هذه الدراسة ، على مافيها من قصور ، تستطيع أن تظهر جانبا من أدبنا بما يستحقه فان اصابت فبها ونعمت ، والا فيكفيها اجر واحد او نصف اجر .

حسني محمود حسين ـ الاردن

الهوامش

(١) ولد امين الريحاني في قرية (الفريكة) بلبنان سنة ١٨٧٦ وتوفي فيها سنة ١٩٤٠ .

(٢) انظر كتابه (المغرب الاقصى) ـ التوطئة ، بقلم اخيه البرت الريحاني : صفحة ٥ .

(٣) مجموعة الريحاني في ادب الرحلة :

١ ـ ملوك العرب (جزءان)

٢ ـ تاريخ نجد الحديث

وفيها دون رحلاته في الجزيرة العربية ، وجزءا من رحلته الى العراق . وقد وزع الريحاني اكثر اجزاء هذه الرحلات مضافا اليها بعض زيادات اخرى في ثلاثة مجلدات كبيرة نشرها بالانكليزية في لندن ونيويورك ، وهذه المجلدات هي :

1 — Ibn Sa'oud of Arabia - HIs People and His Land
2 — Around THE Coasts of Arabia
3 — Arabian Peak and Desert

٣ ـ قلب العراق .

٤ ـ فيصل الاول . وفيها دون رحلاته الى العراق .

٥ ـ المغرب الاقصى .

٦ ـ قلب لبنـان .

(٤) للاطلاع على نماذج من الرحلات العربية ، انظر كتيبا لنا بعنوان « أدب الرحلة عند العرب » نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة . ١٩٧٦ ، سلسلة « المكتبة الثقافية » رقم ٣٣٥ .

(٥) لمزيد من التعرف على رحلات أمين الريحاني ، انظر بالاضافة الى كتبه ، كتابا لنا بعنوان « أمين الريحاني وأدبه في الرحلـة » سيصدر قريبا . ولمعرفة خصائص اسلوب الامين في الوصف ، انظر بحثين لنا في :

ـ مجلة العربي العدد ١٦٠ ـ آذار ١٩٧٢ (الكويت) صفحة ٢٥ .

ـ مجلة البيان العدد ٧٣ ـ نيسان ١٩٧٢ (الكويت) صفحة ٥٣ .

(٦) اغناطيوس كراتشكوفسكي – مقدمة كتاب (الريحانيات) المترجم الى الروسية ، وهي منشورة بالعربية في ذيل كتاب الريحاني « التطرف والاصلاح » ، الطبعة الثالثة – دار ريحاني ، بيروت ١٩٥٠ : صفحة ٨٦ .

(٧) امين الريحاني – الريحانيات ج٢ (الطبعة الثالثة – دار ريحاني للطباعة والنشر – ١٩٥٦) : صفحة ٨ – ٩ .

(٨) مقدمة كراتشكوفسكي المشار اليها ، في ذيل كتاب « التطرف والاصلاح » : صفحة ٧٥

(٩) انظر كتاب « رسائل أمين الريحاني » (دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٥٩) : صفحة ٤٠٤ .

(١٠) أمين الريحاني بعد ربع قرن (كتاب ذكراه الخامسة والعشرين) – مجموعة مقالات . دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٦٥) : ٦٤ – ٦٥ .

(١١) محمد رضا الشبيبي : مقدمة كتاب « قلب العراق » ط٢ (دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٥٧) : ٩ .

(١٢) د . جميل جبر – أمين الريحاني ، سيرته وأدبه (المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت) : ١٥١ .

(١٣) د. سامي الكيالي – أمين الريحاني – نشأته ، دراسته ، ملامح من حياته وكتبه (طبعة معهد الدراسات العربية العالية – القاهرة ١٩٦٠) : ٢٠٣ .

(١٤) انظر تاريخ نجد الحديث (الطبعة الثالثة ، دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٦٤) : ١٢٤ – ١٢٦ .

(١٥) المرجع السابق : هامش صفحة ٢٨٨ .

(١٦) المرجع السابق : ٢٨٩ .

(١٧) المرجع السابق : ٢٨٩ – ٢٩٠ .

(١٨) المرجع السابق : ٢٩٣ .

(١٩) المرجع السابق : ٢٩٤ .

(٢٠) المغرب الاقصى (دار المعارف ـ القاهرة) : ١١٣ .

(٢١) ملوك العرب ج١ (الطبعة الرابعة ـ دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٦٠) : ١٨ـ١٩

(٢٢) فيصل الاول (الطبعة الثانية ـ دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٥٨) : ٨١ .

(٢٣) المرجع السابق : ٨٣

(٢٤) المغرب الاقصى : ١٥٧

(٢٥) ملوك العرب ج١ : ٢٥٠ ـ ٢٥١

(٢٦) انظر وصفه بعض النماذج البشرية في بحثنا المشار اليه سابقا في مجلة العربي الكويتية .

(٢٧) انظر في ذلك ملوك العرب ج٢ : ١٠٩ ـ ١٥٦

(٢٨) المغرب الاقصى : ٢٥٥ ـ ٢٥٧

(٢٩) يقول في هذه القصيدة ، في هامش صفحة ٤٤ من كتاب (قلب العراق) :

« Take her up Tenderly ,

Lift her with Care ,

Fashioned so Slenderly ,

Young , and so fair . »

(٣٠) قلب العراق (الطبعة الثانية ـ دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٥٧) : ٤٤ ـ ٤٥

(٣١) قلب العراق : ٩٠ ـ ٩١

(٣٢) ملوك العرب ج٢ : ١٥٠

(٣٣) المرجع السابق : ١٩٩

(٣٤) المغرب الاقصى : ٤٤١ ـ ٤٤٢

(٣٥) المغرب الاقصى : ٤٤٢ ـ ٤٤٣

(٣٦) المرجع السابق : ١٥٤

(٣٧) المرجع السابق : ٢١١

(٣٨) انظر « القامة الكبكجية » ـ الريحانيات ج٢ : ٨٣ ، وموضوع « قيمة الحياة » ـ الريحانيات ج١ : ١٤٨

(٣٩) فيصل الاول : ١٠٧ . كان هذا الانكليزي يرى ان الاسكتلنديين هم من بلاد مابين النهرين ويتحدرون من حمورابي ، وان كاليدونيا ـ الاسم القديم لاسكتلندا ـ مشتقة من الكلدان .

(٤٠) أمين الريحاني ـ ادب وفن (الطبعة الاولى ، دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٥٧): ٨٣

(٤١) فيصل الاول : ١٠٢ ـ ١٠٣

(٤٢) انظر في ذلك بحثنا المشار اليه في مجلة البيان الكويتية .

(٤٣) المغرب الاقصى : ٧٩

(٤٤) قلب لبنان (الطبعة الثالثة ، دار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٦٥) : ١٨٤

(٤٥) المرجع السابق : ١٩٧

(٤٦) ملوك العرب ج١ : ٤٣٥

(٤٧) قلب لبنان : ١٥٢

(٤٨) المرجع السابق : ٢٩٣

(٤٩) ملوك العرب ج٢ : ٩٠

(٥٠) قلب لبنان : ١٢٣

(٥١) ادب وفن : ٥٦

(٥٢) ـ (٥٣) أدب وفن : ٥٥

(٥٤) من امثلة ما أورده : البندق ـ اختصار لفظ بندقية عند العرب ، وجمعها بنادق . المعاميل ، ادوات القهوة ، اي مقلاة التحميص والجرن والاباريق والفناجين . الدرهام ، نوع من الخبب ، واللفظة في اصطلاح عرب نجد والحجاز ، وهو ثلاث درجات ، درهام خفيف ، ودرهام « صقلاوي » ، نسبة الى الخيل الصقلاوية ، ودرهام يقرب من الغارة . نحتسي اللي لنا واللي علينا ، أي نحكي الذي لنا والذي علينا . وعرب العراق والشام يلفظون الكاف (تش) ، وعرب نجد يخففونها فيلفظونها (تس) ، (وذلك ما عرف عند العرب قديما باسم ـ الكشكشة ـ) . الغالي ـ

الارض التي فيها مرعى . (ومن كلمات البدو اذا نزل المطر : اللهم اجعلها في مغاني ارتسابنا ولا تبل ثيابنا) . ويعلق على ذلك في دعابة مرحة ، فيقول « البدو مثل السياسيين ويورد كذلك بعض الالفاظ والمصطلحات من العراق والمغرب ولبنان ، ولا داعي للتمثيل عليها » ونكتفي بما اوردنا من الفاظ نجد ومصطلحاتها .

(٥٥) المقدمة المشار اليها في ذيل كتاب « التطرف والاصلاح » : ٨٨

(٥٦) قلب لبنان : ٢٠٥

(٥٧) أدب وفن : ١٦٥

(٥٨) الادب العصري في العراق العربي — روفائيل بطي (المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٣) : ٩٤

(٥٩) في منزل الوحي (الطبعة الثانية ١٩٥٢) : ١٩٩

(٦٠) في منزل الوحي : ٤٦٨

(٦١) المرجع السابق : ٨٦

(٦٢) ولدي (مطبعة السياسة — القاهرة ، ١٩٣١) : ١٢٨

(٦٣) المرجع السابق : ١٣٩

(٦٤) رحلة الحجاز (مطبعة فؤاد — القاهرة) : ١٠٤

(٦٥) دكتورة نعمات أحمد فؤاد — أدب المازني (مطبعة دار الهنا — مصر ١٩٥٤) : ٢٣٥

(٦٦) انظر الكتاب ، الصفحات : ١٤٢ — ٧٤ — ٧٥ — ١٣٨ — ٦٩ — ٣٨ وكثيرا غيرها .

(٦٧) رحلة الحجاز : ١٠٨

(٦٨) انظر أدب المازني : ١٩٣

(٦٩) د . طه حسين — رحلة الربيع والصيف (طبعة دار العلم للملايين ، ١٩٥٧ — بيروت) : ١٧٧ — ١٧٨

(٧٠) المرجع السابق : ٦ — ٧

(٧١) المرجع السابق : ١٧٨ — ١٧٩

(٧٢) رحلة الربيع والصيف : ١٦١

(٧٣) انظر الصفحات : ٥٦ — ٥٧ — ٧١ — ٧٢

(٧٤) المرجع السابق : ١٦٦ – ١٦٧

(٧٥) المرجع السابق : ٣٦

(٧٦) المرجع السابق : ٩٥

(٧٧) رحلة الربيع والصيف : ١١٨

(٧٨) المرجع السابق : ٩٧

(٧٩) أبو الهول يطير (المطبعة النموذجية – القاهرة) : ١٧

(٨٠) المرجع السابق : ٣٨

(٨١) المرجع السابق : ٢٥

(٨٢) المرجع السابق : ٩٩

(٨٣) شمس وليل (الطبعة الاولى ، المطبعة النموذجية ١٩٥٨) : ٥٤

(٨٤) شمس وليل : ١٠٧ – ١٠٨

(٨٥) المرجع السابق : ٦٠

(٨٦) المرجع السابق : ٤٦ – ٤٧

(٨٧) المرجع السابق : ٣٨ – ٣٩

(٨٨) سندباد الى الغرب (طبعة دار المعارف بمصر) : ١٢٨ – ١٢٩

(٨٩) سندباد الى الغرب : ١٤٠ – ١٤٢

(٩٠) المرجع السابق : ١٢٧ – ١٢٨

(٩١) سندباد عصري (مطبعة الاعتماد – القاهرة ١٩٣٨) : ٢١٦ – ٢١٧

(٩٢) المرجع السابق : ٣٠ – ٣١

(٩٣) سندباد الى الغرب : ١٢٧

(٩٤) سندباد عصري – صفحات استهلال الكتاب

(٩٥) جورج غريب – ادب الرحلة ، تاريخه واعلامه (سلسلة الموسوع في الادب العربي) : ١٤١ – ١٤٢

(٩٦) ميخائيل نعيمه – مجلة محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية عدد ١٢ سبتمبر ١٩٥٠ –

(٩٧) جورج سكاف – حقائق لبنانية (طبعة دار مكتبة الحياة – ١٩٦٠) القاهرة .

بعض حالات تطير العامة في دمشق وعاداتهم

عادل أبو شنب

يتطير العامة في دمشق من حالات ، لايعرفون مصادرها وأسبابها ، وحتى المثقفون يتصرفون ، أحيانا ، دون وعي منهم ، وكأن هذه الحالات عائشة في أعماق شعورهم .

ولعل هذا الرصد لعدد من هذه الحالات والعادات .. هو أول محاولة في هذا الصدد ، اذ لم يعرف عن بحاثة سابق في سورية انه اهتم بما نهتم به الآن ، أو رصد ما نرصد .

واذا لم تكن هذه الحالات ، التي هي جزء من عادات موروثة ، لايعرف من ابتكرها ، والمتناقلة عبر الاجيال ، اذا لم تكن هي الفولكلور ، في أكثر من تعريف له ، فالى اي جنس تنتسب ، والى أي علم ترد .. خاصة وانها تنقرض بالتطور، وارتفاع المستوى الثقافي العام، وبانحسارالغيبيات عن طبقات عديدة من طبقات المجتمع .

ان الجيل الذي انتمي اليه لايزال يمارس هذه العادات ، وقد حملها عن الجيل الذي سبقه ، لكن الاجيال التي تلت تحررت من بعضها أو منهـا

جميعاً ، ولست اشك في ان المجتمع قد يتحرر منها نهائيا بقدوم القرن الحادي والعشرين ، ولهذا غدا واجبا حصرها وتعدادها ، لانها تشكل « الفكر » الغيبي لشعبنا ، او جزءا منه ، في مرحلة زمنية . ولايتم التحرر من هذا الفكر الغيبي مجانيا ، بمعنى ان المجتمع يخلق عاداته الجديدة ، بنسيان عاداته القديمة ، بحيث يتم التلاؤم بين العادات المستحدثة وبين المناخ الحضاري الذي يغرق المجتمع فيه ، بكل ما في هذا المناخ من رموز وادوات ووسائل وتقنيات .

ان تعداد الحالات ، كما سيلي ، لايعني اننا نأتي على مافي المجتمع العربي السوري ، وبخاصة الدمشقي ، منها ، لكنه يضع جانبا من فكرنا الغيبي تحت المجهر ، فهذه ليست سوى المدخل أو البداية .

■ ■ ■ ■

١ ــ يتطير العامة في دمشق من « قص الاظافر » ليلا ، وعبثا حاولت فهم هذه الحالة أو ردها الى اصول معينة في التراث او في انماط السلوك ، وحتى « الحض على القاء شقف الاظافر المقصوصة في الاصص المزروعة » ــ وهي عملية مكملة لعملية الامتناع عن قصها في الليل ــ لايمكن رده الى اصل معين في السلوك أو في التراث ، والتفسير الوحيد للعملية الثانية هو الحرص على النظافة ، فان يقص الانسان اظافره في مكان جلوسه أوطعامه ناب ، ويؤدي الى القذارة التي لاتنسجم مع طبيعة الحياة اليوميةللمسلم او المسلمة .

٢ ــ يتطير العامة في دمشق من « القاء الماء ، وخاصة المغلي منه من مكان عالٍ ، وخاصة في الليل » ، واذا اضطروا الى ذلك قالوا في اثناء عملية القاء الماء : « دستور » . كأنهم يطلبون ممن يؤذيهم هذا السلوك ان يبتعدوا والتفسير الذي اجتمع الرجال والنساء على ذكره هو أن الماء المغلي اذا سُفح من علٍ « ازعج اخوتنا من الجان ، فنحن نطلب اليهم ان يسامحونا على فعلتنا هذه ، وان يبتعدوا » .

٣ ــ يتطير العامة من الغسيل يوم الاثنين . ولعل سبب ذلك ان هذا اليوم

له قدسيته الخاصة عند المسلمين ، ففي يوم الاثنين ولد الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم .

٤ ـ يتطير العامة من زيارة المرضى يوم الاربعاء . ويعتبرون الاربعاء يوما يبدأ بعد عصر الثلاثاء وينتهي باذان العصر يوم الاربعاء .

٥ ـ يتطير العامة من رفة اهداب العين ، اليمنى او اليسرى ، ويعتقدون أن مصيبة ستحل ، وليس بالضرورة ان تحل بمن اهدابه ترف . ومع ان الاطباء عزوا رفة اهداب العين واهتزازها الى اسباب فيزيولوجية خالصة ، فان العامة مازالوا يتطيرون من هذه الحالة ، ويقولون : « اللهم اجعله خيرا » .

٦ ـ يتطير العامة من الكتاب المفتوح في البيت . والقاعدة اغلاق الكتاب « حتى لايقرأه الشيطان » ، ولقد جاء هذا التطير في تقديري من حرص المسلمين على كتابهم الكريم ، القرآن ، ورغبتهم في صونه ، والحفاظ عليه.

٧ ـ ويمارس العامة في دمشق عادة « اعادة الحذاء المقلوب الى وضعه الطبيعي » ، ويتجلى في هذه العادة اجلال الخالق ، فالعامة الذين يقدرون السماء ، بسبب من تقدير الدين لها ، يجلونها عن ان تكون اقفية الاحذية متجهة اليها .

٨ ـ ويمارس العامة عادة « قلب البسط والسجاد على اقفيتها في المنازل عند حدوث وفاة » ، والمعزون يدوسون عادة على السجاد المقلوب . ولست اظن ان هذه العادة قد بقيت على حالها حتى اليوم ، ويماثلها في الاندثار عادة « نزع الصور عن الجدران » عند الوفاة وعادة « تغطية الاثاث بالشراشف البيضاء » .

٩ ـ ويمارس العامة عادة « الامتناع عن الكنس والشطف » عند الوفاة. وغالبا يكون المتنعون من الجيران الذين علموا بالنبأ المحزن . وقد يكون

سبب ممارسة هذه العادة حرص الجار على عدم الظهور بمظهر الفرح الذي يعنى ببيته ، وجاره غارق في حزنه ، او قد يكون السبب تطير الجار من عملية الكنس نفسها التي تعني ان من يكنس بيته بعد علمه بنبأ الوفاة معرض لحدوث وفاة في بيته هو .

١٠ ــ ويمارس العامة عادة « دفن بقايا الختان ــ الطهور ــ » في احشاء الارض وبما لان هذه البقايا مأخوذة من العضو التناسلي للذكر ، الذي هو عامل فعال في استمرارية الحياة ، فكأن في هذه العادة تقديسا وتبجيلا غير مباشرين للجنس .

١١ ــ ويعتقد العامة ان « فردة الحذاء اذا ماركبت على فردة الحذاء الاخرى دون قصد » فيعني أن صاحب الحذاء ينتظره سفر قريب . وقد يكون الشكل التركيبي الذي يحدث بركوب فردة على فردة هو الذي اوحى بهذه العادة .

١٢ ــ ويعتقد العامة في دمشق ان « القطط عندما تلمس وجوهها بأيديها » ــ وهي عادة تكثر القطط من فعلها ــ فهذا دليل على ان أضيافا قادمون الى المنزل الذي مارست فيه القطة هذه العادة . وكذا الامر عندماتخرش القطط بمخالبها على البسط .

١٣ ــ ويعتقد العامة ان « حك الحواجب » يعني ان مسافرا قادم وات من يحكه حاجباه سيرى الى غائب قد عاد .

١٤ ــ ويمارس العامة في دمشق عادة « القاء السن الساقطة على أرض معرضة للشمس » ، ويطلبون من الاطفال الا يلقوا اسنانهم الساقطة الا مع هذا القول : « ياشميسي . خدي سن الحمار وعطيني سن الغزال »(١)

(١) أي : « أيتها الشمس : خذي سن الحمار وامنحيني سن الغزال » والشميسي تصغير محبب للشمس .

١٥ ـ ويكتب المسافر من العامة ، وغالبا مايكلف من يتقن الكتابة ، على باب بيته من الداخل : « ان الله لرادك الى معاد » التي حرفت الكلمة الاخيرة فيها الى « ميعاد » استجلابا لرحمة الله بعودته سالما من سفره، دون أن يصيبه مكروه .

١٦ ـ ويمارس العامة ، حتى الاميون منهم ، عادة « جمع الورق الذي فيه كتابة مخطوطة او مطبوعة من الارض » ضنا بالكلام الذي قد يكون فيه آية كريمة او ذكر لاسماء الجلالة ان تدوسه الارجل ، وهذه عادة مانزال نرى رجال الدين يمارسونها ، ولقد قال لي هؤلاء ان في الاحرف العربية نفسها لقداسة ، لانها الاحرف التي نزل بها القرآن الكريم .

تلك هي بعض حالات تطير العامة وعاداتهم في دمشق ؛ وقد تكون هي نفسها بعض حالات تطيرهم وعاداتهم في المدن والقرى في الوطن العربي ، وهذه ، ان دلت على شيء ـ وهي دالة على اشياء ـ تعني ان فكرا غيبيا كان يسيطر على الناس في المراحل السابقة من التاريخ . والفكر الغيبي ليس سيئا او مستهجنا في مجمله ، وخاصة عندما يتعلق الامر بحالة لها امتداداتها الدينية ، لكنه اقرب الى الخرافة المتوارثة في معظم الحالات . والمثال تطير العامة من القاء الماء المغلي او من قص الاظافر في الليل او رفة الاهداب الدالة على وقوع مصيبة .. او تثبيت دبوس في المكنسة عندما تطول زيارة احدى النساء لجارتها التي ينتظرها عمل كثير في البيت ،كأن هذا الدبوس يحض المرأة على قطع الزيارة ، أو كأن له فعل السحر .

على هامش كتاب «الشعلة الزرقاء»[1]

عيسى فتوح

في عام ١٩٥١ أصدر الدكتور جميل جبر في بيروت ، ولاول مرة ، رسائل جبران خليل جبران التي بعث بها الى أصدقائه الكثيرين ، المنتشرين في الوطن والمهجر ، فكان بينها سبع رسائل فقط كتبها لمي زياده ، وقد تساءل الناس حينذاك : هل يعقل ان جبران لم يحرر لمي الا هذه الرسائل السبع طوال فترة صداقتهما الحميمة التي امتدت الثني عشر عاماً (١٩١٤ ـ ١٩٢٥) وتحولت الى حب أسطوري خالد ؟ في حين ان جبران وهو في نيويورك كان ينتظر رسائل مي وهي في مصر ـ على أحر من الجمر ، ويقول لها :

« ان يوما يجيئني منك برسالة واحدة ، لهو من الايام بمقام القمة من الجبل ، فما عسى ان أقول في يوم يجيئني بثلاث رسائل ؟ ذلك يوم أتنحى فيه عن سبل الزمن ، لأصرفه متجولا في ارم ذات العماد » (من رسالة مؤرخة في ١١ حزيران ١٩١٩) .

لقد ظل البحث قائما على قدم وساق لمعرفة مكان هذه الرسائل الباقية ، التي ستلقي حتما أضواء جديدة على حياة جبران ، وعلاقته الوطيدة بمي ، التي بادلته حبا بحب ، واعجابا باعجاب ، أما ما قيل عن علاقتها بالعقاد ، والرافعي ، وولي الدين يكن ، واسماعيل صبري ... فلم يكن يتعدى الصداقة العادية والاستلطاف ليس أكثر . ولذلك كان موت

(١) منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٩ .

جبران في ١٥ آذار سنة ١٩٣١ عاملا من العوامل الرئيسية التي اثرت في مجرى حياتها وانحرافها النفسي ، اذ أصابها بصدمة عنيفة ، وخيبة امل مريرة ، فاستسلمت لهواجسها ، حتى ادخلت مستشفى الامراض العقلية في بيروت (العصفورية) .

قيمة هـذه الرسائل الوثائقية المفقودة دفعت السيدة سلمى الحفار الكزبري ، والدكتور سهيل بديع بشروئي ، أستاذ الأدب الانكليزي في الجامعة الامريكية في بيروت ، الى مواصلة السعي الدائب ، والتفتيش الحثيث عنها ، حتى عثرا على أربع وثلاثين رسالة مخطوطة في منزل ابن عمها الدكتور جوزيف زيادة في بيروت ، كانت مي قد حملتها من مصر الى لبنان في أثناء محنتها ، وحافظت عليها محافظتها على سر مقدس وكنز ثمين ، فقد كانت تصر علىأن يبقى حبها لجبران مكتوما ، وكانت تعزيتها الوحيدة هي أن تستعيد قراءة هذه الرسائل من حين لآخر ، في ساعات وحدتها وخلوتها ، فهي ذكرى غالية لحب عاصف اجتاح قلبها ، وهي في الخامسة والثلاثين ، قدمره لانه كان حبا صوفيا ضبابيا ، لم يترجم الواقع . لكن مي اعترفت لقرائها بوجود مراسلة طويلة بينها وبين جبران ، بعد انقضاء شهر على وفاته ، فقد نشرت مقالة في مجلة « الحديث » الحلبية لصاحبها سامي الكيالي عنوانها«جبران يصف نفسه في رسائله»ضمنتها فقرات قصيرة من بعض رسائله اليها ، وعبرت عن حزنها العميق عليه ، مصورة غربتها وغربته في الوجود بعبارات موجعة . أما كيف وصلت هذه الرسائل الى ابن عمها المرحوم الدكتور جوزيف زيادة ، فيبدو أن حالتها النفسية ساءت وتدهورت ، فكتبت له في ٢٨ ايلول سنة ١٩٣٥ رسالة مؤثرة ، وصفت فيها آلامها وتردي صحتها ، وطلبت منه الحضور الى مصر لانقاذها مما كانت تعانيه من عذابات نفسية ، معربة عن رغبتها في العودة الى لبنان :

« ... اني أتعذب شديد العذاب ياجوزيف ، ولا أدري السبب ، فانا أكثر من مريضة ، وينبغي خلقتعبير جديد لتفسير ما أحسه في وحولي . اني لم اتألم في حياتي أبدا كما أتالم اليـوم ، ولم اقرا في كتاب من الكتب أن في طاقة بشري أن يتحمل ما أتحمل . وددت لو علمت السبب على الاقل . ولكني لم أسأل أحدا الا وكان جوابه ، لا شيء ، أنه وهم شعري تمكن مني » .

« لا ، لا ، يا جوزيف . ان هناك أمراً يمزق أحشائي ويميتني في كل يوم ، بل في كل دقيقة ... لقد تراكمت علي المصائب في السنوات الاخيرة ، وانقضّت علي وحدتي الرهيبة ـ التي هي معنوية أكثر منها جسدية ـ فجعلتني أتساءل : كيف يمكن عقلي أن يقاوم عذاباً كهذا » ؟

لقد لبى الدكتور زيادة طلبها على جناح السرعة ، لانه كان احنى الاقرباء كلهم عليها ، فمكثت أربع سنوات متنقلة بين العصفورية ، ومصح الدكتور ربيز ، وبيت متواضع في بيروت استاجره لها اولئك الذين هبوا لانقاذها ، ومصيف الفريكة الذي استجمت فيه بجوار صديقها المخلص امين الريحاني ، فيحتمل أن تكون هذه الرسائل النفسية قد بقيت في بيروت بعد عودتها الى القاهرة عام ١٩٣٩ ، وهي في حالة غير مرضية ، اذ عاشت بعد ذلك عامين مريضة ، بائسة ، رهينة منزلها ، الى أن توفيت في ١٩ تشرين الاول عام ١٩٤١ .

ويحتمل أن تكون هذه الرسائل قد عادت معها الى القاهرة ، ولما مات عثر عليها بين أوراقها الخاصة ومخطوطاتها ، فورثها نسيبها في جملة ما ورث من أشياء ، وعاد بها الى بيروت مرة اخرى ، لتدفن من جديد ثمانية وثلاثين عاماً ، حتى أتيح للسيدة سلمى الحفار الكزبري ، والدكتور سهيل بشروئي أن يحققاها ويخرجاها الى النور .

عكفت السيدة سلمى والدكتور بشروئي على هذه الرسائل الوثائقية المهمة فحققاها تحقيقاً علمياً جيداً ، وشرحا في هوامشها جميع أسماء الاعلام التي وردت في متونها ، ووضعا لها مقدمة مسهبة القيا فيها الاضواء على الحب الخالد المتبادل بين جبران ، ومي ، ودرساها دراسة دقيقة تدل على فهمهما ، وقدرتهما الفائقة على التحليل والتعليل والاستنباط ، واختارا لها عنوان (الشعلة الزرقاء) الذي كان جبران قد رسمه في أكثر من رسالة ، واتخذه رمزاً لهذا الحب ، وتحدث لها عنه بقوله :

« هل بامكان الذات المقتبسة ،وهي من الارض ، أن تحور وتغير الذات الوضعية ، وهي

من السماء ؟ ان تلك الشعلة الزرقاء تنير ولا تتغير ، وتحول ولا تتحول ، وتامر ولا تأتمر » .
يقسم كتاب الشعلة الزرقاء الى قسمين : القسم الاول / ٢٠٤ صفحات / ويضم الرسائل المطبوعة حسب تسلسلها التاريخي من عام ١٩١٩ الى عام ١٩٢٥ وفي أعلى كل رسالة تاريخ كتابتها ومصدرها ، اما بوسطن أو نيويورك ، والقسم الثاني / ١٠٢ صفحة : ويضم الرسائل المخطوطة والصور والرسوم واللوحات والبطاقات البريدية التي كان يبعث بها الى مي ، بالاضافة الى رسمه الشخصي بقبعته الاميركية ولباسه الابيض ، وكانت غايته من هذه الرسوم أن يعبر لها عن مهارته الفنية ، وأن يسمو بذوقها الفني وهي تديم النظر الى ما تركه عباقرة الفن في العالم من آثار بالغة الجمال ، فيكتب لها تحت لوحة « المادونا » الخالدة :

« انظري ، يا ماري ، ما اعظم ميكلانجلو . ان هــذا الرجل الذي ابتدع من الرخام طائفة من الجبابرة يستطيع أن يكون عذبا حلوا حتى الدرجة القصوى . ما أحسن حياة ميكلانجلو برهانا على أن القوة الحقيقية هي ابنة العذوبة ، وان اللين الحقيقي هو من نتائج العزم . وأسعد الله مساء الوجه الحلو . جبران » .

هذه الرسائل الاربع والثلاثون التي تنشر لاول مرة ضمن مطبوعات وزارة الثقافة بدمشق ، سوف تحدث صدى كبيرا في العالم العربي والمهجر ، لانها تلقي الضوء على جوانب أخرى من شخصية كانت خافية على الذين تناولوها بالدرس والتحليل من قبل ، وتعرفنا بجبران الطفل ، والصديق ، والعاشق المتصوف وجبران المغترب المتيم بارضه وأهله ، وجبران الرسام والمفكر ، والكاتب العبقري الذي ضحى بصحته وحياته ، واستعذب التعب والارق ، في سبيل تادية رسالته الفكرية والفنية التي كان يؤمن بها ايمانا عميقا ، فالرسائل تستطيع دراسة الكاتب أكثر من مؤلفاته .

والسؤال الذي لا يزال يبحث عن جواب حتى الآن : أين رسائل مي التي بعثت بها الى جبران بالمقابل ؟ وليس بين رسائلها التي نشرها الدكتور جميل جبر سنة ١٩٥٤ (طبعة ثانية) الا خمس رسائل منها فقط ؟ هل هي باقية حتى الآن ، مدفونة في مكان ما في بوسطن

أو نيويورك او غيرهما ؟ أو أن يد البلى قد عبثت بها ، فمزقتها او احرقتها ؟ وهل كان لماري هاسكل التي احتضنت جبران دور في اخفاء هذه الرسائل ، وهي التي حضرت وفاته ؟ كيف استطاع جميل جبر التوصل الى هذه الرسائل الخمس اليتيمة ؟

لقد وعدت السيدة سلمى الحفار الكزبري أن تواصل البحث عن رسائل مي الاخرى الضائعة ، وعن رسائل جديدة لجبران لم يسبق نشرها وسوف تسافر الى الاميركتين لهذا الغرض ، لعلها توفق في العثور على رسائل ووثائق جبرانية ، تحتاج الى من يكشف عنها النقاب . وكان المرحوم المطران انطونيوس بشير ، صديق جبران ومترجم كتبه الانكليزية الى العربية ، قد حدثني في مقابلة نشرت في العدد ثلاثين من مجلة « المعرفة » السورية عام ١٩٦٤ عن رسائل كثيرة لجبران في حوزة السيدة ماري خوري ، التي كانت على صلة وثيقة بجبران ، ومعرفة بخصوصياته ، ولا أدري ما اذا كانت هذه السيدة لا تزال على قيد الحياة حتى الآن .

قد يتساءل القارىء بعد اطلاعه على هذه الرسائل الطافحة بالحب والشوق ، لماذا لم يكتب لهذا الحب ان يتحقق ؟ لماذا لم يجرؤ احد المحبين العاشقين أن يملك زمام المبادرة ، فيزور الآخر ، بالرغم من وعود جبران المتكررة بانه سيحضر الى القاهرة ؟ لماذا لم يلتقيا في مكان ما من أوروبا مثلاً ، وقد زارتها مي وزارها جبران ولكن على غير اتفاق ؟

الواقع أن مي ، وهي الفتاة الشرقية المحافظة المعتدة بنفسها ، كانت تأنف أن تذهب للقاء جبران ، وتأبى أن تسعى اليه برخص . كانت تريد أن يسعى هو اليها طالبا يدها ، فاذا فعل فلن ترفض الزواج منه ، الا ان جبران لم يقدم على شيء من هذا ، لانه كان متردداً في الزواج خائفاً ، لانه سوف يحد من حريته وانطلاقته كفنان يكره القيود ، ويهوى التمرد ، بالاضافة الى أنه كان عليل الجسم ، مهدداً بداء الصدر الذي مات به معظم افراد أسرته .

بعد هذا الجهد المشكور الذي بذله المحققان في اخراج هذه الرسائل ، كنت أود لو دققا أكثر في الرسالة التاريخية المهمة التي بعثت بها مي الى جبران في ١٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٤ ، وباحت فيها بحبها المضطرم ، وصرحت بما كانت تخشى أن تتلفظ به من قبل .

هذه الرسالة الفريدة ، التي اعتمدا عليها بنوع خاص ، هي أجمل ما كتب في تاريخ الأدب العالمي من رسائل الحب والشوق ، سألبت قسماً منها في هذه الدراسة ، واضعاً الكلمات والعبارات التي أسقطها الدكتور جبر بين قوسين ، وهي منشورة في كتاب « رسائل مي » الطبعة الثانية ـ صفحة ٦٨ ، مستغرباً منه هذا التشويه ، وكان قد فعل مثل هذا في الرسائل المتبادلة بين جبران وفليكس فارس في كتاب « **رسائل جبران** » في حين تقضي الامانة العلمية منه ان يكون اكثر تدقيقاً في النصوص ذات القيمة التاريخية المهمة ، والرسالة طويلة نشرها مارون عبود في كتابه (جدد وقدماء) صفحة ١٣١ ، واستغرب كيف لم يرجع أحد منهم اليها ؟

تقول مي في رسالتها المذكورة : « ... جبران ! لقد كتبت كل هذه الصفحات (ضاحكة لاتحاشى قول انك محبوبي) ، لاتحايد كلمة الحب . ان الذين لايتاجرون بمظهر الحب ودعواه في المراقص والاجتماعات (ينمو) الحب في أعماقهم قوة دينامية رهيبة ، قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألأ السطحي ، لانهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر ، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون ان يتمنوها الى نفوسهم ، ويفضلون وحدتهم ، ويفضلون السكوت ، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهي بما لا علاقة له (بالقلب) والعاطفة . يفضلون أي غربة وأي شقاء ـ وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب ؟ ـ على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة .

ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ اني لا أعرف ماذا أعني به ، ولكني أعرف أنك محبوبي ، واني أخاف الحب (اني أنتظر من الحب كثيراً ، فاخاف ان لا يأتيني ما أنتظر) أقول هذا مع علمي بان القليل من الحب كثير (ولكن القليل في الحب لا يرضيني) الجفاف والقحط واللاشيء في الحب ، خير من النزر اليسير .

« ... حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحياناً ، لاني بها حرة كل هذه الحرية ... أتذكر قول القدماء من الشرقيين : انه خير للبنت ان لا تقرأ ولا تكتب (ها قد صدق علي ارتيابهم ، وصدق في سوء ظنهم . لا تقل) ان القديس توما يظهر هنا ، وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء ابعد من الوراثة ... » .

---

(٢) وردت ينمي

هل هذا تحقيق وأمانة في النقل ؟ والا فما معنى أن يستبدل الدكتور جبر عبارة (خير ما في يظل حائما حواليك) بعبارة (خير ما يفعل هو أن يظل حائما حواليك) ؟ وأي قارىء عادي يمكنه أن يدرك فرق المعنى بين الجملتين ، ويلاحظ متانة السبك في الاولى وركاكته في الثانية .

حبذا لو عاد الدكتور جميل جبر الى رسائل جبران ورسائل مي فحققها تحقيقا علميا جيدا بنشر النصوص مطبوعة ومخطوطة ، كما فعلت السيدة سلمى الحفار الكزبري ، والدكتور بشروئي ، ليطمئن القارىء الى ثقة ما يقرأ ، والكاتب الى ثقة ما ينقل .

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الشعلة الزرقاء

رسائل جبران خليل جبران الى ميّ زيادة

تحقيق: سلمى الحفار الكزبري: د. سهيل بشروئي

■ ■ ■

البحث عن الزمن المفقود ج ٢

تأليف: مارسيل بروست ترجمة: الياس بديوي

■ ■ ■

الجنيات العشر

قصص للأطفال

ترجمة: اليان ديراني

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي :

على طريق محو الامية

« دراسة »

تاليف : سميح عيسى

■ ■ ■

في القلب شيء آخر

« مجموعة قصص »

تاليف : د. ناديا خوست

■ ■ ■

من مختارات التراث

الجزء الثاني من كتاب الحيوان

تحقيق : نعيم الحمصي ـ عبد المعين الملوحي